المشرق
بيروت

السنة الثانية والثلاثون — كانون الثاني – آذار ١٩٣٤

حالة الاسلام

في القرن الرابع للهجرة

بقلم الاب لامنس اليسوعي

ان من يُلقي نظرة دقيقة على حالة الاسلام السياسية في اوائل القرن الرابع للهجرة يتحقّق ان تلك الحالة ليست على شيء من الازدهار. فان الخلافة ، اذ ذاك ، اصبحت عرضةً للفوضى والانقسام فالتجزؤ . حتى ان تلك الامبراطورية الفسيحة التي اورثها الامويون العالَمَ الاسلامي غدت مجموعة دويلات تتناظر وتتنافس ان لم تتقاتل وتتطاحن . فاستقلّ ببلاد فارس بنو بويه ؛ وبالعراق والجزيرة بنو حمدان ؛ وبسط الاخشيديون سلطتهم على مصر وسورية ؛ والفاطميون على افريقية ؛ وظلّ الامويون سائدين في اسبانية ؛ وبنو سامان في خُراسان وما وراء النهر ؛ وكانت بلاد العرب الجنوبية ومنطقة البحرين تخضع للقرامطة ؛ وجُرجان وطبرستان في حكم الديلم ؛ والبصرة وواسط في حكم البريدي . اما الخليفة فلم يبقَ له الا مدينة بغداد

وقسم من السواد . هذه ، بالاختصار ، حالة البلاد الاسلامية في اواخر القرن الثالث للهجرة .

على ان ملوك هذه الدويلات الاسلامية وامراءها كانوا يحتفظون للخليفة ببعض الميزات الشرفية . فكانوا يقرّون بسلطته العالية بان يجعلوا اسمه في المكان الاول من خطبة الجمعة ، ويطلبوا منه تثبيت القابهم ، ويرسلوا اليه الهدايا والتقادم . وان هذه الاشارات التكريمية هي التي دفعت بعض المؤلفين الى المقابلة بين الخلافة والبابوية . كما ان هذه الميزات الشرفية وحدها تبرّر ما كتبه المسعودي في نحو السنة ٣٣٢ هـ (٩٤٤) من ان « عَمَل امير المؤمنين من فرغانة واقصى خُراسان الى طنجه بالمغرب ثلثة آلاف وسبع مائة فرسخ . »[١] وهي مساحة عظيمة . الا ان الخليفة لم يكن له فيها سوى شبح من السلطة ضئيل .

ولم يقف الانحطاط عند هذا الحد . فان كرامة الخلافة اصبحت العوبة الثورات المتتابعة في البلاط ، يلعب بها الوزراء وقوّاد الجيش من الترك او الديلم كيف شاؤوا ومتى شاؤوا . فتراهم يخلعون من الخلفاء ، ويقتلون ، ويولّون ، دون سبب سوى مشيئتهم الغلّابة . وقد يولّون الخلافة ولدًا ابن ثلاث عشرة سنة ليستبدّوا بالحكم استبدادًا تامًّا ، فيشركون بالسلطة امَّ الخليفة ، واكثر ما تكون من الجواري المولدات ، مثقفين وخصيان البلاط . وقد كثر عدد هؤلاء في العصر الذي يهمّنا فاحتلّوا المراكز المختلفة وبلغ بعضهم اعلى الدرجات حتى في مراتب الجيش . وقد يكتفي هذا الجمهور المستبدّ بخلع الخليفة وسمل عينيه فقط كي لا يقوى على استعادة السلطان[٢] . وفي اثناء هذه العملية الفظيعة كان الترك يأمرون بضرب الطبول كي يغطّوا صراخ الخليفة المسكين وعويل نسائه فلا يُسمع شيء من الخارج . ثم يتركون هؤلاء المخلوعين ، فيتلاشون شيئًا فشيئًا في الفقر والمسكنة ، حتى لقد كان منهم من يقضي العمر لابسًا الصوف ومحتذيًا

---

١) المسعودي : مروج الذهب ٤ : ٢٧-٢٨

٢) المسعودي : التنبيه ، ص ٣٨٨

قبقاب الخشب[١].

وفي هذا العصر كان الخلفاء، وقد هبطوا الى درجة لا يؤبه لها، يعدّدون الالقاب الشرفية كالسلطان، والملك، والامير، وامير الامراء، وما شاكل، ويمنحونها جُزافاً مخترعين نوعاً جديداً منها ينتهي «بالملّة» او «الدولة» او «الامة» كبهاء الدولة، وتاج الملة، وما الى ذلك. وليس لهم من غاية الا تذكير الناس بوجودهم، واخفاء ضعفهم الحقيقي، والسعي في سبيل الربح المادي. فان هذه الالقاب والميزات الشرفية كانت تدرّ عليهم كميات من المال لا يُستهان بها. وكان اول من لقّب بلقب «السلطان» محمود الغزنوي، انعم عليه بذلك القادر (٣٨٢–٤٢٢ ﻫ)[٢] فعرفها له.

ومما يجب ان نشير اليه ان سوقة بغداد تمرّدوا في هذا العصر، اذا ما بلغهم موت خليفة، ان يهجموا على قصره وينهبوا كل ما تصل اليه ايديهم. حتى لقد بلغ منهم ان خلعوا الابواب والنوافذ احياناً. وكان يجاريهم في ذلك خدم القصر، وقد يستقلّون دونهم بهذه الاعمال.

***

كان خلفاء الامويين، واول خلفاء بني العباس، يهتمون بالقاء الخطبة بانفسهم في صلاة الجمعة. وقد اشار التاريخ الى بلاغة معاوية وخلفائه الاولين في هذه الخطب، والى رغبتهم في ان ينعتهم الشعراء «بفرسان المنابر.»[٣] ويقول الخليفة عبد الملك ان همّ القاء الخطبة شيّبه قبل الاوان. على ان العباسيّين تخلصوا شيئاً فشيئاً من هذه العادة. فكان الرشيد اول خليفة القى خطبةً الّفها غيره وحفظها هو عن ظهر قلبه. ولم يدخل القرن الثالث الهجري حتى اخذ الخلفاء يستنيبون من يلقي عنهم خطبة الجمعة من عن منبر الجامع. وقد اشتهر من هؤلاء الخطباء ابن نباتة († ٣٧٤ ﻫ) خطيب سيف الدولة امير حلب. فترك مجموعة خطب يمكن ان نعتبرها مثالاً للبلاغة الدينية في هذا العصر.

١) ابن الاثير: الكامل ٨: ٣٢٣

٢) ابن الاثير: الكتاب المذكور ٩: ٢٦

٣) اطلب في ذلك كتابنا *Mo'âwia I*er, p. 62-64

وهي تخالف كل المخالفة ما نعرف من امثلة الخطابة الدينية في القرنين السابقين. فبينا نرى خطب زياد ابن ابيه والحجاج بن يوسف وغيرهما طافحة بالحماسة القوية والعاطفة المخلصة اذا بآثار ابن نباتة لا تعدو الافكار العامة معبّراً عنها باسلوب مسجع ابعد من ان يعزّز نزوات البلاغة الخطابية. وقد نشأت عادة الاسجاع هذه في منتصف القرن الثالث، ولم تلبث ان تجاوزت الفنّ الخطابي الى انواع الادب عامة فسارت مسيطرةً على الادباء سيطرتَها على الخطباء. فاضرّتهم جميعاً. وكان خطيب الجمعة في البلاد المقرّة بالخلافة العباسية يلبس، على المنبر، الجبة السوداء. اما في بلاد الفاطميين فكان يرتدي جبةً بيضاء. وفي بعض الجوامع كانوا يرفعون، فوق الصحن، ستاراً واسعاً يظلّل المستمعين اثناء الخطبة[1].

* * *

لا يأتي القرن الرابع الهجري كثيراً على ذكر الخوارج الذين كانوا قد خضبوا البلاد الاسلامية بالدم مرات عديدة مدة القرنين السابقين. على ان هناك حركات اخرى تستحق الذكر، هي حركة الشيعة المتحفزة للاتساع بعد ان استكنت طويلاً، وحركات البدع والفئات المتولّدة عنها كالاسماعيلية، والنصيرية، والقرامطة، والفاطميين... وقد كانت بلاد الشام حتى هذا العهد سنّية بجملها بفضل ما ترك فيها الامويون من الاثر الحسن. يدلنا على ذلك ان الامام الشهير النّسائي، مؤلف «جامع السنن»، احد «الكتب الستة» الشرعية، لاقى الامرّين في جامع دمشق، في اوائل القرن الرابع، لانه رفض التبسّط في ذكر مناقب معاوية واراد وضع عليٍّ فوقه.

ولكن لم يستتبّ الامر للدويلات الشيعية الاصل كبني حمدان في حلب، وبني عمّار في طرابلس، حتى اخذ امراؤها بتعزيز مذهبهم في جميع مناطق حكوماتهم. فانشأ بنو عمّار مكتبةً دعوها «دار العلم» في سبيل نشر الآراء الشيعية، وقد نجحوا في ذلك، على قول ناصري خسرو. وازدهرت البدع الشيعية في الجبال خاصة كبعض انحاء لبنان، وجبل عامل، وبلاد العلويين.

---

١) المقدسي: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ٢٠٥، ٤٢٠.

في زمننا الحاضر نرى الشيعة دين الاكثرية الساحقة في بلاد فارس، بل دين الدولة الرسمي ، فنتصوّر ان الفرس كانوا شيعيين منذ العصور الاولى للاسلام . والحقيقة ان هذه السيادة الشيعية بدأت باستتباب الامر للدولة الصفوية في القرن السادس عشر للمسيح . اما في القرن الرابع للهجرة فقد كانت بلاد فارس سنّية في اكثرها ، ما عدا بعض الولايات كقُمّ والمشهد وفيه قبور افراد من « اهل البيت » . ثم استفاد الشيعيون على عهد الدولة الصفوية الشيعية ، فسيّروا الدعاة من جبل عامل يبشّرون الفرس فنجحوا نجاحاً باهراً ، وحوّلوا الى الشيعة تلك الاكثرية التي كانت لا تزال سنّية ، حتى ان الجغرافي المقدسي[1] يذكر ان في زمانه كان اهل اصفهان من الغلاة في التشيّع لمعاوية[2] . وكذلك في القرن الرابع الهجري ، لا قبله ، اخذت المعابد الشيعية الكبرى في النجف وكربلاء تنال شيئاً من شهرتها التي ما برحت تزيد عصراً فعصراً . يدلّ على ذلك ان المسعودي يؤكد في السنة ٣٣٢ هـ ان قبر عليّ لا يعرف مركزه الحقيقي ، فيقول : « وقد تنوزع في موضع قبره . فمنهم من قال انه دُفن في مسجد الكوفة . ومنهم من قال انه حُمل الى المدينة فدفن عند قبر فاطمة . ومنهم من قال انه حُمل في تابوت على جمل ، وان الجمل تاه ووقع في بلاد طي . »[3] ولكن الشيعيين اخذوا بعد هذا العهد يبنون في النجف اثراً فخماً في محل زعموه موضعاً لهذا القبر . ولم تلبث ان جرت عادة بينهم تدفعهم الى اختيار مدافنهم في جوار ذلك الاثر . وقد اعادوا كذلك في كربلاء . قبر الحسين ابن علي الذي كان الخليفة المتوكل قد هدمه ، وحرث مكانه بالسكة ، فحوّله الى حقل يُزرع . وكذلك اعتاد الشيعيون ان يختاروا مدافنهم في كربلاء . ولا يزالون على هذه العادة الى يومنا هذا . ولا يندر ان نسمع بمن يوصي ان تُحمل

---

١) المقدسي : الكتاب المذكور ، ص ٣٩٩

٢) ليُراجَع في هذا الباب المقال النفيس الذي نشره في المشرق (٢٦[١٩٢٨] ٤١١...) زميلنا الفاضل حبيب زيات بعنوان « التشيّع لمعاوية في عهد العباسيين » ، وفيه الادلة الوافرة على الهوس في تكريم مؤسّس الخلافة الاموية .

٣) المسعودي : مروج الذهب ٤ : ٢٨٨–٢٨٩ ؛ ٥ : ٦٨

جثته على مسافة ايام لتُدفن في تلك الارض المقدسة في النجف او كربلا. كما حدث لكافور الشهير، الوزير المصري، اذ اشترى بيتاً في المدينة، الى جنب قبر النبي، واقام فيه قبراً واوصى بان يُنقل اليه فيدفن فيه[1].

***

وهناك القرامطة الذين حلّوا محلّ الخوارج في اعمال الهمجية والتفظيع. فاخذوا، منذ منتصف القرن الثالث، يقطعون الطرق وينكّلون. وقد دخلوا البصرة والكوفة ونهبوهما، وكادت بغداد نفسها تقع في ايديهم. وفي السنة ٣١٧هـ هجموا على مكة فدخلوها واعملوا السيف في الحجاج، ونهبوا الكعبة، وقد عاونهم سكان مكة انفسهم في هذا النهب. ثم رجعوا حاملين الحجر الاسود، ولم يردّوه الا في السنة ٣٣٩ لقاء فدية اقام العالم الاسلامي ٢٢ سنة حتى جمعها. مما يدفعنا الى السؤال: لِمَ تأخر المسلمون طول هذه المدة في افتداء حجرهم؟ أوَ يكون في ذلك شيء من عدم الاهتمام او الاهمال؟. على ان الحجر المذكور أُصيب بعدة نوائب منها ما كان اشدّ مما انزل به القرامطة. من ذلك ان احد المصريين في السنة ٤١٣ هـ على عهد الخليفة الفاطمي الحاكم، هجم على الحجر الاسود وضربه بدبوس فكسر منه قطعاً. فأُخذ الجاني وقُتل في الحال وجُمعت القطع وأُلصقت بعضها الى بعض. وهناك غيرها من الاعتداءات على الحجر يطول بنا سردها[2].

وكان من نتيجة فظائع القرامطة هذه وجشع البدو الدائم ان اصبح من الصعب على المسلمين ان يؤدّوا فريضة الحجّ. اذ كانوا يتعرّضون للقتل المؤكد بعض الاحيان. وقد شاهدت السنة ٣٨٤ هـ. قافلة السلطان الرسمية ترتدّ عن طريق الحجّ، لان البدو قطعوا عليها الطريق بحجة انها دفعت لهم دراهم زائفة[3]. وفوق المصيبة بالبدو، كانت المصيبة بالعطش تزيد الصعوبات. وذلك

١) ياقوت: ارشاد الاريب ٢: ٤٠٨
٢) ورد شيء من ذلك في مشرق السنة (٣٠ [١٩٣٢] ص ٦٦٦) عن جريدة «صوت الحجاز» المكية بمناسبة اعتداء احد الحجاج الافغان على الحجر المذكور سنة ١٩٣٢
٣) ابن الاثير: الكتاب المذكور ٩: ٧٤

ان الآبار ومخازن الماء، على طريق الحج، كانت قد خربت او كادت بسبب الاهمال او التعديات الجمة. وقد بلغ ثمن قربة الماء سنة ٤٠٢ ﻫ مائة درهم. وفي السنة التالية افرغ البدو مخازن الماء، فاتلفوا الوف الحجاج عطشاً، ومن لم يمت اسروه حتى بلغت ضحاياهم خمسة عشر الفاً. وفي السنة ٤٠٥ بلغت ضحايا الحج ٢٠,٠٠٠ ماتوا جوعاً وعطشاً، و ٦,٠٠٠ دفعوا الى شرب بول الجمال كي لا يموتوا. فنشأ عن هذه الصعوبات عادة جديدة، في القيام بفريضة الحجّ، وهي ان يوكّل الانسان من يحجّ مكانه، فيدفع له مبلغاً من المال، فيستفيد الرجلان: الموكَّل الفائدة المادية، والموكِّل الفائدة الروحية. على ان القائمين بهذا الحجّ المأجور لم يكونوا ليستفيدوا شيئاً لا في تحسين اخلاقهم، ولا في زيادة مالهم، على ما حكم به الجغرافي المقدسي اذ قال: «رأيت من حجّ باجرة انتكس قلبه. فان عاد ازداد نكوساً وقلّ ورعه، حتى ربما اخذ الحجتين والثلاث، ولم أرَ لهم بركة، ولا جمعوا منه مالًا قطّ.»[1] ولا شكّ في ان هذه العادة انتشرت بسرعة حتى تمكن ابو حيّان التوحيدي من ان يؤلف سنة ٣٨٠ ﻫ رسالة في «الحجّ العقلي»[2]. وكان ابو حيّان هذا صوفيًا، ولا يخفى ان الصوفيين لم يكونوا ليعزّزوا الحجّ.

واذا نظرنا الآن الى سياسة الاسلام الخارجية في القرن الرابع الهجري رأينا ان البيزنطيين ظهروا في مواضع عديدة على المسلمين، وتوسّعوا في فتوحاتهم. وقد دفعت هذه المظاهر كلها بعض المسلمين المخلصين فكانوا يرفعون الى الله تشكياتهم من ضعف سلطة الخليفة، ومن اهمال فريضة الحجّ، ومن تقدم «الكفار» السريع. ووافق هذا التضعضع في السلطة الاسلامية العليا تتابع ثلاثة قوّاد عظام على عرش بيزنطية هم نيقفور، وزمسقس، وباسيليوس. وكان هذا من اعظمهم وقد ملك اكثر من نصف قرن. ومما يُذكر من همة نيقفور انه مشى على البلاد الاسلامية ففتح مدن كليكية، وترسيس، فحلب،

---

١) المقدسي: ك.م. ص ١٢٧

٢) ياقوت: الكتاب المذكور ٥: ٣٨٢

فانطاكية ، فحماه ، فحمص ، فبعلبك ، فبيروت . وافتدت دمشق نفسها بان دفعت ٦٠,٠٠٠ دينار . فثار الشعب في بغداد على اهمال السلطة وضعفها وكسر المنابر في المساجد وهجم على قصر الخلافة .

وكانت هذه الحوادث الخارجية تزيد في الفوضى السائدة في بغداد نفسها ؛ بسبب المشاحنات القديمة بين السنة والشيعة التي كثيرًا ما كانت تؤدي الى التقاتل الفعلي . وكذلك كان شأن الحنابلة مع تبّاع سائر المذاهب السنية ، فانهم كانوا ينعون عليهم التهتك والخروج عن طرق الدين القويمة فيردّ عليهم هؤلاء . وينشب العراك ، وتسفر النتيجة عن بعض الجرحى او القتلى وعن حرق الجوامع والمكاتب . واذا قُيّض الظفر للحنابلة ، فانهم كانوا يدخلون دور الاشراف وكبراء الدولة فيكسرون ادنان الخمر وآلات الموسيقى ، والحكومة عاجزة عن ان تردعهم . واذًا فلا غرابة ان يقوم في السنة ٣٣١ ﻫ رئيس عصابة من قطاع الطرق يُدعى ابن حمدي فيطلق رجاله على بغداد ينهبون ويسلبون ، متفقين مع عدة من كبار رجال الدولة على ان يدفع لهم ابن حمدي راتبًا شهريًا يبلغ ١٥,٠٠٠ دينار . ولا غرابة ان يميل سكان بغداد الى هجرها ، بعد ذلك ، حتى يخاف المقدسي ان تُصبح مقفرةً كما اقفرت سامراء من قبل[1] . ومما زاد في هذه المصايب حريق هائل شبَّ سنة ٣٦٢ ﻫ فاتلف ٣٣ جامعًا ، واهلك ١٧,٠٠٠ نفس . فاتهم الناس السلطة بانها دبّرت هذا الحريق عقابًا للسكان وتمهيدًا لقمع الحركات الفوضوية .

ولم تكن حالة الاسلام في الغرب بافضل منها في الشرق . فان مسيحيي الاندلس كانوا ، كمسيحيي آسية الصغرى ، يتقدّمون تقدّمًا متواصلًا على المسلمين .

الا ان هناك مكانًا كان يتقدّم فيه الاسلام تقدّمًا جغرافيًا . هو الحد الشرقي . فان السنة ٣١٣ ﻫ شاهدت فتح بلوخستان ، وكانت لا تزال على وثنيّتها حتى ذاك الوقت . وفي السنة ٣٤٩ ﻫ اسلم نحو ٢٠,٠٠٠ مضرب من مضارب الترك الرحّل في آسية الوسطى . وقبل آخر القرن دخل الاسلام بلاد

---

١) المقدسي : ك . م . ص ١٢٠

قشغار وبلاد ختن، بينا كان السلطان محمود الغزنوي يفتتح افتتاحات جديدة في بلاد الهند.

***

كان القرن الاول للاسلام عصر اتساع وفتوح صرفت فيه قوى المسلمين الى العمل والجد الخارجيين، حتى لا يمكننا ان نتخيّل خالد بن الوليد او عمرو ابن العاص او زياد ابن ابيه او الحجّاج يهتمون بالمناظرات الكلامية او جمع الاحاديث.

ثم كان القرن الثاني فاتخذ الاسلام فيه وفي القسم الكبير من القرن الثالث، يستجمع امره، ويُتم نظامه الداخلي، فيحدّد لاهوته وفلسفته وتقاليده الدينية وفقهه: فيعيّن طريقة تفسيره للقرآن، ويعيد النظرة الاخيرة في تأليف سيرة الرسول. فتنشأ المذاهب الفقهية المهمة: مذهب مالك بن انس († ٧٩٥) ومذهب الشافعي († ٨١٩) ومذهب ابي حنيفة († ٧٦٧) ومذهب احمد بن حنبل († ٨٥٥) ولم يكن ابن حنبل في اول امره الا محدّثاً بسيطاً. ولكن مذهبه توصل الى ان يُعتبر مذهباً فقهياً من جملة المذاهب الشرعية مع الثلاثة الاولى. وقد حصل اختلاف شديد ونزاع قوي، بل عراك، بين هذه المذاهب ولكن المشاحنات هدأت كلها في القرن الرابع الا ما خصّ المذهب الحنبلي. على ان المذاهب الاربعة جميعها، وان اختلفت في الفروع التطبيقية، تظهر على وفاق تامّ في المسائل الجوهرية، وكلها تعتبر شرعية سنّية، ينتمي اليها كل السنيين تقريباً في القرن الرابع. وهناك اقلية كانت تنتمي الى مذهب الاوزاعي الشامي († ٧٧٤) ومذهب داود بن علي († ٨٣٣) المعروف بالظاهري، ومذهب المؤرخ الطبري († ٩٢٣) التي كانت تنقد من تابعيها يوماً فيوماً حتى تنتهي بالانحلال والتلاشي كما حصل لمذهب سفيان الثوري.

وقد عرف القرن الثالث حركة شديدة ورحلات متواصلة في طلب الحديث. فنشأ عن ذلك المجاميع المهمة المعروفة «بالكتب الستة»، واصحابها البخاري († ٨٧٠) ومسلم († ٨٧٤) المدعوان «بالشيخين» وهما اشهر المؤلفين في الحديث كما ان صحيحيهما اشهر المجاميع في هذا الفنّ، يأتي بعد ذلك كتب ابي داود

(† ٨٨٨) والترمذي († ٨٩٢) والنسائي († ٩١٥) وابن ماجة († ٨٨٦). وقد لاقى ادخال مجموع ابن ماجة بين « الكتب الستة » مقاومة شديدة اول الامر. ويُضاف الى هذه الكتب احياناً « سُنن » الدارمي († ٨٦٩). ومن المجاميع المعتبرة « مُسنَد » ابن حنبل وهو في ستة اجزاء كبيرة تبلغ ٢٨٨٠ صفحة محتوية على نحو ٣٠,٠٠٠ حديث. ويكتفي المؤلفون عادةً، منذ ظهور هذه المجاميع، بشرحها، وتلخيصها؛ واذا زادوا شيئاً فانما يزيدون بعض الحواشي والاستدراكات. اما التفتيش الشخصي فقد انتهى زمنه.

والكتب الستة مدينة بشهرتها لكونها ظهرت في زمن سبق عن قرب « اقفال باب الاجتهاد »، ثم لانها جمعت احاديث اتفق عليها اصحاب كل النزعات تقريباً، فكان موقفها متوسّطاً بين ارباب النقد الشديد وتبّاع التصديق الاعمى مع ميل قليل الى هؤلاء، واخيرًا لانها اعرضت كل الاعراض عن الاحاديث الشيعية المحضة. ولهذا لا يرى الشيعيون بعين الرضى البخاري ومسلماً، ولا يستندون في الغالب الى صحيحَيهما.

ومما يجدر بالذكر في ما خصّ الحركة العقلية ان نظريات المعتزلة كانت قد وضعت شيئاً من الاضطراب في عقائد القرن الثالث. وذلك بما جاهرت به من خَلق القرآن، وارادة الانسان الحرّة، وضرورة عدم التمييز في الله بين الجوهر والصفات والا فان المؤمن يُفسد عقيدة التوحيد ويقع في التجسيم. فكان ان الاشعري († ٩٦٥) انفصل عن المعتزلة وعمل على ايجاد مذهب متوسط يرتكز على تعابير مرنة رآها جديرة بالتوفيق بين العقل والوحي وبارضاء ارباب المنطق وسذّج المؤمنين جميعاً. وقد تبعت السنّة مذهب الاشعري حتى يومنا هذا.

وفي ذاك الوقت انتهى التفسير القرآني الى حدّه المعروف. واعظم ممثّليه المؤرّخ الطبري الشهير، وقد ترك تفسيرًا ضخماً في ٣٠ مجلدًا جمع فيها كل ما تركه سابقوه من المعلومات التفسيرية فذكر نصوصها وقابل بينها، مائلاً دائماً الى جهة المحافظين التقليديين.

***

عند ذاك، بعد عمل دام نحو مائتي سنة، وقد أُلفت المذاهب، ووُضعت

« الكتب » ، وانتصرت نظريات الاشعري الكلامية وما اتت بـه من حلول متوسطة ، وأقرّ التفسير التقليدي للقرآن ، عند ذاك ، واعتباراً من القرن الرابع ، اتفق المسلمون على « اقفال باب الاجتهاد » . ومنـذئذٍ اضحى العلماء والمؤمنون البسطاء لا يمكنهم ان يتجاوزوا في شيء تقليـد السلف الصـالح ، واحكام المذاهب الاربعة ، وهم يعتبرون ، في ذلك ، ان جميع المشاكل العويصة درسـها علماء السلف ومحّصوها واشاروا الى حلّها.

وهكذا بينا نرى الخلافة يضعف شأنها ، والفئات الشيعية المختلفة ترفع رؤوسها في مختلف انحاء العالم الاسلامي ، اذا بنا نشهد الاسلام السنّي يستجمع امره ، ويسهر على عقائده ، فيضمّ في وحدة محدودة جميع المواد الضرورية لحياته الايمانية والفقهية . هذه هي الظاهرة التي اشار اليها المستشرق السويسري ميز (A. Mez) فسمّاها « احياء الاسلام »[1] كما لو كان تمركز العقيدة التقليدية ، واقرارها بواسطة « الاجماع » ، ميلاداً جديداً او حياةً جديدة للاسلام.

واذا اردنا ان نحدّد ميزةً دينية للاسلام في القرن الرابع الهجري فـاننا نشير الى اقرار عقائده ومؤسساته الدينية ، هذا الاقرار الـذي مكّن الاسلام ، بفضل منع المناظرة والاستقلال العقلي ، من الحياة حتى ايامنا هذه . ولكن بقي عليه ان يقاوم حملات الالحاد والبدع العصرية . . .

(1 A. Mez, *Die Renaissance des Islâm*, Heidelberg, 1922.



أيمان النصارى الملكانيين*

من قلم حبيب زيات (ڤالون : فرنسة)

روى ابن فضل الله العمري ، بهذا العنوان ، نصّ اليمين التي كان الملكيون يُستحلفون بها في زمانه ، في الدولة المصرية . ويدخل في هذا اللقب خصوصاً ملوك الروم والافرنج وامراء الصليبيين ، فيما عدا الروم البلديين في مصر والشام . وكانت اليمين تُطلب منهم في اوقات الهُدَن والموادعات والعهود . وان الحلف بهـا كان يجري دائماً بين يدي بعض اساقفة الملكيين ورؤساء دياراتهم ورهبانهم ، وبحضور تراجمة الديوان . ومن طالع اليوم هذه الاقسام يعجب كيف كان يتسنّى للتراجمة فهم بعض الفاظهـا وعباراتها وتأدية معناها . ومن اشد الحرمان والخسران ان لا يكون حُفظ لنا متن ترجمة منها في اللسان الرومي او الفرنجي لنرى هل كان المستحلفون يستطيعون ان يسمعوها او يتلفظوا بها دون ان يغلب عليهم الاشمئزاز والارتيـاع ، او الاندهاش والضحك ، لما فيها من العظائم والنقائض والسخافات . وهو ما يدلّ على ان اول من لفّق هذه اليمين الغريبة كان احد كتاب المسلمين ، جمع رُقَعها من كل ثوب ، وتلقّط الفاظها وجملها من كل حدب وصوب ، وقرن بعضهـا ببعض على ما بينها من التنافر والشذوذ ، وألّف منها هذا الاسلوب السمج الذي أُريد به التهويل والسخرية والاهانة . وقد روى القلقشنـدي عن محمد بن عمر المدائني في كتاب « القلم والدواة » ان اصل هذه الأَيمان التي يُحلَّف بها النصارى كان في زمن الفضل بن الربيع . فحكى عن بعض كتاب العراق انه قال :

« اراد الفضل بن الربيع ــ يعني وزير الرشيد ــ ان يستحلف كاتبه عوناً النصراني . فلم يدرِ كيف يستحلفه . فقلت : ولّني استحلافه . قال : دونك . فقلت له : احلف بالملك الذي لا تعبد غيره ، ولا تـدين الا له ، وإلّا فخلعت

*) فصل من كتاب للمؤلف بعنوان « الروم الملكية في الآثار الاسلامية »

النصرانية . وبرئت من المعمودية . وطرحت على المذبح خرقة حيضة يهودية . وقلتّ في المسيح ما يقوله المسلمون « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم . خلقه من تراب . » وإلّا فلعنك البطريك الاكبر والمطارنة والشمامسة والقمامسة والديرانيون . واصحاب المجامع عند مجتمع الخنازير (كذا) . وتقريب القربان . وبما استغاثت به النصارى ليسوع . والّا فعليك حرم[1] ثلثمائة وثمانية عشر اسقفاً الذين خرجوا من نيقية حتى اقاموا عمود النصرانية . والّا فشققتَ الناقوس وطبخت به لحم جمل . واكلته يوم الاثنين مدخل الصوم . . . ورميت الشاهد بعشرين حجراً جاحداً بها . وهدمت كنيسة لدّ وبنيت بها كنيسة اليهود . وخرّقت غفارة مريم وكهنونة داود . وانت حنيف مسلم . وهذه اليمين لازمة لك ولعقبك من بعدك . قال . فقال عون : انا لا استحلّ ان اسمع هذه . فكيف اقولها . وخرج من جميع ما طالبه به الفضل . فامر بها الفضل فكُتبت نُسخاً وفُرّقت على الكتاب . وامرهم بحفظها وتحليف النصارى بها . »[2]

وما لبث الكتاب ان اضافوا الى هذا الخلط والسخف ــ كطبخ لحم الجمل بشقاق الناقوس ــ شناعات ورقاعات اخرى . واستقرّت صورة اليمين على نُسخ شتى ، لا تتباين الا في بعض زياداتها . نختار منها اقلها خَطَلًا وقَذَرًا . وهي الصورة التي اشار اليها العمري في الفصل المعقود على أيمان النصارى الملكانيين . وهذا نصّها ببعض اصلاح فيه :

« انني والله . والله . والله العظيم . وحق عيسى بن مريم . وامه السيدة مريم . ومـا اعتقد من دين النصرانية (افعل كيت وكيت) وإلّا ابرأ من المعمودية . واقول ان ماءها نجس . وان القرابين رجس . وبرئتُ من مر يوحنا المعمدان والاناجيل الاربعة . وقلت ان متّى كذوب . وان مريم المجدلانية باطلة الدعوى في إخبارها عن السيد ايسوع المسيح . وقلت في السيدة مريم قول اليهود . ودنت بدينهم في الجحود . وانكرت اتحاد اللاهوت بالناسوت وبرئت

١) في الاصل المطبوع : جرم ، بالجيم . وهو غلط

٢) صبح الاعشى ، ج ١٣ : ص ٢٨٧-٢٨٨

من الآب والابن والروح القدس . وكذبت القسوس . وشاركت في ذبح الشمامس . وهدمت الديارات والكنائس . وكنت ممن مال على قسطنطين بن هيلاني وتعمد أمه بالعظائم . وخالفت المجامع التي اجمعت عليها الاساقفة برومية والقسطنطينية . ووافقت البردعاني بانطاكية . وجحدت مذهب الملكانية . وسفهت رأي الرهبان . وانكرت وقوع الصلب على السيد ايسوع . وكنت مع اليهود حين صلبوه . وحدثت عن الحواريين . واستبحت دماء الديرانيين . وجذبت رداء الكبرياء عن البطريك . وخرجت عن طاعة الباب . وصمت يوم الفصح الاكبر . وقعدت عن اهل الشعانين . وابيت عيد الصليب والغطاس . ولم احفل بعيد السيدة . واكلت لحم الجمل . ودنت بدين اليهود . وابحت حرمة الطلاق . وخنت المسيح في وديعته . وتزوجت في قرن بامرأتين . وهدمت بيدي كنيسة قامة . وكسرت صليب الصلبوت . وقلت في البنوة مقال نسطورس . ووجهت الى الصخرة وجهي . وصديت عن المشرق المنير حيث كان المظهر الكريم . والا برئت من النورانيين والشعشانيين . ودنت بغير دين النصارى . وانكرت ان السيد ايسوع احيا الموتى وابرأ الاكمه والابرص . وقلت انه مربوب . وانه ما روئي وهو مصلوب . وانكرت ان القربان المقدس على المذبح صار لحم المسيح ودمه حقيقة . وخرجت في النصرانية عن لاحب الطريقة . والا قلت بدين التوحيد . وتعبدت لغير (رب) الارباب . وقصدت بالمطانيات غير طريق الاخلاص . وقلت ان المعاد غير روحاني . وان بني المعمودية لا تسيح في فسيح السماء . واثبتّ وجود الحور العين في المعاد . وان في الدار الآخرة التلذذات الجسمانية . وخرجت خروج الشعرة من العجين من دين النصرانية . واكون من ديني محروماً . وقلت ان جرجس لم يُقتل مظلوماً . »[١]

ولا يخفى ما في هذا الخلط والخبط الغريب من اللغو والحشو والابهام ، وعدم التلازم والتناسب في نسق المعاني حباً بالسجع ، مع كثرة التكرار للمعنى الواحد بالفاظ مختلفة ، كقوله : « دنت بدين اليهود . ودنت بدينهم في الجحود .

١) التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٥٢-١٥٣

وقلت بدين التوحيد . ودنت بغير دين النصارى . وخرجت خروج الشعرة من العجين من دين النصرانية . واكون من ديني محروماً . » وفيه ايضاً ما هو غامض كالمعمى لا يتبين له تفسير صحيح ، كقوله « جذبت رداء الكبرياء عن البطريك . وقعدت عن اهل الثمانين » . ولا يبعد انه اراد برداء البطريك ما يُسمَّى عند الملكية بالمنتية . ويعني بجذبه خلعَ سلطان البطريك كالخروج عن طاعة الباب . واظرف ما هنالك اكل لحم الجمل . ولا ندري في اي كتاب من كتب الفِرَق النصرانية وردت حرمته . وانما هي معروفة عند اليهود . ويُشبه ان يكون التقزّز من اكله عادة كانت مختصة بالملكيين فقط ، دون النساطرة واليعاقبة ، لرغبة هاتين الطائفتين دائماً في مجاملة المسلمين ، ومجاراة اشياعهم من نصارى قبائل العرب المشهورين بقَرَمهم الى هذا اللحم . ومما يثبت ذلك ما رواه البطريك ميخائيل السرياني في تاريخه ، بعد ان ذكر توسط البطريك الملكي افرام الانطاكي لدى الحارث بن جبلة لاقناعه بقبول المجمع الخلقيدوني . قال : « ولما تعذر على افرام ان يثني الحارث عن رأيه الحَّ عليه ان يتقرَّب من يده . فقال له الحارث : « ادعوك الى تناول الطعام معنا . واوعز الى جماعة باللسان العربي[1] ان لا يُحضروا على الخوان الا لحم الجمل . فلما اتوا به . قال الحارث لافرام : « بارك مائدتنا . » فاضطرب البطريك وامسك . فاخذ الحارث في الاكل كعادته . فقال له افرام : « قد نجِست المائدة لانك احضرت امامنا لحم الجمل . » فاجابه : « لماذا تُريد ان تُكرهني على تناول قربانك . وانت ترى انك تتنجس بطعامي . » [2]

وقد تكلف القلقشندي تفسير بعض ما في هذه اليمين . وبنى على اقوالها اعتبارات ونتائج شتّى ذكر من اجلها ان للنصارى اشياء يعظّمونها ، واشياء

١) هذا دليل ظاهر على ان البطريك افرام كان لا يفهم العربية . ولا شك ان الحارث ابن جبلة كان يخاطبه بالسريانية او الرومية . وكان الحارث بطريقاً للروم في الشام ملكاً على بني غسان . وقد سافر غير مرة الى القسطنطينية ، وتوسط لدى يستينيانوس ويستينوس في شؤون كنيسته اليعقوبية . فلم يكن له بدٌّ من تعلم الرومية .

٢) *Chronique de Michel le Syrien*, t. II, p. 247-248.

يحرّمونها واخرى يستعظمون الوقوع فيها . قال في بعضها :

« اما ما يحرمونه فانهم يقولون بتحريم لحم الجمل ولبنه كاليهود . ويقولون بحلّ لحم الخنزير خلافاً لليهود . وهو ما ينكره عليهم اليهود من مخالفة احكام التوراة .

« ويحرمون صوم الفصح الاكبر . وهو يوم فطرهم من صومهم الاكبر .

« واما الاشياء التي يستعظمون الوقوع فيها :

« فمنها القعود عن اهل الشعانين . وهم اهل التسبيح الذين كانوا حول المسيح عليه السلام حين ركب الحمار بالقدس . ودخل صهيون يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر . وهم حوله يسبّحون الله تعالى ويقدسونه .

« ومنها صوم يوم الفصح الاكبر (وقد نسي انه سبق وذكره بين المحرمات) . وصرفُ الوجه في الصلاة عن الشرق . واستقبال صخرة بيت المقدس موافقة لليهود .

« ومنها خيانة المسيح في وديعته . وذلك انهم يزعمون ان كل ما خالفت فيه فرقة من الفرَق الثلاث الفرقة الاخرى كقول الملكانية ان المعاد جسماني . وقول اليعقوبية ان المعاد روحاني . فان الفرقة الاخرى يستعظمون الوقوع في ما ذهب اليه مخالفها . وكذلك كل ما جرى هذا المجرى . »[1]

ولا ندري اين وجد القلقشندي مثل هذه الشروح على ما في بعضها من سوء التأويل وقلة الوضوح . ومن الغريب انه بعد ان نسخ قول الملكية في اليمين المتقدمة « قلتُ ان المعاد غير روحاني » ، لم يفطن الى ما فيه من المناقضة لِما رواه عنهم ان من اقوالهم « ان المعاد جسماني » . ومع انه نقل إنكارهم في القسم « ان في الدار الآخرة التلذذات الجسمانية » وهو في غاية الجلاء والصراحة عاد فزعم ان من معتقدهم « ان في الآخرة التلذذات الجسمانية بالاكل والشرب والنكاح وغير ذلك كما يقوله المسلمون »[2] . وهو في غاية الذهول والتشنيع والتخليط والتناقض .

١) صبح الاعشى ، ج ١٣ : ص ٢٨١–٢٨٧

٢) صبح الاعشى ، ج ١٣ : ص ٢٧٧

الاسكندر الكبير

في سورية وفنيقية *

بقلم الاب رينه موترد اليسوعي

تمهيد

في شهر تشرين الثاني من السنة ٣٣٣ قبل المسيح ، دخل الاسكندر المقدوني بلاد سورية. انتصر في معركة ايسوس ، شمالي الاسكندرونة، فمهدت امامه الطريق الى داخلية بلاد الشام والى الشاطئ الفنيقي . ومن فنيقية مشى على مصر . ومن مصر عاد سائرًا الى ما بين النهرين حيث انتصر انتصارًا باهرًا في معركة أربيل؛ فاصبح ومملكة فارس تحت مطلق تصرفه. وبعد ان اخضع بطائح ايران ، صعد نحو الشمال حتى منطقة بحر قزبين . وقد بدأ اكتساح آسية برمتها حتى وصل الى قلب بلاد الهند ، الى اقصى حدود المناطق المعروفة اليوم بمناطق البنجاب وكشمير . هناك توقفت جيوشه فرفضت ان تتبعه في التقدم على الگانج . عند ذلك عاد الاسكندر منحدرًا ومجرى نهر الاندوس ، ثم صعد في مقدمة جيوشه على شاطئ خليج فارس الشمالي ، بينما كان اسطول نيارك يصعد في مياه الخليج موازيًا لسير الجيش . حتى وصل الفاتح العظيم الى مدينة بابل ، فمات فيها في ١٣ حزيران سنة ٣٢٣ ، وهو يعد المعدات لاكتساح جزيرة العرب.

وغير خافٍ على احد ان هذه العشر السنوات الملأى بالغزوات والمعارك

---

*) هي اولى المحاضرات الملقاة في « معهد الآداب الشرقية » ، في فرع « تاريخ سورية على عهد اليونان والرومان . »

والفتوح تؤلف حلقةً مهمّةً ، وحقبـةً حاسمة في تاريخ العصور القديمـة ، ولم يكن الشرق والغرب قد تعارفا هذه المعرفة ، ولا أثّر احدهما في الآخر الآثار الواضحة التي حصلت على عهد الاسكندر . ولقد كان لسورية وفنيقية نصيبها في هذا التأثير المتبادل من حيث السياسة والثقافة ، كما كان لها نصيبها كذلك في المعارك والاكتساحات . واني اودّ ان اشير باختصار الى حالة هذه المناطق اذ دخل الفاتح الكبير آسية ، وان ألمّ بوصف معاركه على الارض التي نطأها اليوم ، تمهيدًا لما ساحاوله من تقـدير التأثير الـذي احدثه مُلكه في الشرق الادنى . وقد ظهر مؤخرًا كتابان عن الاسكندر الكبير اتانا صاحباهما بمعلومات مفيدة في الموضوع[1] .

فنيقية وسورية على عهد السيادة الفارسية

كانت بلاد فنيقية وسورية ، عندما مشى عليها الاسكندر ، تؤلف قسمًا من المملكة الفارسيـة . ولا يخفى ان المملكة الكلدانية ، او البابلية المتجدّدة ، كانت قد سقطت امام هجمات سيروس سنة ٥٣٨ قبـل المسيح ، فاستولى هذا على ممتلكات تلك الامبراطورية الفسيحة . على انه اتبع سياسة الرفق واللين مع الملوك والامراء الوطنيين ، وهي تلك السياسة التي اتبعها مع اليهود ، ففكّ اسارهم وسمح لهم بالعودة الى بلادهم وتجـديد بناء اورشليم . ونحن نعرف انه ، على عهد ملوك الفرس الأوّل ، كانت المدن الفنيقية لا تزال تحت حكم ملوكها الوطنيين ، يدفعون الجزية للملك الاعظم ، ولكنه لا يتدخل في شؤونهم الداخلية . وكان لهم مجلس اعلى يُعقد مرة في السنة في مدينة طرابلس ، فيجتمع فيه ممثلو المدن فيخوضون في الامور العامة التي تهمّ البلاد الفنيقية بجملها . ولقد كانت المنافسة شديدة بين تلـك المـدن ، ولاسيا بين تير (صور)

---

1) U. Wilcken, *Alexandre le Grand*, Leipzig, 1931; trad. française, Paris, Payot, 1933.

G. Radet, *Alexandre le Grand*, Paris, L'artisan du livre, 1931.

وصيدون (صيدا) . على ان صيدا لم تلبث ان نالت الاسبقية . فان ملوك الفرس كانوا قد انشأوا ضمن سورها (او على مقربة منها بالارجح) فردوساً [١] بنوا فيه قصراً شامخاً . وقد اكتُشف شيءٌ من آثاره المهمة في عصرنا فدخلت المتحف الوطني اللبناني سنة ١٩٣٠ مع مجموعة فورد . وهي آثار اعمدة متوّجة على الطراز الفارسي تشبه تيجان الاعمدة المعروفة في قصر احشورش في مدينة برسيبوليس، او تيجان الاعمدة المكتشفة في سوس والمحفوظة في متحف اللوفر [٢] .

اما سبب هذا الميل الظاهر من ملوك الفرس الى صيدا فالخدمات المهمّة التي قام بها الاسطول الفنيقي في سبيل اولئك الملوك . حتى لقد بلغ نحو الثلاثمائة عدد السفن الفنيقية التي عاونت الملك احشورش في منـاجزة الاغريق، سنة ٤٩٠ ق. م. في الحرب الميدية الاولى.

على ان سلطة ملوك الفرس اخذت تضعف شيئاً فشيئاً منـذ اواخر القرن الخامس . فاخذ الفرعونان نِكتانبو وتاكوس بمقاومة النير الفارسي في السنوات (٣٧٩ — ٣٥٩) . وكان امراء فنيقية يذوقون الامرّين من المرازبة فثاروا بـدورهم على السلطة الفارسية . ولكن لم تأتِ السنة ٣٥١ حتى استقل بالسلطة في بلاد فارس ملك جريء حازم هو ارتحشتا الثالث اوكوس (٣٥٩—٣٣٣) فامر بقتل الرهائن الذين قدّمهم اليه تنّيس، ملك صيدون، وكان عددهم مائة . فسار وفد كبير من الصيدونيين، بلغ خمسمائة شخص، راجين من ارتحشتا ان يرفق بمدينتهم . فما كان من هـذا الا ان امر بقتلهم جميعاً . عند ذاك عرف اهل صيدون ان لم يبقَ امامهم الا الموت، فاقفلوا مدينتهم واعملوا فيها النار حتى احترقت بمن فيها، وكان عددهم، على قول المؤرخين، ٤٠,٠٠٠ نفس (سنة ٣٥١) .

فاذا انتبهنا لهذه الحوادث، ادركنا كيف رأى الصيدونيون في الاسكندر

---

١) اي روضةً. والكلمة يونانية (παράδεισος) مأخوذة عن الفارسية « فَرديس »، وقد ادّت في اللغة العربية الى لفظة « الفردوس » وفي الفرنسوية الى لفظة « *paradis* »

٢) راجع في ما تقدم ذكره: Diodorus, *Bibliotheca historica*, XVI, 41-45
Cf. Eiselen, *Sidon*, 1907, p. 61 ; Clermont-Ganneau, CRAI, 1920, p. 405 ss.

الكبير ، منتقذاً اكبر عندما وصل الى مدينتهم ولم يزر على هذه المصيبة عشرون سنة.

مزاعم الاسكندر وحظه من الظفر

لنقف بالاسكندر المقدوني على حدود البلاد السورية ولنسأله : ١ً بأي صفة يأتي هذه البلاد ؟ ٢ً ما هي معدّاته ؟

١ً هل يتقدّم الاسكندر بصفة فاتح العالم الشرقي ، وبكلمة اخرى ، هل أمّل الاسكندر ، وهو على ابواب البلاد السورية ، بالوصول الى ما سيصير اليه من فتح العالم ؟ لا ، اذ ليس لنا ما يدلّ على كون هذه الفكرة مرّت ، ولو سريعاً ، في ذهن الاسكندر . انما هو يأتي هذه البلاد ، لا فاتحاً ، بل ثائراً لالهة اليونان من احشورش وخلفائه . ولو اظهر رغبته في الفتح لاثار نفور المدن اليونانية نفسها التي كانت قد انتدبته ، بلسان حلف كورنثية ، لقيادة حملة على بلاد فارس ، مؤلفة من رجال مختلف المناطق اليونانية.

وقد كان والد الاسكندر ، فيلبوس المقدوني ، هو الذي أسّس ذاك الحلف فجمع بدهائه بلاد اليونان كلها حول جيش مقدونية ، في سبيل غاية مقدّسة الا وهي محاربة العدو التقليدي او ملك فارس الاكبر.

٢ً والاسكندر مدين كذلك لوالده فيلبوس باكثر معدّاته وبجيشه خاصة.

كان هذا الجيش مؤلفاً من قسمين : قسم الخيّالة وهم فرسان شرفاء ، شاكو السلاح ، جيلو المظهر ، ينتدون كلّهم الى ارفع أسر الدولة ويدعون « اصدقاء الملك ». وقسم المشاة ، وسلاحهم الحراب الطويلة ، وقد تمرّنوا التمرين المتواصل على الحركات المتنوّعة السريعة . اضف الى ذلك ان فنّ التحصين واعمال الحصار كان على تقدم في مقدونية . فاضطلع به رجال الاسكندر ولاسيما القواد المشهورون المدرّبون ومنهم بارمينيون ، قائد الجيوش . ويجب ان ننسب ايضاً الى فيلبوس خطةً حربية كثيراً ما أدّت الى انتصار الجيوش المقدونية ، وهي الخطة المعروفة « بالجبهة الزوراء » او المنحرفة . وسنتكلم

عنها في معرض كلامنا عن معركة ايسوس.

على ان الاسكندر كان ينقصه عاملان مهمان من معدات الحرب هما : الاسطول والمال.

كانت جميع المدن والمرافئ في آسية الصغرى وقيليقية وفنيقية ومصر في يد ملك الفرس . فكان بامكانه ان يسيّر الجيوش والذخائر في تلك المناطق جميعها ، فيهاجم المقدونيين حتى في بلاد اليونان . وكان له اسطول يبلغ ٤٠٠ سفينة يدير اكثرها رجال من امهر بحّارة العصر من الفنيقيين والقبارصة . اما « الاسطول اليوناني » — اذا صحّ ان نعبّر بهذه اللفظة عن المراكب التي جهزتها المدن والجزر الداخلة في حلف كورنتية — فكان ينحطّ كثيراً عن الاسطول الفارسي عدداً وعُدداً . كان عدد مراكبه لا يتجاوز ١٦٠ ، وكان ينقصه الاتحاد ، وقد ينقصه الاخلاص ايضاً . ولهذا كان من الكافي ان تحصل معركة بحرية واحدة للقضاء على اكثر آمال الاسكندر.

ثم هناك المال . وكنوز داريوس الوافرة تمكنه من شراء رجال السياسة ، ومن اثارة الانتقاض على الاسكندر . وقد عرفنا ان ديموستين ، عندما قام ، على اثر وفاة فيلبوس المقدوني سنة ٣٣٦ ، يدعو الى حرية اثينة وكسر النير المقدوني ، كان على اتصال بملك الفرس الاكبر . وكذلك ، حتى بعد دخول الاسكندر آسية الصغرى ، نرى قائداً يونانياً اسمه ممنون يخدم الفرس ويهم بقود جيش فارسي للهجوم على مقدونية . وحتى بعد معركة ايسوس ، نرى أجيس ، ملك اسبارطه ، يتناول من امبراطية الفرس الذهب والمراكب ، فيعدّ العدّة لاحتلال كريت ومحاربة الاسكندر .

اما حالة الاسكندر المالية فكانت بضدّ حالة خصمه . كان مديناً بمائتي وزنة عندما دخل آسية . ولم يكن له ، على ما يقدّر البعض ، الا سبعون وزنة فضة من النقد ، ومؤونة ٣٠ يوماً من الذخائر[1] .

---

١) راجع في ذلك : A. Andréadès, *Les finances de guerre d'Alexandre le Grand*, dans *Annales d'histoire économique et sociale*, I, 1929, p. 321 ss.

خطة الاسكندر

هذا الاسكندر يظهر فقيرًا بالمال، لا اسطول له، معرّضاً لهجوم فارسي يعاكس هجومه فيفتّ في عضده. وعليه فقد رأى، درءًا لهذا الخطر، ان يقوم بخطة عجيبة، فيحتلّ شاطئ البحر المتوسط، قبل ان يهاجم بلاد الفرس متوغلًا في المناطق الاسيوية. وهكذا فانه يشلّ حركة الفرس البحرية، بل انه يتمكن، اذا ما احتلّ مرافئ آسية الصغرى وفنيقية، ان يكسب مراكبها فيحوّل اليه السيادة البحرية. وسنرى ان دخول الاسكندر مدينة صور اظهر دقة هذا الحساب وصواب هذه الخطة، وقد بذل الفاتح في تحقيقها قوة عزمة ورباطة جأش جديرتين بكل اعجاب. فكان الاسكندر اوفر حظًا في ذلك من نابوليون الذي لم يتمكن من مناجزة انكلترة المعتصمة بجزيرتها، وما كانت خطته في حصرها منفردةً عن الشواطئ الاوربية لتوهنها حتى التسليم. اما المملكة الفارسية فلم تكن ضمن جزيرة بل كان لها الشواطئ على البحر المتوسط، وكان من الكافي ان يحتل الفاتح هذه الشواطئ ليحاربها ويتوغّل في بلادها. وهو ما قام به الاسكندر.

الزحف على الاناضول وعلى سورية الشمالية

من الغريب في هذا الامر ان الاسطول الفارسي لم يحاول منع مراكب الاسكندر (البالغة ١٦٠ خليّة مع بعض المراكب التجارية) ان تمرّ في الهلسبنطس (بحر مرمره).

فكان ان الاسكندر وصل في ايار ٣٣٤، فنزل على الشاطئ الاسيوي، ومعه ١٢,٠٠٠ من عساكر المشاة ذوي الحراب الطويلة، و ١٥٠٠ من فرسان مقدونية، و ١٥٠٠ من فرسان تسالية. وسرعان ما كسر الجيوش الفارسية المتجمّعة على الكرانيك، وهو نهر صغير ينحدر من جبل إيدا ويصبّ في بحر مرمره. ثم احتلّ مدينة ميله، فمدينة هاليكرناس، وهما مدينتان حصينتان لم يجرؤ غيرهما على مقاومته في شاطئ الاناضول الغربي. واعاد الحرية للمدن

اليونانية (المستعمرات اليونانية) القائمة في تلك الجهات ، وطرد المراكب والجيوش الفارسيّة حتى قيليقية.

وفي ربيع السنة ٣٣٣ جاز الاسكندر أنسير (انقرة او انكرة الحالية ، عاصمة تركية) وقبادوقية ، آخذاً الطريق الجبلية في ممرات جبل طوروس ، جاداً في سيره حتى فاجأ المرزُبان ارساميس ، حاكم قيليقية من قبل الفرس . وكذلك كان شأنه مع مرابطي المراكز الفارسية المحافظين على الممرّات الصعبة من الداخلية الى بوزنتي ، اذ هبط عليهم في الليل في شرذمة خفيفة من رجاله فاركنوا الى الفرار . فاسرع الفاتح منحدراً نحو السهل واحتل مدينة تارس (وهي طرسوس اليوم) قريباً من مرسين.

وفي تارس اخذ الاسكندر يعدّ المعدّات لملاقاة داريوس الثالث في الناحية الشرقية . وكان داريوس قد عرف ان الاسكندر دخل قيليقية ، فصعد موازياً مجرى الفرات في آخر الصيف سنة ٣٣٣ ، في جيوشه الكثيرة ومعدّاته الوافرة. ولم يقف الا في سهل فسيح في محل اسمه سوشوا في شمالي سورية ، على يومين من ممرّ بيلان الحالي . ولم يتمكن العلماء حتى اليوم من تقرير موقع سوشوا المذكور ، على ان الواضح ان هذا المحلّ كان يقع على حدود سهل العمق الفسيح في الشمال الشرقي من انطاكية ، وقد يكون في اول الممرّ الذي كانت تتبعه الطريق التركية القديمة الآخذة من قرق خان الى اصلاحية . وقد كان هذا المحلّ موافقاً للجيوش الفارسيّة الكثيرة العدد وخيالتهم الوافرة التي ستحاول طبعاً ان تدور بجيش الاسكندر القليل فتلتفّ حوله . فاقام داريوس ينتظر خصمه في ذاك المكان مدة طويلة.

على ان الجيشين لم يلتقيا على هذه الجهة السورية من جبل الامانوس ، اي في سهل العمق ، بل كان تطاحنهما في الجهة الاخرى ، بين الامانوس والبحر ، قرب مدينة صغيرة تدعى إيسوس.

وذلك ان الاسكندر في قدومه من قيليقية كان قد وصل دون مقاومة تذكر الى مدينة إيسوس ، فترك فيها الجرحى والمرضى من عساكره ، وتابع سيره حتى مدينة ميريانذوس (وهي الاسكندرونة الحالية) فخيّم في عسكره ، وقد

هطلت عليهم الامطار الشديدة في اوائل تشرين الثاني فقاسوا بعض المشقّات . ولم يكد الاسكندر يقضي اربع وعشرين ساعة مستريحاً مع جنوده حتى ادركه بعض الفارّين من وجه الفرس فاعلموه ان الجيش الفارسي مخيّم بين الامانوس والبحر في المنطقة نفسها التي جازها مؤخرًا ، وهو قاطع عليه علاقاته مع قيليقية .

وكيف كان ذلك ؟

كنا قد تركنا داريوس ينتظر الاسكندر في سهل العمق . ولكن طال به الانتظار ، فصمّم على ان يطلب خصمه في قيليقية ، فسار الى شرقي الامانوس قاطعاً ممرّ الاسد (ارسلان بوغاز) ، ثم الى الجنوب الغربي مارًّا بابواب الامانوس (طوبراق - كليسي) . وقد وافق مسيره هذا سير الاسكندر من قيليقية على ميرياندوس ، فكان ان الجيشين تعارضا في طريقيهما دون ان يرى احدهما الآخر .

ولما علم داريوس بمرور الاسكندر لحقه منحدرًا حتى الشاطئ فوقف عند نهر هناك يدعى بيناروس ، واسمه اليوم دلي تشاي . وكانت خطته دون شك ان يترك المقدوني يقطع ممرّ بيلان وينحدر وراءه الى ذاك السهل . وهناك تلتفّ حوله جيوش الفرس ، وهي تفوق المقدونيين عدداً ، وقد سهل عليها التوسّع والانتشار ، فتحيق به وبعساكره .

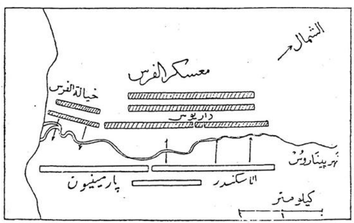
على ان الاسكندر افسد هذه الخطة . وقد ادرك ، بلمحة من العبقرية ، ان الجيش الفارسي ، واقعاً بين الجبل والبحر ، يفقد كثيرًا من فوائد عدده الكبير . فانشب المعركة على نهر بيناروس . وهي من المعارك القديمة التي نعرف سيرها معرفة واضحة بفضل ما تركه لنا المعاصرون عن وصفها ، ولنا في ذلك وصفان يتفقان في النقاط المهمّة وهما وصف بطليموس الذي كان بين المحاربين[1] ، ووصف كاليستين ، مؤرخ الاسكندر الخاصّ المتعلّق بشخصه ، وبالتالي العارف الدقيق المعلومات ، دون شك[2] .

---

١) وهو الوصف الذي اورده خاصّة اريان Arrien, *Anab.*, II, 6-11

٢) وهو الوصف الذي استند اليه پوليب Polybe, XII, 17-22

وقد اسفرت المعركة عن انتصار الجيوش المقدونية انتصارًا باهرًا ، بفضل تطبيق خطة « الجبهة الزورا. » التي اشرنا اليها ، والتي كان الاسكندر قد اخذها عن ابيه فيلبوس . وهذا كان قد اخذها بدوره عن ريامينُنداس القائد الطيبي . ولقد افادت هذه الخطة الاسكندر في انتصاره في معركة گرانيك ايضاً .



الرسم ١ : معركة إيسوس

اما تفصيل حوادث المعركة فلخصها ان الفرس كانوا يحتلون بجناحهم الايسر اعالي منحدرات الامانوس . وكان في قلبهم جيش من المشاة الاشداء المهرة ، يؤلفه جماعة من مأجورة اليونان والكرداك ويردفهم جمهور كبير . وكان الجناح الايمن الفارسي يتألف خاصة من الخيّالة ، وقد كان بامكانهم ان ينتشروا في ذلك السهل حتى البحر . وكان داريوس نفسه قائمًا على عجلة حربية في قلب جيشه وراء العسكر المأجور من اليونان .

اما في الجيش المقدوني فخصّ الاسكندر بنفسه الجانح الايمن او جانح الخيّالة . وعهد في قيادة الجانح الايسر الى القائد بارمينيون الخبير ، وامره ان يحتفظ بمركزه مهما كلّف الامر فلا يدع الفرس يتقدّمون على شاطئ البحر .

وكان الاسكندر في مساء اليوم السابق ، رغبةً في استمطار مراحم الآلهة البحرية على هذه النقطة من مجال المعركة ، قد ضحّى للاله فوسيذون بمركبة ذات اربعة افراس فاطلقها في البحر . وكان ذوو الحراب الطويلة يحفظون قلب الجيش.

ولم يكد الاسكندر يرتّب صفوفه حتى هجم متقدماً فرسانه الشرفاء على جناح العدوّ الايسر اي من جهة الجبل . فتراجع الفرس لدى وقع هذه الخيّالة الثقيلة . وكان من تأثير هذا الهجوم المفاجئ ان حصل بعض الاضطراب بين ذوي الحراب في قلب الجيش المقدوني ، فاغتنم اعداؤهم الفرصة ، وهم من مأجوري اليونان ، وهجموا متقدّمين . فكانت معركة هائلة بين هؤلاء المشاة وكلهم من ذوي الحنكة والتمرين في الحروب . على ان الاسكندر كان قد اتمّ حركة هجومه الدورية ، ووصل الى قلب جيش العدوّ بسرعة لم تكن منتظرة . وعندما شاهد داريوس هذه الحركة تملكه الذعر فأفقده رباطة الجأش ، فادار عجلته نحو الشمال واركن الى الفرار . وقد دوَّن هذا الحادث المهمّ المؤرخ كليتارك ، جامع اقدم اساطير الاسكندر في نحو السنة ٣١٠ ، فجعله بعض الشيء حتى اصبح من موضوعات الفن ، فمثلته قطعة من الفسيفساء مدعوة « بفسيفساء الاسكندر » ومكتشفة في « الكازا ديل فونو » في بومبي (اطلب الرسم ٢) وهي قد تمثل لوحة تصويرية لفيلوكسين ترتقي الى السنة ٣١٨ . وكان من نتائج هرب داريوس ان جيشه تضعضع ، فانتهت المعركة بين كوكبتي الفرسان على شاطئ البحر . ولم يلبث الجيش الفارسي ان لاذ بالفرار باجمعه فاخذ جيش الاسكندر يتعقّبه بنشاط غريب ، على انه لم يتمكن من اللحاق بداريوس ، فعاد مساء الى موقع المعركة.

وكان بين الاسلاب سرادق الملك الاكبر وفيه امه وامرأته واولاده الثلاثة . فعاملهم الاسكندر باحترام.

وان جاز لنا الآن ان نحاول نقد خطة الاسكندر في معركة ايسوس — وذلك بفضل المبادئ الاولية في فنّ الخطط الحربية التي عتمها مؤرّخو نابوليون ودارسو مواقع الحرب الكبرى — فاول ما يطرق فكرنا السؤال التالي: أوَ لم

يكن من التهوّر ان يهجم الاسكندر بنفسه في مقدّمة « اصدقائه» من الفرسان الشرفاء ؟ وقد اصابه جرح في معركة ايسوس، وكذلك كاد يُقضى عليه في معركة گرانيك اذ هجم المرزُبان سپيتريدات طاعناً اياه في ظهره ، لو لم يبادره المقدوني كليتوس فيقطع يد المرزبان بضربة سيف. او ليس من واجب القائد ان يراقب تطور المعركة عن بُعدٍ قليل، فيصدر الاوامر الموافقة للتقلّبات المتنوعة ؟ من الحق ان هذه الملاحظات توافق خطط الحرب العصرية . اما في العصر القديم فكان الامر بخلاف ذلك ، والقدماء يجهلون استخدام العسكر الاحتياطي ، فكانوا يرمون بجيوشهم كلّها دفعةً واحدة . وهكذا لم يكن للقائد ان يراقب حركات الجيش وسير المعركة. واذا انتبهنا الى ما تتصف به خطة « الجبهة الزوراء » ، رأينا كثيرًا من المبرّرات لوجود الاسكندر وسط المعركة ، تحميساً لجنوده واهتماماً بالاسراع بالضربة الحاسمة.

الزحف على فنيقية — حصار صور

لم يختص القائد الشابّ بدقة النظر وسط المعركة فحسب ، بل كان له تلك النظرات البعيدة التي يتصف بها السياسي المحنك ، وتلك العزمة المتابعة التي تميز ارباب الممالك وسادة الدول . وقد اظهر هذه الصفات بعد انتصار ايسوس، اذ لم يدع نشوة الفوز تشله فيحمله الهوس على اللحاق بملك الفرس والتوغل في بلاده ، قبل ان يتمكن من تنظيم جيوشه الشاردة . أوَ لم يكن من الممكن ان يغرّ الفوز قائدًا ابن ثلاث وعشرين سنة فيدفعه الى مثل هذا التهوّر ؟ على ان الاسكندر لم يغترّ ولم يملكه الهوس . بل فكر في مقدّراته ببرودة وقاس اليها مقدّرات العدوّ ، فقرّر اتباع الخطة الآتية : قبل ان يتوغل في داخلية بلاد الفرس ، عليه ان يحتلّ جميع ممتلكاتهم على البحر المتوسّط من ابيدوس ، قرب الدردنيل ، حتى مصر.

فكان ان الفاتح ، بعد ان قطع ممرّ بيلان ، اكتفى بارسال بارمينيون الى دمشق ، فوضع هذا يده على كنوز داريوس . فتخلص الاسكندر من مشاكله المالية . وتابع سيره نحو مصر . وكانت المدن الفنيقية تخضع له الواحدة بعد

الاخرى من ارادوس (ارواد) الى جبيل الى صيدون حتى وصل امام صور.

وهنا اراد الاسكندر ان يضحّي في جزيرة صور. ولقد كان مخلصاً في الاعتقاد باصله الالهي. يؤمن بانه ينتسب، بابيه فيلبوس، الى هرقل، وبامه اولمپياس ابنة ملك الملوسيين، الى اخيل. وان ما لدينا من رسوم للاسكندر ــ سواءٌ اكانت نقوشاً منحوتة كما في ناووس الاسكندر المكتشف في صيدا او مصكوكة في قطع النقود ــ ترين كلها رأسه برموز الهية ثلاثة: ١ً قرنا آمون اشارةً الى انه ابن زَفس، ٢ًجلد الاسد دلالةً على انه ابن هرقل، ٣ًجلد الفيل رمزًا الى اتحاده بديونيزوس الهندي. على هذا الاعتقاد، طلب الاسكندر من اهل صور، وقد وصل امام جزيرتهم، ان يفتحوا له الابواب لكي يضحّي للاله هرقل الصوري في الهيكل الشهير الذي بناه الفنيقيون وسط الامواج. وان لم يكن بين البطل اليوناني وملكارت، الـه الصوريين المكرَّم قديماً، الا شبه اسطوري او اتفاق في بعض الصفات؛ فان الموافقة بين ملكارت وهرقل اليونان ترتقي الى عصر قديم اذ نراها ظاهرة في آثار هيرودوت في القرن الخامس قبل المسيح. وهذا ما يشرح لنا مزاعم الاسكندر، سليل هرقل، ورغبته في التضحية في هيكل ملكارت.

على ان الصوريين رفضوا تلبية هذه الرغبة. وهم لو سمحوا لهذا الغريب أن يضحّي في هيكلهم لاعترفوا بـه ملكاً عليهم. لانه، تبعاً للعقائد الساميّة، كانت التضحية من حقّ الملك وحده. فاعلن الصوريون انهم لن يسمحوا بدخول جزيرتهم لا لليونان ولا للمقدونيين. اوَ لم يكونوا قد قاوموا في مـا مضى فاتحَين اشوريَين شهيرَين هما سلمنصّر الثاني وسرجون عندما اقاما الحصار على صور دون نتيجة فرجعا عنها خاسرين؟

اما الاسكندر فلم يكن بامكانه قبول هذا الرفض. لانه، فضلاً عما فيه من الاهانـة، كان يحول بينـه وبين تنفيذ خطته، ولا يمكنه ان يترك الحرية على شاطئ المتوسط لاهمّ مركز فنيقي بامكانه ان يعيد تجهيز الاسطول الفارسي ويستدعي اليه مراكب قرطاجـة التي لم يكن الاسكندر ليجهل قوتها وغناها بالمعدّات. فقرَّر ان يقيم الحصار على صور مهما كلّفه الامر.

وقد كلّفه سبعة اشهر من الجهود المتواصلة.

تظهر مدينة صور، مع ارادوس (ارواد)، مثالاً للمدينة الفنيقيّة. جزيرة (وقد تكون احياناً شبه جزيرة)، ومدينة اخرى تقابلها في البرّ قريبة منها، يسكنهما الشعب الواحد ويحصّنها ويحميهما بواسطة البحارة المعروفين بالجرأة والشجاعة. وهكذا كان للفنيقيّين جزيرة ارادوس (ارواد) ومقابلتها على الشاطئ مدينة انترادوس (طرطوس)؛ وجزيرة تير (صور) التي بنى اكثرها حيرام، معاصر سليمان الحكيم، ومقابلتها پاليتير التي لا يُعرف موقعها تماماً في عصرنا. ولقد كانت جزيرة تير منذ القرن الثامن ق. م. عاصمة لتجارة البحر المتوسط، نتحقق ذلك حتى في نبوة حزقيال عن خرابها اذ يرسم ذاك المشهد الرائع لترفها ورخائها. وكانت ايضاً مدينة حصينة وثيقة الاركان، يفصلها عن الشاطئ ساعد من البحر يبلغ ٦٠٠ الى ٧٠٠ متر، وتحيط بها اسوار منيعة تبلغ ٤٥ متراً ارتفاعاً، وتدور حول المدينة على طول نحو ٤ كيلومترات[1]. وكان للجزيرة مرفآن: «المرفأ الصيدوني» في الشمال الشرقي، و«المرفأ المصري» في الجنوب الشرقي يتصلان احدهما بالآخر بواسطة نهر يقطع الجزيرة. وكان اسطول المدينة — او على الارجح قسم من هذا الاسطول — يحتلّ المرفأين فيقوم بحركاته على السهولة والحرية.

كان على الاسكندر ان يزحف على المدينة من البرّ. فاخذ منذ شهر كانون الثاني سنة ٣٣٢ بانشاء ممرّ في البحر يصل بين الشاطئ والجزيرة. وهو عمل عظيم كلّفه جهداً كبيراً ومعدات وافرة وكميات كثيرة من التراب والحجارة ليقوم هذا الجسر البالغ ستين متراً عرضاً. وكان من اول ما قام به الاسكندر ان خرّب مدينة پاليتير، القائمة على الشاطئ مقابلة تير، ورمى بآثارها في البحر طامراً قسماً منه. وكان كلما تقدّم العمل في بناء الجسر ازداد عمق البحر فتضاعفت الصعوبات، فضلاً عن ان المراكب الصورية كانت تهاجم العملة من

[1] اطلب في ذلك: Kromayer-Veith, *Schlachten Atlas*, Griech. Abt., Blatt 7, 1929: cf. Chaussard, Arrien, *L'expédition d'Alexandre*, Atlas, pl. V, p. 67 ss.

وقت الى آخر ، فتميقهم . وكأن العناصر الطبيعية ارادت معاونة صور فهبّ اعصار هائل من الجنوب الغربي ، ففصل الجسر قسمين . فاعاد الاسكندر بناءه ، بعد ان امر بغرز الاساطين القوية الضخمة في الماء من عن الجانبين لتحفظ تلك الكميات العظيمة من الاخشاب والحجارة الملقاة وسطها . عند ذاك اتى دور المهندسين الصوريين ، وقد طالما اختبروا اعمال الملاحة والمنشآت البحرية ، فقاموا بواجبهم خير قيام على نحو ما وصف الاميرال جورّين دي لاگرافير في سرده الحيّ «للمأساة المقدونية» ، قال مخاطباً المحاصرين: « آه ! يا جنود مقدونية ، اتهاجمون ابناء البحر ؟ سترون اذاً — كما رأينا نحن ايضاً في سباستوبول — كم للبحري من حيل متنوّعة في جرابه . »[1] وسرعان ما انزل مهندسو صور الى البحر حرّاقة مشحونة بانواع الوقود ، ومثقلة من مؤخرها كي يرتفع مقدّمها عالياً .ولم يكن هذا المقدّم الا محترقاً واسعاً يعلوه صاريان عُلّقت بهما المراجل الملأى بالمواد السريعة الالتهاب . سار المركب الحرّاق تدفعه ريح موافقة ، ويقوده القذّافون في مركبين موازيين . فوصل الى طرف الجسر مما يلي الجزيرة ، وكان الاسكندر قد بنى فيه برجين وغطاهما بجلود حيوانات مقلوبة وتربية العهد بالسلخ،وهي من افضل ما تقاوم به النيران حتى انها تصمد نار الحرّاقات مدة يوم كامل . ولكن اين مقاومتها من قوّة تلك النار الهائلة الملتهبة فجأة في مراجل المركب الحرّاق ، وقد انقلبت على البرجين من اعالي الصاريين ؟ فلم يلبث ان احاط اللهيب بالبرجين وبمقدّمة الجسر ، بينا كان الاسطول الصوري ، وقد خرج من مرفأيه ، يمطر الممرّ بالسهام المتتابعة ، فيمنع الجيش المقدوني من الوصول الى الطرف ، وتتقدم مراكبه من الجسر فتخرب المدّات وتدكّ الاركان الواقية التي شيدها المقدونيون . بعد هذا الفشل تأكد الاسكندر ان من المستحيل اخذ مدينة بحرية او جزيرة الّا بساعدة اسطول ، وادرك انه يجب ان يغيّر خطة هجومه على صور من البرّ الى البحر .

(1 Jurien de la Gravière, *Le Drame Macédonien*, p. 103

وكان من حسن حظه ان عمارة المدن الفنيقية الشمالية تركت الاسطول الفارسي في ذاك الوقت، وقد علمت ان ارباب مدنها اعترفوا بسلطة الاسكندر، فاتت مقتربة من الشاطئ. فما كان من الاسكندر الا ان اسرع الى صيدون، فجمع ٨٠ مركباً فنيقياً، و ١٢٠ مركباً من ممتلكات امراء قبرص كانت آتية من رودس وليقية[1]. ثم سار في هذا الاسطول الى عرض جزيرة صور، فهاجم مراكبها بشدة. ولم يمكن هذه المراكب ان تقاوم طويلاً فلجأت الى المرفأين. وهنا بدأ الحصار البحري، بينما كان العملة يتمون بناء الجسر، وقد خلا لهم الجوّ بحصر المراكب الصورية. وكان على الاسطول القبرصي ان يحصر المرفأ الصيدوني، وعلى المراكب الفنيقية ان تقوم حاجزاً امام المرفأ المصري.

ولا يسعنا المجال لسرد ما حصل من الحوادث والمناوشات والخطط مما افاض به المؤرخون في ذكر هذا الحصار الشهير. وعندما انتهت الاعمال في بناء الجسر، وامر الاسكندر بالهجوم، قاومته المدينة بغاية ما يمكن من الشدة والصبر والفن الحربي. وقد كان من اعظم مخترعاتهم في المقاومة ومن اشدّها وطأة على الجيش المقدوني اختراعهم الغبار الملتهب الذي كانت تثيره في الفضاء على المهاجمين تروس النحاس وقد أحميت في النار حتى درجة البياض. فكان هذا الغبار الملتهب المتناثر رملاً وهّاجاً لا يكاد يعلق بالجسم من خلل فروج الدرع حتى ينفذ في اللحم الى العظام، وليس للجندي واسطة في مقاومته او اخراجه. فكان من يُصاب به لا يمكنه، من قوة الالم، الا ان يطرح سلاحه ويشقّ ثيابه، فيظهر اعزل حاسراً امام العدوّ ولا يبالي.

على ان هذه المقاومة الشديدة كان لها نهاية. فكان الهجوم الحاسم من جهة الجنوب بواسطة مراكب تحمل الآلات الهدّامة فتضرب الاسوار، وتليها مراكب تحمل الجنود، بينما كان الهجوم موجّهاً كذلك نحو المرفأين. وهنا تبدأ المجزرة فيُقتل ٦ آلاف من الصوريين على الاسوار، ويؤسر الفان فيأمر الاسكندر بصلبهم على طول الشاطئ. ثم يطلق جنوده على المدينة فيأسرون

[1] Chaussard, Arrien, *Expédition d'Alexandre*, Atlas, p. 71

ثلاثين الفاً من سكانها ، وطنيين واجانب ، فيبيعونهم عبيداً . فيخلو الجو للاسكندر ، فيضحّي في هيكل ملكارت ، ويعفو عن جميع من لجأ اليه اوان النهب والتخريب . ثم يحتفل بانتصاره باقامة الالعاب واساليب اللهو . ويتابع سيره ، على الشاطئ ، نحو البلاد المصرية.

وكان عليه ان يعيد تجهيز آلات الحصار امام غزّة ايضاً[1] ، وهي مدينة حصينة كان يحكمها خصيٌ اسمه باتيس ، فلم يشأ ان يخون اميره ، ملك الفرس الاكبر ، فيسلّم المدينة للمقدوني . اما حامية المدينة فكان فيها كثير من النبطيين[2] اي سكان منطقة بترا (بين مدينة بترا او صُلع او البطراء وجنوبي دمشق) . ويظهر من اقوال المؤرّخين ان الاسكندر ، بينا كان يحاصر صور ، توقع هجوماً على جيشه من قبل النبطيين (وقد يكون هؤلاء من محالفي صور سياسياً وتجارياً) ففاجأهم بغزوة سريعة الى داخلية البلاد هاجم فيها عرب انتيلبنان ، على قول بلوطرخوس[3] ، ورجع بعد احد عشر يوماً.

على ان غزة لم تكن لتقوى على ما لم تقوَ عليه صور . فدخلها الاسكندر على الرغم من المقاومة الشديدة ، واسر حاكمها باتيس فربطه حيًّا الى عجلته وجرّه حول المدينة ، كما فعل اخيل في سالف الحقب بجثة هكتور اذ جرّها حول اسوار اليون.

. . .

ولم يكن للاسكندر ان يعود الى ارض فنيقية الا بعد ان يحتلّ مصر وينظّمها . فكان له ما اراد . وكان من آثاره المهمة هناك ان بنى الاسكندرية في اواخر السنة ٣٣٢ . وفي ربيع ٣٣١ ، عاد الى صور ، فاقام فيها مدة قصيرة . ثم صعد نحو الفرات وسهول العراق حيث كانت تنتظره موقعة أربل فتفتح امامه ابواب مملكة فارس . وقد يكون زار اورشليم في سيره نحو الفرات.

---

١) Radet, *op. cit.* p. 103-105 اطلب

٢) Wilcken, *op. cit.*, p. 119

٣) Plutarque, *Alexandre*, 24 – واطلب في ما تقدم: Chaussard, Arrien, *op. cit.*, p. 71 – Kahrsted, *Syrische Territorien...*, 1926, p. 88

نتائج فتوح الاسكندر

في ما خصّ الشرق الادنى ، ولاسيما سورية وفنيقية

من السهل ذكر هذه النتائج باختصار ، بل من الممكن تلخيصها بتعبير واحد: وهو ان فتوح الاسكندر ادّت الى بسط النفوذ اليوناني على الشرق ، او الى « يونَنة » الشرق ، ان صحّ التعبير.

ولا يُفهَم من هذا ان الفاتح نجح في جميع مراميه ، او ان مشاريعه تحققت بجملها . ونحن اذا فحصنا مراميه السياسيّة مثلاً نرى ان حلمه في تأسيس مملكة عالمية تلاشى بوفاته . وهو وان ترك دولاً يونانية في مصر وسورية : البطالسة والسلوقيين ، فلم يكن افراد هذه الدول من نسل الاسكندر . فضلاً عن كونهم لم يملكوا الا جزءاً من الامبراطورية الفسيحة التي اخضعها الفاتح الكبير.

ثم ان مشروعه في مزج المدنية اليونانية بالمدنية الآرية بواسطة الزواج بين الاغريق والفرس لم يتحقق كذلك . فان الطوارئ المقدونية تلاشت شيئاً فشيئاً وسط السكان الوطنيين دون ان يتأثر هؤلاء بالعادات والاخلاق اليونانية.

على انه مثّل في شخصه ، وترك للعصور الآتية مثال « الملك اليوناني » : حاكم مطلق ، وقائد جيش ، ومدير اعلى لجميع افراد الرعية ، يجالس العلماء ، ويستصحب رجال الدولة . وهذا المثال العالي للملك قريب جدّاً من فكرة الملكية المعبّر عنها « بالمستبدّ المستنير . »

ويجدر بنا الآن ان نسأل هل استفاد الاسكندر من الشرق ، وخاصة من بلاد فارس ، نظريته في الملكية ؟ وهل أسّس ، في سبيله هو ، عبادة الملك ، كما نراها في الملكيات اليونانيّة ؟

هو سؤال ادّى الى كثير من المشاحنات بين المؤلفين دارسي شخصية الفاتح الكبير . فكان من المجيبين بالايجاب سهنابيل ، والآنسة تيلر . ومن معاكسيهم بِرْف ، وتَرْن ، وفَرْنِل ، واخيراً وِلْكِن . وقد يكون الارجح ان الاسكندر اتخذ مظاهر الملكية الفارسيّة اكثر من اهتمامه بمبادئها الجوهرية الاساسية . وعدا ذلك فان ملوك الفرس لم يكونوا معتبَرين من الالهة . ولعلّ

الاصحّ ان نعتبر الاسكندر ملكاً يونانياً ليس غير في نظر المقدونيين ، على انه كان يتطلب من رعاياه الشرقيين امارات الاكرام والاحترام جميعها التي كانوا يولونها ملوك الفرس . وهو ، وان جرّب ان يدفع جنوده المقدونيين الى تكريمه باشارة العبادة المدعوّة « بروكسينيز » ، فلم ينجح في تجربته ، فضلاً عن ان هذه الاشارة نفسها ليست اشارة دينية . اما كون الاسكندر ظهر موضوعاً لعبادة دينية ، فانما كان ذلك بعد وفاته ومن قِبَل خلفائه وحدهم .

وهناك نتائج سياسية لحكم الاسكندر لا يهمّ هذه البلاد منها الا واحدة هي تأسيس دولة السلوقيين .

اما النتائج الاقتصادية لتلك الفتوح في الشرقين الادنى والاقصى فكانت اعمق تأثيراً في سورية وفنيقية . هناك بلاد جديدة واسعة فُتحت للتجارة الدولية ، وهناك تقدّم عظيم في طرق التجارة . نتج هذا من ان الاسكندر سكّ قسماً كبيراً من كنوز ملوك الفرس ، فاكثر النقود ودفع جميع العالم الشرقي الى استعمالها في المعاملات . فلم يلبث النقد الذهبي والفضي ان عمل على ملاشاة الطريقة القديمة في التجارة ، اي تبادل البضاعات باعيانها . ومهّد السبيل في ذلك الى تأسيس المصارف المهنة مسهّلاً اعمالها ، وبالتالي اساليب التجارة الواسعة ، وتقدّم الصناعة . وعندما تستعيد مدينة صور حياتها ، بعد ذاك العقاب الهائل الذي انزله بها الاسكندر ، فتحتلّ مركزها السابق في التجارة ، فانها تستفيد الفائدة الجمة من هذا التحسين الاقتصادي حتى ان نقودها ذات الاربعة الدراهم المزدانة بالصور الجميلة لملوك اللاجيديين والسلوقيين ، والمشهورة بصحتها ودقة وزنها ، تكوّن المثال النقدي الاعلى في السوق التجارية . فيتخذها المتعاقدون وحدةً في معاملاتهم ، وتصرّح الصكوك ، حتى في انحاء المملكة الفارسية وفي القرن الثاني بعد المسيح ، ان الدفع يكون « بالنقد الصوري الصحيح . » [1]

(1) اطلب في هذا البحث M. J. Rostovzeff a. C. Bradford Welles, *A Parchment Contract of loan from Dura-Europos..*, Yale class. Studies, II, p. 6, li. 6; p. 60 ss. حيث يكتفي المؤلفان بدرس سكة القطعة ذات الاربعة الدراهم على عهد ترايانوس فحسب .

واهم من هذه النتائج الاقتصادية كانت النتائج العقلية والفنية التي سببتها فتوح الاسكندر، تلميذ ارسطو، المشبّع بحبّ التفتيش والاكتشاف. فتقدّم العلم اليوناني خطوات واسعة ولاسيما في ما خصّ الجغرافية. وكذلك القول عن الفلسفة اليونانية، فانها استفادت، بفضل هذه الفتوحات، آراء جديدة في العلاقات الدولية والحق المشترك بين جميع الشعوب، بل انها اغتنت بفكرة مساواة الشعوب في الاصل الجوهري، لا فرق في ذلك بين اليونان والبرابرة.

تقدّم لنا القول ان الاسكندر لم يتوفق في ايجاد عنصر متولد من الفرس واليونان، وكذلك لم يتوفق الى تأسيس مدنية مختلطة تمتزج فيها ثقافة الشرق القديم وثقافة اليونان المدرسية.

على انه كان له الفضل الاكبر بنشر الثقافة اليونانية حتى اقاصي العالم المعروف في زمانه.

وكان لفنيقية ان تستفيد من ازدهار هذه الثقافة في محيط الفن خاصة. فعرفت صيدون كثيراً من الملوك المشغفين باليونانية، وذاقت كذلك جمال الفنّ الاغريقي. وقد يكون ماوكها استدعوا الفنانين اليونانيين فنحتوا تلك النواويس الجميلة المكتشفة في صيدا والمحفوظة اليوم في متحف استامبول. واشهرها الناووس المعروف «بناووس الاسكندر» يمثل عراك المقدونيين والفرس، وبين رجال الحرب صورة للاسكندر تستوحي ميزاتها من الصور الرسمية التي امر الفاتح اشهر مصوّري عصره فرسموها له. وقد يكون من المفيد ان نُشير، في مختلف انحاء فلسطين وفنيقية وسورية، الى آثار هذا الفنّ الاغريقي، وهي عديدة مهمة يراها الباحث منتشرة من بترا الى الاسكندرونة. حتى ان الديانات الشرقية نفسها، وهي معروفة بمحافظتها على تقاليدها وبعدها عن كل تأثير خارجي، قد تأثرت بروعة هذا الفنّ. فارتدت آلهة الشرق القميص العسكري اليوناني والرداء الاغريقي، قبل ان تحاول بدورها التأثير في بلاد الغرب. بل ان الشرق الاقصى، على بعده، لم يخلُ من التأثر بالامثلة اليونانية في الفنّ. فهناك تماثل لبوذا يرقى الى القرن الخامس او السادس

للمسيح ، يظهر لابساً البردة الرومانية التي كان يرتديها الخطباء[١] . وهناك ايضاً في هَضَّة من بلاد الافغان ، اكتشف احد المنقّبين الفرنسويين في هيكل بوذي ، دمية تمثّل احد الاشخاص المؤلّهة بوجهٍ يشبه في قسماته وجه الاسكندر كما نراه في صوره العديدة[٢] .

وهكذا يكون ذاك الفاتح العظيم قد تجاوز حياة امبراطوريته الفسيحة ، في فتوحاته العقلية والفنّية .

---

١) Foucher, *Conférences au Musée Guimet*, 1912, p. 270 et pl. XII

٢) Foucher, *Monuments Piot*, XXX, 1929, pl. IX, p. 101-110

ارتفاع الصليب

ميمر منسوب الى القديس كيرلس اسقف اورشليم
٣١٣-٣٨٧م

نشره لاول مرّة ، وعلّق عليه
الخوري بولس قرألي ، مدير المجلة البطريركية

٥

البحث الثاني

الاعتراضات (تابع)

١١ — نقد النقد (تابع)

٢ — تطبيق الاساطير على الميمر

ولنفرض تلفيق الاساطير السريانية وخطأها في معلوماتها الرئيسية . فهل يجوز ان تطبق على ميمرنا الاعتراضات الموجهة اليها ؟ او بالاحرى هل يجوز القول بان معلومات ميمرنا مستقاة منها ، وانه لذلك احدث عهداً واقل ثقة وقيمة ؟ للاجابة على هذه الاسئلة لا بدّ لنا من تلخيص رواية ميمرنا عن اكتشاف القبر والصليب ومقابلتها على رواية الاساطير لنثبت اولاً انه لا يتناقض مع مؤرخي ذاك العهد . ثانياً انه لا يتناقض مع نفسه . ثالثاً ان روايته مستقلة عن رواية الاساطير . واليك خلاصة روايته :

اولاً : لما استتب الامر لقسطنطين واصبح امبراطور رومية ، رغب في زيارة الاماكن المقدسة والبحث عن عود الصليب ، الذي خوّله النصر وصار شارة مملكته ومجده . فقصد الى اورشليم برفقة والدته هيلانة وزوجته وشقيقته العذراء . (صفحة ٢٣٤) .

كل هذا معقول ومختلف عن الاساطير ، التي تدعي ان الملكة هيلانة

سافرت برفقة اوسابيوس اسقف رومية لا برفقة ابنها قسطنطين.

ثانياً: سأل الملك اليهود عن مكان القبر فأحضروا له سبعة من علمائهم ادّعوا الجهل. وقد ذكر الميمر اسماءهم واحداً واحداً. فطرحهم الملك في جبّ لا ماء فيه ومنع عنهم الاكل والشرب الى ان يُدلوا اليه بمعلوماتهم. فأسرّ اليهم احدُهم يهوذا • انه يعلم من والده سمعان، نقلًا عن جدّه يهوذا (وفي الاساطير « زكي »)، بان اجدادهم اساؤوا الى المسيح في حياته وطمروا قبره بالزبالات بعد مماته ليخفوا العجائب التي كانت تظهر عليه ». ولما اشتدّ بهم الجوع والعطش تقدّم يهوذا ودلّ الملك على محل الجلجلة، مستنداً الى قول الانجيل ان المسيح دُفن فيها. ولما رأى الملك الردم العظيم حزن، فاشار عليه يهوذا بان يجبر اليهود انفسهم على رفعه. فاصدر اوامره بذلك وعاد الى رومية حيث كانت تستدعيه مهام المملكة، تاركاً كثيراً من غلمانه لحثّ اليهود على الاسراع في العمل، ووالدته للاشراف عليه بمساعدة اسقف اورشليم (صفحة ٢٣٥ – ٢٤٠).

فانت ترى ان الملكة هيلانة لم تحوّل في رواية الميمر الا دوراً ثانوياً لان الملك هو الذي افتتح التحقيق وامر بالحفر. والميمر يتحاشى المغالاة في عدد العلماء فهم سبعة لا الف. ويتحاشى ايضاً التصنّع الظاهر في الاساطير ان اليهود انتخبوا من الالف خمسمائة ومن الخمسمائة ثلاثين ومن الثلاثين واحداً. وهو يختلف عنها في تسمية جد يهوذا فيسميه يهوذا لا زكي.

ثالثاً: استغرقت عملية ازالة الردم ستة اشهر من ١٢ اذار حتى ١٣ ايلول. وفي هذا اليوم ظهرت مغارة المقبرة وداخلها ثلاثة صلبان وكتابة تركها نيقوديموس ويوسف الرامي مفادها انها خبأا الصلبان خوفاً من ان يحرقها اليهود، وان الصليب الحامل اللوح والكتابة هو صليب المسيح (صفحة ٢٤٠–٢٤٢).

فالصليب عُرف حسب رواية الميمر من اللوح المعلق عليه، وليس من العجائب المتناقضة التي اتحفتنا بها الاساطير واشاعات اوائل القرن الخامس، والتي نبذها العلماء. ولا ذكر هنا لاوسابيوس اسقف رومية، الذي خلطته الاساطير باسقف نيقوميدية. والميمر يتفق مع اقوال القديسَين امبروسيوس ويوحنا فم الذهب ان الصليب عُرف من الكتابة المعلقة عليه. وهكذا قل عن

العجائب الحائمة حول زمن اكتشاف الصليب ومكانه. لانه وُجد ، حسب ميمرنا ، داخل القبر. وهب انه وُجد بجانبه ، في اثناء حفر اساسات الكنيسة ، كما يرجح الاب آبيل ، فذلك لا يخالف رواية ميمرنا في جوهرها. ولعل وجود الصليب في القبر او بجانبه يفسّر سكوت قسطنطين واوسابيوس عنه. لان اكتشاف القبر كان يعني اكتشاف الصليب ، من قبيل ذكر الجزء في الكل ، كما ان زيارة القدس تعني زيارة القبر والجلجلة وبقية الاماكن المقدسة. واغلب الظن ان الاهمية الاولى كانت في ذاك العهد للقبر لا للصليب. وفي يومنا عبادات كثيرة كعبادة قلب يسوع ، واعياد كثيرة كعيد القربان والحبل بلا دنس لم يكن لها ذكر ولا وجود واصبحت الان من اشهر العبادات واعظم الاعياد. والتاريخ ينبئنا ان اكبر عيد في عهد قسطنطين كان لتدشين الكنائس ؛ ولم يكن اكرام الصليب ، في بادئ الامر ، سوى احد مظاهره. وما عتم ان فاته اهمية وتركه نسياً منسياً. ولا ننسَ ان اوسابيوس كان يميل الى الاريوسية التي لم تكن تعبأ بامر القبر والصليب ، وانه لم يذكر القبر الا عرضاً ليحكي عن اهتمام الملك ببناء كنيسة القيامة الفخمة. ولا ننسَ ايضاً ان معلوماتنا عن القبر والصليب ، في ما سوى الميمر والاساطير ، نادرة مقتضبة ، ربما امكننا اتخاذ قلتها دليلاً على اكتشاف كليهما في بدء العهد الذي خرجت فيه النصرانية من الاضطهادات ، ولم يتسع لها الوقت لتنظيم شؤونها الثانوية والاهتمام بتسجيل حوادث تاريخها.

رابعاً : حُمل الصليب بعد ظهوره الى القديسة هيلانة فقبّلته والبسته حلة ثمينة وكتبت الى ابنها قسطنطين تبشره وتدعوه للحضور : « طوباك يا بني الحبيب والخير يكون لك لانك طلبتَ فوجدت... تعالَ لتعاين ما هو افضل من الجواهر الكريمة... فاذا رأيته في حسنه يتجدّد شبابك مثل النسر ». فجاء قسطنطين وسجد للصليب وامر ببناء كنيسة لائقة به وبالقبر ، وترك لوالدته اموالًا طائلة تُنفقها على تشييد الكنائس ، وخاصةً كنيسة المقبرة. وقد شيّدت كنيسة اخرى على الجلجلة باسم الصليب ، ورجع الملك الى مدينته بالسلام (صفحة ٣٤٢ - ٣٤٦).

هـذا يوافق ما نعرفه عن سعي قسطنطين ووالدته في اقامة الكنائس ،

ومن جهة اخرى عن ان كنيسة القيامة أقيمت بحضور والدته التي بنت ايضاً كنيستي جبل الزيتون وبيت لحم.

ولاحظ هنا ان قول الملكة هيلانة لابنها بتجديد شبابه ، اذا شاهد الصليب ، يوافق ما نعرفه عن سنه في ذاك الحين. فقد وُلد في سنة ٢٧٤، او على الاكثر سنة ٢٨٠ ، فيكون في سنة ٣٢٧ شيخاً في الثالثة والخمسين او كهلًا في السابعة والاربعين.

خامساً: لما تمت الكنائس وتزيّنت باجل مظهر احتفل اسقف المدينة بتكريسها بحضور اساقفة كثيرين جاؤوا « لتمجيد الصليب ». وكانت الحفلة في ١٤ ايلول ، يوم ظهور الصليب المقدس والقبر (صفحة ٢٤٦).

هذا يدلّ على ان تدشين الكنائس صار في يوم تذكار ظهور الصليب ، وان ظهور الصليب سبق حفلة التدشين سنة ٣٣٥. ولعله السبب الحقيقي لتعيين حفلة اكرام الصليب في عيد التدشين ، وان التقليد الذي اوردته السائحة اتيريا سنة ٣٨٥ كان قد عكس الحقيقة فجعل ظهور الصليب في تذكار التدشين ، او ان اتيريا فهمت عكس الحقيقة . على كل حال فالميمر يوافق قول اوسابيوس في حضور اساقفة بجمع صور حفلة التدشين سنة ٣٣٥ . ونلفت النظر هنا الى اهمال الميمر ذكر حضور القديسة هيلانة هذه الحفلة. فهي قد تركت اورشليم قبيل وفاتها بقليل سنة ٣٢٩ .

سادساً: اما يهوذا ، دليل القبر ، فقد آمن لدى مشاهدة الآيات التي رافقت ظهوره واقتبل العماد هو وجماعته من يد الانبا يوسف اسقف اورشليم واصبح « مكرماً من اجل امانته الارثوذكسية » ومن اكبر الساعين في هداية بني أمته ، فاستحق ان يخلف الانبا يوسف على كرسي اورشليم (صفحة ٢٤٧).

فلا ذكر هنا لقرياقوس ، الذي يعترض العلماء على إدماجه بيهوذا ، ولا لحكاية وجود المسامير المقدسة وصوغها لجاماً لفرس قسطنطين ، مما يدعم قولنا باستقلال ميمرنا عن الاساطير السريانية ، التي ترتقي نسخها الى اواخر القرن الخامس او اوائل السادس ، وباقدميته عليها وتنزهه عن اغلب غلطاتها. اما اتفاق الميمر مع اقوال القديسَين امبروسيوس وفم الذهب (٣٩٠ — ٣٩٥) فدليل

على انه معاصر لها او سابقها بقليل.

٣ — الاساطير ونسبة الميمر

هب ان الاعتراضات على الاساطير وجيهة ، وانها تصيب الميمر كما اصابتها، لوقوعه في نفس اغلاطها ، فهل يتحتّم بعد هذا ان ننكر نسبته الى القديس كيرلس ؟

قلنا اذا ثبت اكتشاف القبر سنة ٣٢٦ او قبيلها كان سنّ القديس كيرلس حينئذٍ احدى عشرة او ثلاث عشرة سنة ، ولعله كان في ضواحي اورشليم ، فخطأه في رواية هذا الحادث ، اذا كان هناك خطأ ، يُعزى الى صغر سنه او الى غيابه عن اورشليم ، او الى الاثنين معاً.

وان سلّمنا ان الصليب لم يظهر مخبوءا في القبر ، كما يُستنتج من اقوال الميمر ، بل ظهر بين سنتي ٣٣٥ و٣٣٧ ، فيكون القديس قد بلغ العشرين او الثالثة والعشرين، فلا يُعذر كثيراً على الخطأ، اذا ثبت حضورُه الاكتشاف. ولكن من يُثبت لنا ذلك ؟ ومن يثبت خطأه ؟

وذكر مصرع يوليانوس في سنة ٣٦٣ الوارد في الميمر يجبرنا على تأجيل القائه بعد هذه السنة. وسنورد ما يرجح القاء في آخر حياة القديس بين سنتي ٣٧٨ و٣٨٧. فتكون المسافة بين القائه وظهور الصليب زهاء اربعين او خمس وخمسين سنة. وقد شاعت في ذاك الحين ، كما سبق القول ، روايات نسبت الى الملكة هيلانة فضل اكتشاف الصليب ، فان اتبعها القديس كيرلس ، كما اتبعها القديسان امبروسيوس وفم الذهب ، يكون قد بنى معلوماته مثلها على رواية مغلوطة ، اذا كانت كذلك. بيدَ ان مطابقة اقواله لاقوال هذين القديسين المعاصرين ، دليل على صحة نسبة الميمر اليه لا على نفيها.

ومهما كان من الامر فاخطأ في رواية حادث كما قلنا لا ينفي حتماً نسبتها الى معاصر. ونحن نرى الجرائد في عصرنا تروي حادثاً وقع بالامس في المدينة او القرية التي تصدر فيها ، وامام اعين مخبريها ، وهي تختلف في روايته وتعليله مع سهولة المواصلات والمخابرات. ولا يخطر على بال احد ان ينفي نسبة

الرواية الى الجريدة التي نشرتها. وقد خطّأ الاب لكلير واتباعه رواية اوسابيوس عن رؤيا قسطنطين، مع انه مترجمه ومعاصره وامين سرّه، ولم ينكروا نسبة تاريخه اليه. وهكذا فعلوا في تخطئة روايتي القديسين امبروسيوس وفم الذهب عن اكتشاف الصليب على يد الملكة هيلانة، ولم ينكروا عليها الخطابين اللذين وردت فيها تلك الرواية.

اساقفة اورشليم

بقيت امامنا صعوبة لا تقل عما سبقها خطورة، وهي خطأ الميمر في اسماء اساقفة اورشليم سلفاء القديس كيرلس. فان لم يكن هذا القديس معاصراً لرؤيا قسطنطين واكتشاف القبر والصليب، فكيف يجهل اسماء الاساقفة الذين سبقوه بقليل. فالميمر ليس له. وفي الواقع، اذا راجعنا سلسلة هؤلاء الاساقفة المؤرخين المعاصرين، رأيناها مختلفة عن سلسلة الميمر اختلافاً كلياً. وهاك ما وجدناه في كتاب الاب لكويان[1] نقلًا عن اوسابيوس وغيره :

حرمون	انتخب سنة ٣٠٢	وهو الثامن والثلاثون
مكاريوس قرياقوس	〃 〃 ٣١٣	〃 التاسع والثلاثون
مكسيموس الثاني	〃 〃 ٣٣٥	〃 الاربعون
كيرلس	〃 〃 ٣٤٨	〃 الواحد والاربعون

وقد ذكرت الاسطورة السريانية[2] اسماء العشرة الاولين واردفت بقولها «وغيرهم» من غير ان تذكر اسماءهم. ثم تكلمت عن يهوذا مكتشف القبر والصليب وجعلته الخامس عشر كما فعل ميمرنا. فتكون قد اهملت اسماء الاربعة الذين تولوا كرسي اورشليم قبل يهوذا.

اما ميمرنا فيذكر الانبا يوسف بدلًا من مكاريوس، وينسب اليه ما نُسب الى المذكور من الاشتراف مع الملكة هيلانة على رفع الردم وظهور القبر والصليب وتدشين الكنائس، ويجعل يهوذا خليفة له، وبعده مرقوس. واليك

(١ Lequien, *Oriens Christianus*. t. III, p. 152

(٢ نسله: صفحة ١١

النصين الواردة فيها اسماء هؤلاء الاساقفة صفحة ٢٤٠ : « وعاد قسطنطين الى رومية... وترك والدته وخلف عندها اساقفة قديسين وهم اثناسيوس ريس اساقفة انطاكيــة ، وانبا يوسف ريس اساقفة اورشليم الذي هو الرابع عشر الذي جلس في اورشليم بعد التلاميذ في الختان . وانا ايضاً كيريللوس واحــد منهم ».

وفي صفحة ٢٤٦ يقول: « كملوا الكنائس المقدسة... وكرزوهم انبا يوسف اسقف المدينة المقدسة ومعه اساقفة كثير ارثوذكسين... »

وفي صفحة ٢٤٧ : « وعمدوا يهوذا والذين معه على يدي الاب انبا يوسف... ومن بعد هــذا تنيح الاب انبا يوسف واقاموا عوضه يهوذا وهو الخامس عشر من بعد الآبا الرسل في الختان... ولما تنيح اخذ اسقفيته واحد يقال له [٢٤٨] مرقوس وهو اول من صار اسقف لاورشليم بغير ختان ».

فالميمر يخطئ اولًا في اسم بطريرك انطاكيــة اذ يسميه اثناسيوس وهو اسطاثيوس

ثانياً في اسم مكاريوس الذي يبدله بيوسف

ثالثاً في رتبة يهوذا الذي يجعله الخامس عشر مثل الاساطير

رابعاً في اسم مكسيموس، سلف القديس كيرلس، اذ يجعله مرقوس ويقول انه اول من رقي كرسي اورشليم من غير اليهود.

فنجيب على الخطأ الاول ان اسم اسطاثيوس مأخوذ عن تاريخ ابن العبري (القرن ١٣) حيث ورد بدلًا من اثناسيوس ولا نعرف في اي جانب وقفت الحقيقة ، ولا نعرف لبطاركة انطاكية سلسلة ثابتة . ولعل تلقيبه برئيس اساقفة يعني به نائب البطريرك لا البطريرك نفسه . ولا حرج على القديس كيرلس اذا غلط في اسم بطريرك جلس على الكرسي الانطاكي في اوائل القرن الرابع ، اذا لم يكن هناك سهو ناسخ .

ثانياً : اما جعله يوسف بدلًا من مكاريوس فلا نرى له فيه عذرًا مقبولًا ، الا اذا كان هــذا الاسقف يحمل اسمين . ولعله كان مشهورًا عند اليونان باسم مكاريوس وعنــد ابناء وطنه باسم يوسف . وقد ورد في ميمر المتحف القبطي

باسم « يوساب » وهو قريب من يوسف او تحريفه بابدال الفاء السريانية ڢ باء ب. هذا اذا لم نفترض هنا خطأ الناسخ او الناقل. لان القديس كيرلس ، كما جاء في ترجمته ، لم يكتب ميامره بل اكتفى بالقائها. وجاء مَن التقطها عنه ودوّنها بالكتابة حسب معرفته وفهمه. فاذا كان القديس كيرلس معاصرًا لخليفتيه فلا يتحتم ذلك على كاتب عظاته. على كل حال فالقبر قد اكتُشف ، حسب ترجيح اغلب العلماء ، حوالي سنة ٣٢٥ حين كان القديس كيرلس لم يتجاوز العاشرة من سنه.

ثالثًا : وخطأه في ترتيب عهد اسقفية يهوذا قد يعني به انه الخامس عشر من اليهود . نعم ان اليسر يجعل خلفه مرقوس اول اسقف من غير اليهود ، فان لم نفرض هنا خطأ نساخ ، تحتم علينا تخطئة القديس كيرلس في ترتيب هذه السلسلة ، وان نلقي هذا الخطأ على عاتق التقليد الذي نقل عنه القديس كيرلس ، كما صرح هو نفسه . ولعل هذا التقليد اصح من السلسلة المعروفة التي تقيم اربعين اسقفًا على اورشليم في مدة تقل عن قرنين . ولا يخفى ان القديس كيرلس لم يكن لديه تواريخ مطبوعة منمّقة كما في عهدنا . والسلسلة التي رتبها لكويان ليست بثابتة نهائية . ومهما كان الامر فيسرنا لا ينقل عن الاساطير السريانية التي اهملت ، كما قلنا ، اسماء الاساقفة الاربعة الذين سبقوا يهوذا ولم تذكر بعد هذا الاخير احدًا غيره.

رابعًا : اما خطأه في اسم سلفه ، اذ جعله مرقوس بدلًا من مكسيموس ، الذي ارتقى الاسقفية سنة ٣٣٥ ، ورسم القديس كيرلس بيديه ، فليس في الواقع خطأ . فان تمعنا في العبارة تحققنا انه لا يعني سلفه الاخير بل احد سلفائه . لانه يقول عن الانبا يوسف « الذي هو الرابع عشر الذي جلس في اورشليم بعد الختان وانا ايضًا كيرلوس واحدًا منهم » اي واحدًا من اساقفة اورشليم .

نقول هذا ونحن عالمون بان روايات اوسابيوس قد لا تتفق مع هذه الافتراضات . ولعل الايام تظهر ما يعزّز هذه الافتراضات . ونقر ايضًا ان اغلب ما اجبنا به على الاعتراضات القائمة ضد الاساطير ، والتي قد يمكن تطبيق

بعضها على ميمرنا ، لا يخرج عن حيّز التخمين والتأويل . بيد ان الاعتراضات نفسها لا تخرج ايضاً عن حكم الرجم في الغيب . ولعلّ تقدمها اقل ثباتاً من دفاعنا .

ولو لم يكن لدينا في نصوص الميمر دلائل ترجح كفتنا عليها لضربنا به وباجوبتنا عرض الحائط . انا ان درسنا هذه النصوص عثرنا فيها على ما يرجح نسبته الى القديس كيرلس ترجيحاً يقرب كثيراً من اليقين ، ويبرر تمسكنا بصحة نسبته وموقفنا في ردّ الهجمات عنه . فلننتقل اذاً من البراهين السلبية التي قدمناها حتى الآن ، الى البراهين الوضعية ، التي يمكنا استخراجها من هذه النصوص ، ومن المقابلة بينها وبين ما نعرفه لهذا القديس من الآراء والاساليب والنزعات .

البحث الثالث

دلائل نسبته

للوصول الى ترجيح نسبة الميمر الى القديس كيرلس الاورشليمي رأينا ان نلتقط من نصوصه ما يدلنا على لغته الاصلية ، والجمهور الذي ألقي عليه ، والمكان الذي ألقي فيه ، وعلى جنسية المؤلف ومذهبه وأسلوبه . وان نمرّ بنظرة سريعة على نظام الميمر لنثبت ان ليس فيه علائم التلفيق . فنتفرغ بعد ذلك الى سماع تصريحات الميمر نفسه عن صاحبه وعصره .

١٢ ــ لغة الميمر

مرّ بك ان ناسخي مخطوطتي بكركي وحلب قد نقلا عن مصدر واحد، هو مجموعة لاحد السريان اليعاقبة القاطنين في القطر المصري . بقي ان نعرف اللغة التي عُرّب عنها . فان لم تكن الاصلية ، فبأي لغة كُتب اولاً ، وما هي جنسية المترجم والمعرّب ؟ كل هذه اسئلة يمكنا الاجابة عليها بعد التبحر في نصّ الميمر نفسه .

فقد وصل الينا بلغة عربية سقيمة مضطربة مشحونة اغلاطاً نحوية ولغوية ، مما يحملنا على الظن ان معربه عاش في القرون الوسطى، لانحطاط اللغة فيها ، ولم

يتمدّ القرن الثالث عشر. ونستدلّ من بعض تعابيره ان المعرب هو احد السريان النازلين في القطر المصري ، نقلـه عن نصّ سرياني منقول بـدوره عن النص اليوناني الاصلي ، وهي اللغة التي وصلت الينا بها كل تآليف القديس كيرلس.

١ ــ ترجمته في القطر المصري

من ادلّة ترجمته في القطر المصري ما ذكرناه سابقاً عن ورود اسماء الاشهر فيه حسب الاصطلاح القبطي :

فقد جاء في صفحة ٢١٣ و٢٦ [1] : « قال الربّ لموسى ان يعيّدوا ثلاث دفعات في السنة في الرابع عشر من الشهر الجديد الذي هو برموده »

وفي صفحة ٢٤١ و ٥٧ : « كان اول يوم بدأ اليهود العمل (في رفع الردم عن القبر) الثاني عشر من شهر ماردبوس الذي هو برمهات . ولم يزالوا يعملوا فيه الى يوم الثالث عشر من شهر توت »

وفي صفحة ٦٩ من نسخة حلب : « كرّزوا كنيسة القيامة في الرابع عشر من شهر توت الذي هو ايلول »

وفي صفحة ٧٠ منها نبّه الناسخ قرّاءه الى هذا الاصطلاح بقوله : « كان تكريس كنيسة القيامة في الرابع من شهر توت الذي هو ايلول على رأي المصريين »

ومن هذه الدلائل قوله في صفحة ٢٣٨ و٥٤ عن مساحة الارض المردومة فوق القبر انها « تل عالي على كل المدينة قدر ماية ذراع يجي قـدره عشرين فدان » ، والفدّان قياس مستعمل في وادي النيل خاصة ، كما لا يخفى.

وفي صفحة ٢٢٤ و٣٦ : « كتب ابيانوس الى بطلماوس رييس القبط » مع ان المذكور كان ملكاً على كل سكان القطر المصري ، وبينهم عدد يذكر من اليونانيين واليهود.

ويقول في صفحة ٢١٥ و٢٨ : « ان الانسان الحكيم يمضي الى حقله وينقي منه السنط والشوك » . ومعلوم ان السنط غير معروف في سوى وادي النيل

---

١) لا تنسَ ان الرقم الكبير يدل على مخطوطة بكركي والصغير على مخطوطة حلب.

ولا ينبت الا فيه .

فضلاً عن لقب انبا الخاص بالاقباط الذي يرد غالباً مرافقاً لكلمة اب : الانبا واكس صفحة ١٩٧ و٢٠٠ و٢٠٦ ، والاب الانبا يوسف ٢٤٦-٢٤٧[١]

وفي صفحة ١٩٣ : «يجروا خلفهم» وفي صفحة ٢٢١ : «فصار يمشي ويجري» مستعملاً جرى بمعنى ركض واسرع . وهو تعبير خاص باللهجة المصرية . وغير ذلك لا حاجة الى الاطالة فيه . ويغلب على الظن ان ميمر القديس كيرلس المحفوظ في المتحف القبطي مأخوذ اكثره عن نصّ ميمرنا . البسه منقحه ثوباً عربياً مسجّعاً ليتلى في الكنيسة .

٢ — تعريبه عن السريانية

وهذا لا يعني انه معرّب عن القبطية او ان المعرب قبطي . فالاقباط لم يتعلموا قط السريانية . وآثار السريانية بادية في التعريب ، مما يحملنا على القول ان التعريب منقول عن السريانية ؛ ولو كان المعرب قبطياً . نقول هذا نفياً للشك الذي قد يطرأ على ذهن القارئ بان واضع الميمر قبطي كواضع بقية الميامر المنسوبة زوراً الى القديس كيرلس ، والتي سبق الكلام عنها . وسنسرد في ما يلي امثلة من التعابير التي ليست بعربية بل سريانية او بالاحرى يونانية . ونكتفي الآن بالاشارة الى بعض الآثار السريانية الباقية في نصّنا العربي :

ففي صفحة ٢٠٣ يلقب السيدة العذراء «مرت مريم» اي السيدة مريم . وهو تعبير سرياني محض .

ولا يخفى ان السريان يعبرون عن البا الغربية الغليظة بحرف الفاء والعرب بالباء . بيد انك تجد في الميمر صفحة ٢١٥ الفارقليط بدلاً من البارقليط . وفي صفحة ٢٢٣ اسفيانوس . وفي صفحة ٢١٥ البنديقوسطي بالقاف ، بدلاً من البنديكوستي .

والاظهر من ذلك ايراده في صفحة ٢٢٤ ܟܐܦܐ حسب كتابتها بالسريانية بدلاً من كيفانا ܟܐܦܢܐ حسب لفظها العربي .

---

١) نكتفي بذكر صفحات مخطوطة بكركي حيث توافقها مخطوطة حلب

والاكثر دلالة على قولنا سير المعرب على القاعدة السريانية في التذكير والتأنيث . فيذكر ما هو مؤنث في العربية لانه مذكر في السريانية وبالعكس، تأثراً بالاصل الذي يعرب عنه . فيقول في صفحة ٢١٢ : « ليس تحل عليه روح القدس » مع ان الروح مذكر في العربية اذا عني بـه الاقنوم الثالث ، لكنه مؤنث في السريانية . والاغرب من ذلك تذكيره لخشبة الصليب بقوله في صفحة ١٩٩ : « خشبة الصليب يكون والذي » لانه يترجم كلمة ܩܝܣܐ المذكرة في السريانية .

٣ — اصله اليوناني

ان عدم تضلع المعرب من السريانية والعربية ، وضعف المترجم في اللغتين السريانية واليونانية وتوخيهما الترجمة الحرفية جعل العبارة في الترجمتين غريبة غامضة ، واحياناً غير مفهومة . انما جاء هذا العيب دليلاً كبيراً على النص الاصلي وحافظاً بقدر الامكان للتعابير الخاصة به وبلغته ؛ كالصفحة الحسّاسة من الآلة المصوّرة ، التي تطبع الصورة الاصلية بزاياها وعيوبها وخطوطها ، فتأتي صورة طبق الاصل مهما تعدّدت عيوبه . فحقّ لنا ان نغتبط بهذا الجهل لان الغموض في نصنا العربي يرجع اغلبه الى الغموض الذي عثر به المعرب في الترجمة السريانية . والغموض في النص السرياني يغلب على الظن انه عائد الى ضعف المترجم في السريانية واليونانية . ولعل بعضه متأتٍ من تشويه النساخ للاصل اليوناني . نعم ان السريانية قد تأثرت من اللغة اليونانية في معجمها واصطلاحاتها وانشائها ، انما احتفظت بوضوحها وبكثير من سلاستها . ونحن نرمي من وراء ما ندلي به هنا الى ازالة احدى الصعوبات التي قد تعترض نسبة ميمرنا الى القديس كيرلس ، لان تآليفه وصلتنا كلها باليونانية ، والى تبديد الشبهة التي قد تحوم في ذهن العلماء حول واضع ميمرنا ، او بالاحرى ملفقه ، انه احد الاقباط ، ام ان الميمر مأخوذ عن الاساطير السريانية الملفقة او عن الاشاعات التي تضمنتها .

واليك نماذج من تراكيب غريبة ، بعيدة عن العربية بعد هذه اللغة عن

اليونانية ، نلتقطها من نصنا العربي بين مئات من امثالها :

ففي صفحة ١٨٧ يقول « الذي له نعبد » ، وفي صفحة ١٨٨ « لكي أن نفتش في نواميسه » ، وفي صفحة ١٩٣ « فعندما هم حاملوه ، مدّ يده الاله المتجسد ولمس النعش . فعند ذلك وقف الذين حاملوه » ، وفي الصفحة نفسها «معطيهم الحياة يريدوا قتله» . وكثيرًا ما يقول «الذين يرتلون» بدلًا من المرتلين .

ومن التعابير الخاصة باليونانيين اطلاق كلمة « بطريرك وبطاركة » على جدود العبرانيين ، على كون هذا اللقب مخصصاً عند السريان والعرب برئيس الطائفة المسيحية . ففي صفحة ٥ من مخطوطة حلب نقرأ : « ورؤساء الآباء البطاركة والانبياء » ، وفي صفحة ١١ منها يقول عن والد يعقوب « لانه اسم اسحاق البطريرك رأس الآباء »

ومن اغرب الدلائل على الاصل اليوناني كلمة « الاقرانيون » الواردة في النصّ العربي بدلًا من الجلجلة والقرقفة . وهي مركبة من ال التعريف ὁ وكلمة κρανίον اي الجمجمة . وقد تركها المترجم السرياني على صيغة المفعول به كما وجدها في الاصل اليوناني ، عوضاً عن ان يوردها بصيغة الفاعل ὁ κρανίος . اما المعرّب فلجهله انها تحمل اداة التعريف اليونانية اضاف اليها ال التعريف العربية . فاصبحت الاقرانيون ܐܩܪܢܝܘܢ ، كما وردت في صفحة ٢٣٨ : « ان راا سيدي يتعنا ويجي معي . فانا اوريه الجلجلة الذي هو موضع الاقرانيون » . وفي اسفل الصفحة يشير يهوذا الى التل المردوم موجهاً كلامه الى قسطنطين : « هذه هي الجلجلة على قدر لغتك . وعلى قدر لساننا نحن العبرانيين كيفانا ܩܪܩܦܬܐ » . وجاء في صفحة ٢٢٤ : « واما اليهود الذين بقوا في اورشليم (بعد خرابها) نسوا عادة ابايهم ولم عادو يرموا تراب على قبر يسوع ولانه قد صار تل عظيم على مقبرة يسوع وموضع الجلجلة حتى ان لا بقا احدهم يذكرهم البتة . وكانوا يسموا ذلك التل اقرانيون اي يسوع ويسموها الجلجلة . »

ومن دلائل الاصل اليوناني كتابته اسم الانبا باخوس مبدلًا الباء بالواو واضماً نقطة فوق الكاف ليمنع ترخيمها ويجبر القارئ على لفظها كافاً : واكس ، ܒܐܟܘܣ ، وفي اليونانية ὁ Βάκχος . وهو اسم لاتيني الاصل كان الرومان

يطلقونه على اله الخمر ويكتبونه بالباء والكاف *Baccus* . بيد ان اليونان يرخون حرف الباء ويلفظونه كحرف *v* اللاتيني . فاستعاض عنه مترجمنا بحرف الواو تبعاً للفظه اليوناني ، بدلاً من الباء . ووضع النقطة على الكاف السريانية خوفاً من ترخيمها مع ان الاسم يلفظ عادة بالباء والخاء في السريانية والعربية باخوس ܒܐܟܘܣ . تجدهما على هذه الصورة في صفحات ١٩٧ و٢٠٠ و٢٠١ و٢٠٦ . ولحقه في ذلك ناسخ المخطوطة الحلبية.

كذلك كتب في صفحة ١٩٥ : يورشليم ܝܘܪܫܠܡ بدلاً من اورشليم ܐܘܪܫܠܡ ، حسب لفظها العربي والسرياني . وهي مركبة من ܐܘܪ و ܫܠܡ انما المترجم السرياني قد تأثر من لفظها اليوناني فكتبها على هذا الشكل ثلاث مرات في الصفحة المذكورة . وعاد فاوردها هكذا في صفحة ٢٤٦ . وتبعه في ذلك ناسخ مخطوط حلب . اما في بقية الميمر فقد عاد كلاهما الى نقلها : اورشليم ، كما اعتادا لفظها في العربية والسريانية.

ومن هذا القبيل ايضاً كتابته في صفحتي ١٩٩ و٢٥٠ لاسم يسوع بالالف إيسوع ܐܝܣܘܣ حسب لفظه اليوناني Ἰησοῦς بالرغم من كثرة تردده على شفاه المسيحيين الشرقيين بدون الف وبفتح الياء في العربية يَسوع ، وخفضها في السريانية ܝܫܘܥ

وقد حذف العين من اسم احد العلماء العبرانيين السبعة لانها لا توجد في اليونانية فكتب « يسُوا » ܝܣܘܐ

وكتب ايضاً في صفحة ٢٢٣ : برنياس ܒܪܢܝܐܣ ، وفي صفحة ٢٢٧ : برناوس ܒܪܢܒܐܘܣ بدلاً من برنابا حسب الاصطلاح السرياني والعربي.

وفي صفحة ٢٣١ كتب هرقليس ܗܪܩܠܝܣ بالياء والسين بدلاً من هرقل بالعربية ، او هركولوس *Herculus* باللاتينية.

وفي الصفحة ذاتها ورد اسم « عنقلاداريون » اله الحرب ܥܢܩܠܐܕܐܪܝܘܢ» وهو اسم مركب من كلمتي ܥܢܩ ܠܐ اللتين لم ندرك اصلهما ومن دال الاضافة ؛ ومن اسم « اريون » اله الحرب عند اليونانيين . انما جاء به بصيغة المفعول به كما وجده في الاصل اليوناني.

ونختم بياننا باسم شهر اذار الذي يورده مارديوس ܡܪܛܝܘܣ نقلًا عن اليونانيــة μάρτιος . فــانك تقرأ في صفحة ٢٤١ : «وكان اول يوم بدو بالعمل الثاني عشر من شهر مارديوس الــذي هو برمهات» . وهو من الغرابة بمكان ويدل على جهل مطبق ، مع ان لهذا الشهر في السريانية والعربية اسماً شهيرًا خفيف اللفظ ܐܕܪ اذار.

ونأمل ان نكون قد وفّينا هذا الموضوع ادلةً وشواهد . وحق لنـا ان ننتقل الى ما هو اهم منه ، وهو الاستدلال من نصّ الميمر على جمهور السامعين وعلى المكان الذي القي فيه هذا الميمر فنعرف منه ايضاً الواعظ ، ونستدرج من ذلك الى معرفة اسم المؤلف.

١٣ — الجمهور والمكان

تدلّنا نصوص الميمر اولًا على انه قد أُلقي على جمهور مسيحي فلسطيني عائش بين ثلاثة عناصر يهودية واريوسية ووثنية ، وان العنصرين الاول والثاني قويان.

وتصرّح لنا ثانياً انه قد أُلقي في كنيسة القيامة ، يوم الاحتفـال بارتفاع الصليب ، قبل البدء بهذه الحفلة.

١ — العنصر اليهودي

جاء في مستهلّ عظات القديس كيرلس ما حرفيته[1] : «ان قصـدي هو تسليحكم ضد العدو اي الهراطقة واليهود والسامريين والخوارج (اي الوثنيين)» الى هذا الغرض يرمي ايضاً صاحب الميمر . فحملاته الشديدة على اليهود ، وكثرة كلامه عنهم والاستشهاد ضدهم باقوال انبيائهم ونصوص كتابهم ، وتفسيرهـا لمصلحة النصرانية ، اي لاثبات الوهية المسيح وصحة رسالته ؛ واشاراته العديدة الى عاداتهم واخلاقهم وخيانتهم ، لدليل لا يسع المنصف اهمـاله ، على وجود عنصرهم بين ابناء مذهبه بكثرة يخاف من تأثيرها عليهم ، والوقوف في سبيل جهوده لهداية هذا العنصر .

---

١) راجع معجم فاكان مج ٣ : ع ٢٥٢٨

فقصة اسحق السامري ، المتشبث بعادات اليهود من تطهير الآنية والاستحمام في عين اورشليم والختان وزيارة الاماكن المكرمة عندهم ، واهتدائه اخيراً مع ذويه تستغرق قسماً مهماً من العظة وتشغل الصفحات ١٩٥ — ٢١٠ و٢٥٠ و٢٥١ من الميمر . ثم ان محاولة الواعظ اقناع اليهود والسامريين ، على لسان الانبا باخوس ، ببطلان تقاليدهم وان ما خلقه الله طاهر غير نجس ، دليل على انه وسامعيه عارفون بهذه التقاليد .

وحكاية اقامة ابن ارملة نائين وابن اكلاوبا ، وشفاء اكلاوبا ذاته ، وشهادته للمسيح وادانته لبني جنسه بأنهم ظلموا المسيح ، تشغل الصفحات ١٩٣ و١٩٤ و٢١٨ — ٢٢٢ ، وتدلّ على اهتمام الواعظ بارشاد اليهود الذين لم يؤمنوا بعد ، والمحافظة على الفئة التي اعتنقت منهم النصرانية .

كذلك قل عن اسهابه في الكلام على اضطهاد اليهود للمسيح ، وقساوة قلوبهم في معاملته ، وصمّ آذانهم عن نصائحه ، وعماهم عن الخوارق التي اجترحها في حياته وبعد موته ، ومحاولتهم حرق صليبه وطمس العجائب التي ظهرت على قبره ، وتهافتهم على ردم قبره بزبالاتهم . وكيف ان الرب عاقبهم بصرامة على ذلك بخراب اورشليم وهيكلها ، وذبح قسم كبير من شعبهم ، وتشتيت البقية واذلالها اينما حلت . الى ان جاء قسطنطين واجبرهم على رفع الردم عن القبر تكفيراً عن ذنب آبائهم . فاشتغلوا به هم ويهائمهم ستة اشهر طويلة . هذه القصة ملأت الصفحات ٢٢٤—٢٤٢ من الميمر .

فان جمعنا ما يختص منها باليهود اصبحت اثنتين واربعين من الثلاث والستين التي يتألف منها الميمر . ويمكننا القول ان كلام الواعظ عن اليهود يستغرق تقريباً الميمر كله ، فهو لا يفتر عن ذكرهم او تقريعهم .

زد على ذلك استشهاده بالنصوص الواردة في التوراة عن ألوهية المسيح ورسالته . فهو ابن داود بالجسد (صفحة ١٨٧) وملك اليهود (ص ١٨٩) . والاله عمنوئيل (ص ٢٤٨) وكبش اسحق الذي هو اله بالحقيقة (ص ٢٤٩) والكاهن والقربان (ص ٢٥٠) والخروف بلا عيب الذي امر الرب موسى بان يذبحه (ص ٢١٣) . اما صليبه فهو الحية النحاسية (ص ١٩٨) وسفينة نوح

(ص ١٩٩) . وعيد ارتفاع الصليب يدوم عـدة ايام كالعنصرة عنـد اليهود (٢١٥ و٢١٧) . وقد ذُبح المسيح في الرابع عشر من الهلال ودمه ملطّخ على حجر الجلجلة معيرة وتوبيخاً لليهود والغير المؤمنين بالله. اما نحن معشر النصارى فقد اخذناه ولطخنا به عتبات بيوتنا اي افواهنا وشفاهنا(كما فعل بنو اسرائيل ليلة خروجهم من مصر فقد لطخوا به عتبات بيوتهم لينجوا من الملاك المفسد) (ص ٢١٣ و٢١٤)

ناهيك عن تقريعه لليهود : فهم آلة الشيطان ينطق بها (ص ٢٢٥)٠ وهو يعني بهم الامم التي غضبت لما ملك الرب (ص ١٨٧) الذي هو المسيح المنتظر جاء ليخلص سبينا (١٩١)٠ وغير ذلك مما ستقرأه في الميمر مفصّلاً.

٢ — العنصر الاريوسي

قبل ان يختم القديس كيرلس ميمره نراه يحذّر المؤمنين من اتباع اريوس كعنصر كثير الخطر على صحة العقيدة . فيحمل عليهم حملة شعواء ، ويـدلّ عليهم ، دون ان يسميهم ، دلالة صريحة بقوله « الهراطقة الـذين ينكرون الوهية المسيح » . وكلمة « هراطقة » مرادفة لديه لكلمة « اريوسيين » مما يدلّ على ان بدعتي النسطورية واليعقوبية لم تظهرا بعد. ولا يخفى ان الاريوسية كان لها الشأن الاكبر طيلة القرن الرابع ، وفي اوائل الخامس قام ضدها النـاطرة فضلاً عن الكاثوليك ، فما عتمت ان فقدت اهميتها ، ان لم نقـل انطفأت ، في اواسط القرن الخامس المذكور. مما نستدل به على صحة نسبة الميمر الى القديس كيرلس ، الذي نفي مرتين من ابرشيته بسعي الاريوسيين ، وكان اكبر مناضل ضدهم ، كما شهد آباء المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨٢

ففي صفحة ٢٤٩ يحذر القديس ابناء رعيته من مظاهر الاريوسيين الخادعة ، ويشبههم بذلك الوحش الميتولوجي ، الذي يظهر حملاً بتقدمه وثوراً بمؤخره ، مع انه في الحقيقة فهد هائل يأكل لب الاشجـار العوالي ، انما نجس في قلبـه وجسده» . وهم متقلبون لا يثبتون على فكرة ومتنـاقضون في خططهم . ينكرون من جهة الوهية المسيح « ويجعلونـه انساناً لا غير » وهم مع ذلـك

يبدونه . فعبادتهم له تثبت انه اله او انهم وثنيون . اما آراؤهم فضعيفة « كقش الشيخ الذي ينكسر تحت يد من يرتكز عليه » ويستدرج من ذلك الى تحذير سامعيه منهم بقوله : « لا تذكروا يا احباني كلام الهراطقة ولا تدخلوا كنائسهم وتصلوا فيها ، لان ليس لهم كنائس . ولنعترف بلساننا وقلبنا ان عمنوئيل اله حقيقي . »

كل هذا ينطبق على الاريوسيين ، الذين استجلبوا قسطنطين الى رأيهم فاعتمد منهم في آخر حياته[1] ، وتسيطروا على ابنه قسطنس ، فنفى القديس كيرلس مع لفيف كبير من الاساقفة المضادين لبدعتهم ، وعادوا فاستصدروا من والنتيوس امراً باعادته واعادتهم الى المنفى . وقوله « ليس لهم كنائس » يوافق ايضاً ما نعرفه عنهم . فقد كانت خطتهم ان لا يتميزوا بطقوسهم وعاداتهم ومعابدهم عن بقية المؤمنين ليسهل عليهم الانسلال بينهم . وكانوا ، اذا تغلبوا في مدينة ، او استولوا على ابرشية ، مارسوا في الكنائس التي وقعت بين ايديهم الطقوس الدارجة فيها ، واكتفوا ببث بدعتهم في العظات والمياسر التي يلقونها على الشعب المجتمع[2].

وما تقدم يخوّلنا الحق بان نرجح ان القديس كيرلس يقصد افحام الاريوسيين بقوله في صفحة ١٩٢ عن المسيح : « انه لبس السلاح الذي حارب به ذلك الخارجي اعني هذا الجسد الذي اتحد به مع اللاهوت » ، وتلقيبه السيد له المجد في صفحة ١٩٣ « بالاله المتجسد » . ولعله يقصدهم ايضاً بقوله في صفحة ٢٢٣ : « ان الدم الملطخ على حجر الجلجلة معيرة وتوبيخ لليهود « وللغير المؤمنين بالله » ، اي الذين لا يؤمنون بالوهية المسيح .

٣ — العنصر الوثني

نجد في الميمر نصوصاً تشير الى عنصر وثني لم ينقرض بعد ، يحذر الواعظ سامعيه من الاقتداء باتباعه .

ففي صفحة ٢٤٨ ، قبل ان يحمل على الاريوسيين حملته المذكورة آنفاً ، يناشد

١) كابرول مج ٣ : ع ٢٦٢٢ ٢) كابرول مج ١ : ع ٢٨٠٤

سامعيه بان لا يفتكروا بالهة الوثنيين قائلًا : « لا نعبد الصليب المقدس بتوانٍ ولا نعبد المسيح بلساننا لا غير ونباركه بافواهنا ونفكر في قلوبنا بكثرة الالهة التي للوثنيين » وهنا يضرب لهم مثل الوحش الميثولوجي ، وهو كما لا يخفى من خرافات الوثنيين.

وحملته الشديدة في صفحتي ٢٢٦ و٢٢٧ على يوليانس الجاحد ، الذي جاهد باعادة الوثنية الى عزّها الاول على حساب النصرانية ، وتنسيقها على نظامها ، لا تخلو من دلالة على خوف الاسقف من سيطرتها على رعاياه ، ولو بطريق الاغراء ، واطلاق الحرية للشهوات الجسدية.

كذلك قل في برهانه عن ألوهية المسيح : انه انزل العقاب في اعدائه الامبراطرة ديوقلسيانس ومكسيميانس ويوليانس ، ومنح النصر والعز لقسطنطين محبه ورافع لواء صليبه .

ومن دلائل خوف الواعظ من الوثنية تحذير سامعيه من الاقتداء باعيادها وحفلاتها ، التي كانت تحمل الشعب على الاسترسال في ملاذ الشره والدعارة ، بقوله في صفحة ٢١٦ عن عيد ارتفاع الصليب الذي اصبح ، في القرون الرابع والخامس والسادس ، من ابهج الاعياد المسيحية[1] « هذا الزمان الذي نفرح فيه يا احباني كما امر الرب . وليس ذلك بكثرة مأكول ولا بكثرة مشروب ولا بكثرة غناء بل بكثرة تسابيح ومزامير نرتل له ونشكره لانه الاهنا ونحن شعبه وغنم رعيته . »

٤ — فلسطيني

كل هذا يوصلنا الى معرفة جنسية الجمهور الذي خطب فيه صاحب الميمر انه ، كما قلنا ، مسيحي فلسطيني محاط بعناصر يهودية واريوسية ووثنية . وهو يوافق ما نعرفه عن مسيحيي فلسطين في اواسط واواخر القرن الرابع.

تنبئنا نصوص الميمر ان الواعظ فلسطيني وان سامعيه من مسيحيي اورشليم ، بينهم عدد كبير من الحجاج الآتين من المقاطعات المجاورة ، وبعض

---

١) راجع فنسان وآبيل : اورشليم ٢ : ٢٠٤ ؛ ورحلة اثيريا ٨ : ١ و٢

الاجانب الذين جاؤوا من الاقطار القريبة ، لحضور حفلات ارتفاع الصليب « الهبسوزيس » الباهرة . والواعظ متشبّع من التقاليد المحلية عن معاصري السيد المسيح ووجوه قرابتهم منه ، ويعرف الاماكن المقدسة معرفة تامة ، ليس في اورشليم فحسب ، بل في كلّ فلسطين ، ويلمّ هو وسامعوه الماماً دقيقاً بعادات اليهود والسامريين ومعتقداتهم التلمودية من تطهير الآنية والاثمار والاستحمام ، وغير ذلك مما المعنا اليه اعلاه .

وتكفي حكاية اسحق السامري للتثبت من تضلّعه من جغرافية فلسطين . فهو يتتبع رحلة حجاج يافا القاصدين الى اورشليم ، وتزولهم في مساء اول يوم على « جبرٍ في حقل يندوم على حدود مدينة فلسطين » (صفحة ٢٠٧) . حيث حوّل الانبا واكس الماء المر حلواً بقوة صليب من عود رمان في قعره فلمع كالمصباح . فبنى المجاورون كنيسة للصليب كرسها الانبا كيرلس بنفسه (صفحة ٢٠٨) . وقد لحق اسحاق السامري بالحجاج ليأمن بصحبتهم على آنيته الكثيرة الثمينة ، لئلا يخطفها اللصوص اذا خرج بها وحده مع جماعته . فانتهز الفرصة وحملها بكاملها ليطهّرها في العين التي بنى عليها يشوع بن نون مذبحاً لما قسم الارض على بني اسرائيل ، لان من غسل آنيته بهذه العين لا يعود بحاجة الى تطهيرها مرة اخرى (صفحة ١٩٥)

والواعظ يعرف جيداً الاماكن المقدسة : القبر والجلجلة واسماءها القديمة في العبرية واليونانية ، وحالتها قبل العثور عليها وبناء الكنائس عليها[١] ، وهيئة القبور القديمة ، ومغارة القبر ، والعجائب التي ظهرت عليه والتي حملت اليهود على ردمه . وما كانت عليه اورشليم بعد خرابها ، وقبل اكتشاف القبر ، وعدد اليهود في جوارها واسماء علمائهم السبعة ، وسلسلة اساقفة اورشليم قبل القديس كيرلس ، ومن كان منهم من غير اليهود . وقد صرّح ان هذه التقاليد ينقلها عن الآباء الذين سلفوه وان جزءاً منها حدّث به نيقوديموس ويوسف الرامي وبرنابا العبرانيين . ناهيك عن اشارته الى حفلات ارتفاع الصليب الفخيمة ،

---

١) معجم اللاهوت لمنجان في ترجمة القديس كيرلس ٣ : ع ٢٥٢٧

التي كانت تجري سنوياً في اورشليم ، والى تقاطر المؤمنين اليها من كل صوب، وهي قد فاقت حفلات تدشين الكنيسة اهمية ، انما لم تمحُها بعد . كل ذلك يطابق عصر القديس كيرلس ، خاصة الحقبة الاخيرة منه ، التي أُلقي فيها الميمر ، كما سنبيّنه.

٥ ـ المكان

ونصوص الميمر وعنوانه تصرح انهَ أُلقي في عيد ارتفاع الصليب ، قبل الحفلة ، في كنيسة القيامة بجانب القبر المقدس.

ففي عنوان النسخة الحلبية ما حرفيته :

« نقرأ ميمر القديس كيريللوس رئيس اساقفة اورشليم قاله لعيد الصليب النير المقدس . . . في كنيسة القيامة في ١٧ من شهر ايلول . وكان شعب الارثوذكسيين مجتمعين ليمجدوا الصليب المقدس »

وفي صفحة ١٨٧ من مخطوطة بكركي يشير الخطيب في مستهلّ عظته الى الجموع المزدحمة في كنيسة القيامة : « هوذا نرى الآن علوم كثيرة تتفاضل عن بعضها في هذا المكان الطوباني » . وفي صفحة ١٨٨ يقول « وهذا المجمع الذي اجتمع في هذا الموضع من كل كورة لكي يعاينوا مجده ويقبّلوه اعني الصليب المخلص يسوع المسيح »

وفي صفحة ٢٠٥ يقول الواعظ ان الانبا واكس اشار على اسحق السامري بالذهاب الى كنيسة القيامة في اورشليم ، حيث يجد الجموع محتشدة والاب كيرلس : « لكن اذا اردت ان تكون كامل قوم وامضي الى اورشليم واسأل عن كنيسة القيامة . فادخل اليها فانك تجد الاب كيرللوس هو هناك وجموع كثير من المؤمنين الذين اتو من كل كورة ليعبدوا الصليب المقدس لانه يوم ظهوره . وانت اذا مضيت اليه هو يعرّفك طريق الخلاص وتعاين قوة المسيح وصليبه » .

وفي صفحة ٢٠٨ يتابع القديس قصة السامري ويشير الى ازدحام الحاضرين وظهورهم بثياب العيد بقوله : « لما دخل اسحاق الى يورشليم سأل عن سكني

انا كيرللوس فعرّفه شماس اني في كنيسة الصليب اصنع العيد ... فجاء فرأى مجدًا عظيماً وجميع الناس حاضرين بلباس حسن.»

وفي صفحة ٢١٤ يشير الواعظ الى قبر المسيح في كنيسة القيامة سائلاً: «اين وضعوا جسد المسيح . هوذا هو [كان] موضوع في قبره في هذه الكنيسة التي نحن نعيد فيها اليوم.»

وفي صفحة ٢٤٨ يشير ايضاً الى الكنيسة نفسها وحفلة ارتفاع الصليب التي تقام فيها ، واحتشاد الجموع لحضورها وحضور حفلتي العماد والمناولة اللتين كانتا تسبقان حفلة ارتفاع الصليب قائلاً: «والآن فلنكفّ ها هنا من القول ولنقرب الى الاهتمام بالمعمودية المقدسة والقربان في دفعة واحدة . لان الوقت (المعين لحفلة ارتفاع الصليب) قد اقترب . وايضاً من اجل تعب الذين اتوا الينا اليوم الى هذا الموضع المقدس ليسجدوا الاله عمنوايل يسوع المسيح وصليبه المقدس المخلص للذين يؤمنون به.»

كل هذه الشواهد تنطق صريحاً بان الميمر قد أُلقي في كنيسة القيامة باورشليم قبيل حفلة ارتفاع الصليب . فهل يعقل ان يُلفق ويُنسب زورًا الى القديس كيرلس الاورشليمي ؟ وما هي غاية المزوّر والملفق ؟ . لننظر في ذلك بعين الانصاف والنقد المجردة عن الهوى والكبرياء الفارغة.

١٤ — المؤلف

اذا رمنا الوصول الى معرفة مؤلف هذا الميمر علينا ان نسأل نصوصه عن جنسيّة صاحبه ومذهبه وأسلوبه وافكاره ، فنتدرّج من ذلك الى فحص نظام الميمر والعصر الذي وُضع فيه وتصريحاته بشأن صاحبه.

١ً — جنسيته

اولاً : هل هو قبطي ؟

ان ترجمة هذا الميمر في القطر المصري والعثور عليه ضمن مجموعة وُضعت في هذا القطر واتصلت من رهبان الاقباط الى موارنة لبنان ، واحتفاظ الاقباط بميامر أُخر موضوعة على ظهور الصليب ومنسوبة ايضاً الى القديس كيرلس

الاورشليمي ، تزيد الشك في ميمرنا انه مُلفّق مثلها من احد اقباط العصور الوسطى ، ومنسوب زورًا مثلها الى هذا القديس .

وكنا قد استشرنا في الامر حضرة المستشرق الاب القانوني جورج گراف الالماني ، من اكبر الواقفين على تآليف الكنيسة القبطية ، فدلنا على ثلاثة ميامر بهذا الموضوع ، احدها محفوظ في مكتبة البطركخانة القبطيَّة بالقاهرة تحت رقم ٧٠ صفحة ١ — ٢٤ . وهو مخروم ومنسوخ سنة ١٥٨١ م اي ان نسخته احدث عهدًا من نسختي ميمرنا المرتقيتين كما مرَّ بك ، الى سنة ١٥٥٧ و١٥٥٨ . والآخران مصونان في المتحف القبطي بهذه العاصمة تحت رقم ٣٠ من مجموعة الكتب الطقسيَّة ، فكلفنا حضرة صديقنا الاب العالم بولس سباط استنساخهما فلبَّانا . انما لم يفلح في الحصول على نسخة من الميمر الاول . وسألنا ايضاً بهذا الخصوص الاب پيترس البلجكي اليسوعي ، احد مشاهير المشتغلين بتآليف الآباء القديسين وتراجمهم ، فدلنا على ميمر في خزانة مدينة ليپسيك الحطية بالمانية محفوظ تحت رقم ٢٤٢ وتكرم الاب گراف بنسخ الفقرة الاولى منه . فاذا هي :

« ميمر قاله القديس كيرلس . . . يشرح فيه كرامة عود الصليب المقدس ووجوده . في اليوم العاشر من برمهات . قال المجد لله الواحد ذي الحكمة والصنيع العجيب . الجايد علينا بتجسد الابن الحبيب »

ونبهنا حضرته الى ان هذا الميمر ملفّق ومنسوب زورًا الى القديس كيرلس الاورشليمي . وقد وجدناه مطابقاً للميمر الثاني من المتحف القبطي ، ويدور مثله على ظهور الصليب على يد هرقل الملك سنة ٦٢٩ ، اي ثلاثة قرون بعد القديس كيرلس . وهو اقرب الى الرواية منه الى العظة ، اذ ان بطلته فتاة قبطية حسناء سباها الفرس ، فدلت الملك هرقل بعد انتصاره عليهم ، على المكان الذي خبأوا فيه الصليب . وهو غير موضوع ميمرنا فلا حاجة للاسهاب فيه .

اما الميمر الاول من خزانة المتحف القبطي فموضوعه ، مثل ميمرنا « ظهور الصليب على يد البار قسطنطين وامه هيلانة » . بيد انه حديث العهد مسجع العبارة وُضع ليقرأ في السابع عشر من شهر توت . واليك اوله :

« المجد لله الذي خلقنا نحن المؤمنين باشرف المواهب السنية وانعم علينا بجوده وكرمه بأعظم العطايا الالهية . وجعل لنا موضعًا على الارض شبيهًا بالاماكن السمائية . . . »

تكفي هذه الديباجة للتثبت من حداثته . وهو في مقدمته ، التي تشغل الصفحات التسع الاولى منه ، مختلف عن ميمرنا اختلافاً كبيراً . وقد سقطت منه قصص اسحق السامري واكلاوبا وبنت يائيروس وغيرها . بيد انه ، في الصفحات العشرين الباقية يتفق مع الاساطير السريانيَّة ، واحياناً مع ميمرنا ، مما يبعث على الظن انه منقول عنها وان واضعه انتقى بعض التفاصيل من ميمرنا . فهو يروي حكاية ردم اليهود للقبر بزبالاتهم مدة مئتين وثلاثين سنة ، كانهم تابعوا الردم بعد خرابها سنة ٧٠ م . وهذا يخالف ميمرنا كما رأيت . انما يوافقه في ما رواه عن رؤيا قسطنطين لعلامة الصليب بهيئة نجوم زاهرة ، وانــه عرف من يوسيفوس الجندي الشيخ الموقر (وهو في ميمرنا شاب يُدعى يوسيكينوس) انها للمسيح ، فصاغ صليباً من ذهب رفعه على علم ونقش مثله على تاجه وعلى آلة الحرب فظفر باعدائه ، الذين لا يسميهم قال :« وأشرقت بشعاعه الدولة اليونانيَّة » ، واعتمد في السنة السابعة من ملكه من يد سيلطرس بابا رومية[1] . وقصد الى القدس مع والدته هيلانة وسأل اليهود عن مكان الصليب ، فانكروا في بدء الامر ثم حولوه على يهوذا الذي دله على تل الجلجلة . فامر اليهود بتنظيفه (هنا ورقة مخرومة كما في نسخة حلب) فكشفوا عنه في السادس عشر من توت . وعُرفت حقيقته من وضعه على الميت ، مما يخالف ميمرنا . ثم تنيح الانبا يوساب اسقف اورشليم (لعله « يوسف » ميمرنا) وكرّز بعده يهوذا ودعي كيرياكوس (وهذا يخالف ايضاً ميمرنا ويوافق الاساطير السريانيَّة) . وبعد ذلك اجتهدت الملكة في طلب المسامير فاكتشفها الانبا كيرياكوس وصاغتها لجاماً لركوب ابنها ، كما في الاساطير السريانيَّة . فانت ترى ان واضع الميمر القبطي قد اخذ كثيراً عن هـذه الاساطير وبعض الشيء عن ميمرنا ، وانفرد ببعض المعلومات ، مما يدل على انه استقى من هذا وتلك ومن غيرها .

ولا بد انك قد استغربت قوله عن « اشراق الدولة اليونانيَّة بشعاع

---

١) لعله يريد القديس سيلفستروس الاول الذي جلس على كرسي رومية في عهد قسطنطين اي من سنة ٣١٤ حتى ٣٣٥ ، مخالفاً بذلك الاساطير السريانية التي تدعي ان البابا اوسابيوس اسقف رومية (٣١٠–٣١٦) هو الذي عمّده .

قسطنطين » ، والاقباط كانوا يكرهون اليونان كرهاً عظيماً . وقد استسلموا لليعاقبة ديناً ، وللعرب دنيا ، ليتخلصوا من استبداد رؤسائهم وامبراطرتهم .

وفي هذا الميمر يرد اسم اورشليم بصيغته اليونانيَّة « يورشليم » فهل هذه دلائل نقل اصله عن اليونانيَّة ، ونقله رأساً بعض التفاصيل عن ميمرنا ، والبقية عن الاساطير السريانية ، فيكون احدث عهداً من ترجمة ميمرنا عن السريانية ! نحن نرجح ذلك ، انما لا نعني به ان مؤلف ميمرنا قبطي الاصل .

اولًا : لانه مترجم كما قلنا عن السريانية ، ولا معرفة للاقباط بهذه اللغة .

ثانياً : اذاكان مترجمه سريانياً فمؤلفه غير يعقوبي اي غير سرياني وغير قبطي . لان ليس فيه ما يشتم منه رائحة البدعة اليعقوبية ، كما سنبيّنه في ما يلي .

ثالثاً : يشير الميمر في صفحة ٢١٥ الى نمو الزرع بواسطة مطر السماء . مما يدل على انه وُضع في بلد تعتمد على مطر السماء . وهو غير الحال في وادي النيل حيث يروى الزرع بماء النيل ، ولا مطر يهطل الا نادرًا . واليك العبارة : « كمثل انسان حكيم يمضي الى حقله وينقي منه السنط[1] والشوك الذي يطلع فيه . وبعد ذلك يزرع فيه الزرع بيد سمحة ويحرثه بالمحراث وينظر الى زمان الشتاء ليأتي المطر عليهم ويطلعوا وينموا ويعودوا زرعاً صالحاً من اجل الريح الندى الذي نزل من السماء من عند الله » .

ثانياً : هل يوناني ؟

سنبين في ما يلي ان الميمر قد وُضع في بلاد مسيحيَّة يحكمها ملوك مسيحيون . فيجب ان نؤخر وضعه الى ما قبل الفتح الاسلامي للبلدان الشرقيَّة ، وهذا يفتح باباً للسؤال هل مؤلفه احد يوناني العصور الوسطى . لاسيا ان الدلائل عديدة كما قلنا على اصله اليوناني . فنجيب ان ذلك لا ينطبق على يوناني القطر المصري لان حكمهم حكم الاقباط في خضوعهم للاسلام بعد الفتح . بقي علينا ان نعرف هل هو تأليف احد يوناني الدولة البيزنطية التي لم تسقط في ايدي الاتراك الا اواسط القرن الخامس عشر .

١) قلنا سابقاً ان استعمال المترجم لهذه الكلمة يدل على ترجمة الميمر في القطر المصري ، لا على تأليفه في هذا القطر .

لهذا الاعتراض بعض الوجاهة ، انما ليس لمقدميه برهان عليه . ولا ينطبق على الجمهور الذي كان حاضرًا سماع الميمر ، وهو ، كما بيّنا ، مسيحي فلسطيني محاط بعناصر أريوسية ويهودية ووثنية . فالاريوسية انطفأت في اواسط القرن الخامس ، وكانت الوثنية قد اندثرت قبلها في البلدان المسيحية ، خاصة القسطنطينية . ولم يكن لليهود في هذه العاصمة ، في العصور الوسطى ، الشأن الذى يشير اليه صاحب الميمر ولا الخطر الذي يخافه من تعاليمهم وتقاليدهم.

فضلًا عن ان الميمر يصرّح ، كما رأيت ، انه تُلي على جمهور مجتمع حول القبر المقدس في كنيسة القيامة بأورشليم . وليس فيه ما يؤيد آراء المنشقين من اليونان ، الذين انفصلوا اولًا عن كنيسة رومية بعد القرن التاسع ونهائيًا بعد اواسط الحادي عشر . ولو كان لاحدهم لقاوم صراحةً بدعتي النسطورية واليعقوبية . نعم ان صاحب الميمر غير يعقوبي وغير نسطوري ، كما سنبيّنه من اقواله ، انما جاءت تصريحاته في ناسوت المسيح ولاهوته مضادة عرضًا لهؤلاء المبتدعين. فهو لا يقصدهم ولا يشير اليهم البتة ، بخلاف الاريوسيين. وانك تجد في عظات القديس كيرلس تصريحات واضحة في شأن الطبيعتين والمشيئتين[1] ، مع انها قيلت في سنة ٣٤٨ قبل ظهور اليعاقبة والنساطرة بقرن ونيّف . نلفت النظر الى ذلك لئلا يخيّل الى احد ان الميمر وُضع بعد القرن الخامس .

٢ً — مذهبه

ان واضع الميمر كاثوليكي اي انه غير تابع لاحدى البدع التي نشبت في الكنيسة الشرقية وفصلتها عن الكنيسة العامة : اي الاريوسية ، والنسطورية ، واليعقوبية ، او اليونانية .وقد مر بك انه ليس باريوسي ولا يوناني فلعله نسطوري او يعقوبي.

اولًا : ليس بنسطوري . ان حملته على الاريوسيين قد تحمل البعض على نسبة الميمر الى احد النساطرة اعدائهم . على ان تصريحه باتحاد لاهوت المسيح مع ناسوته يبدّد هذا الظن . فقد جاء في صفحة ١٩٢—١٩٣: « هذا الجسد اتحد

١) راجع معجم اللاهوت لفاكان مج ٣: ع ٢٥٢٦

به مع اللاهوت . . . والاله متحد به داخله وخارجه » وفي صفحة ٢١١ « هذا الجسد الذي اخذه من مريم العذرى ولبسه وجعله واحد مع لاهوته » . فضلًا عن انه ذمّ في صفحة ١٩٧ السامريين لادعائهم بان المسيح لم يصلب بل ابدل بنبي آخر وهو ما اخذه النساطرة عن باسيليوس المبتدع[1] ولقنوه نبي الاسلام .

ثانياً : وهو ليس بيعقوبي لانه يسلم ضمناً بطبيعتي المسيح الالهية والانسانية بقوله في صفحة ١٩٢ « ان الملك (اي المسيح) جاء الى عبيده بهوى قلبه . . . ولبس السلاح الذي حارب به ذلك الخارجي اعني هذا الجسد الذي اتّحد به مع اللاهوت . وذلك الجسد من غير زرعة بشر وعمل الاشياء كلها مثلنا ما خلا الخطيئة . وهو لم يخطئ قط ولم يوجد فيه دغل فسد والاله متحد داخله وخارجه » .

هذه التعاليم جاءت في هذا الميمر عفوًا . فصاحبه ليس بنسطوري ولا يعقوبي . انما لا يحارب هؤلاء علناً . ولا يعقل كما قلنا ان يكون واضعه عاش بعد ظهور هاتين البدعتين ويكتفي بمحاربة الاريوسيّين فقط ويعنيهم وحدهم بالمراطقة دون ان يتعرّض للبدعتين اللتين نشأتا لمقاومة ضلال نسطور ، او يدافع عن احداهما ، فنعرف انه من اتباعها .

ثالثاً : مركلوس الانقيري . في الحقبة الاولى من القرن الرابع ظهرت ضلالة مركلوس الانقيري الذي انكر ازلية ملكوت المسيح ، بدعوى ان ملكه ابتدأ فقط حين تجسده . وقد ذهب تلاميذه ، اخصهم فوتينوس ، الى ابعد من هذا ، فانكروا ازلية المسيح في جوهره والوهيته وملكوته . تخبطت النصرانية ردحاً من الزمن في شراك هذه البدعة ، وكاد القديس اثناسيوس الاسكندري يعلق بها لصداقته مع مركلوس المذكور ، فحطه مجمع الاساقفة في صور سنة ٣٣٥ عن كرسيه وحرم صديقه مركلوس . وقد جاهد عبثاً امبراطورا الشرق والغرب في سنتي ٣٤٢ و٣٤٣ للتوفيق بين المبتدع المذكور والرأي الكاثوليكي . ومات مركلوس سنة ٣٧٤ وآل تطرّف تلاميذه الى اضعاف شأنهم وزوال خطر بدعتهم في اواخر القرن الرابع[2] ، وهي الحقبة التي

١) راجع مجموعة مين في تعليقه على عظة القديس كيرلس الرابعة رقم ٣٠ ع ٤٦٧
٢) راجع في هذه البدعة معجم ڤاكان ومنجنو : مج ٩ قسم ٢ع ١٩٩٥

زجج القاء الميمر فيها.

اوردنا ذلك اولًا لتبيان غرض صاحب الميمر من استهلاله بآية المزامير « ملك الرب » وايراده غيرها من الآيات المثبتة ملكوت المسيح ، ثانياً لنلقي في كفة نسبة الميمر الى القديس كيرلس برهاناً يزيد في ترجيحها. واليك بعضها:

« ملك الرب فلتتهلل جميع الامم » (صفحة ١٨٧) . « أترى هو منتظر الى زمان ليملك . اليس الملك كله له والربوبية من الابتداء. كما قال دانيال النبي ان مملكته دائمة الى الابد وربوبيته من البحر الى البحر ومن النهر الى اقصى المسكونة . فان كنت تريد ان تعلم ايها المناصب ان المسيح ملك الملوك فاسمع . . . الخ » (صفحة ١٨٨)

الا تراه يعني مركلوس بلقب « مناصب » وانه يرمي الى الردّ عليه بالآيات المذكورة ? ونحن نعلم ان هذه البدعة كادت تنطفئ في اواخر القرن الرابع فلم يعرها صاحب الميمر الا قليلًا من الاهمية . وهذا دليل على ان الميمر أُلقي في هذه الحقبة، اذ لا داعي لتفنيد ما لا يقول به احد.

ولما كان هذا الميمر خالياً من رائحة كل البدع الشرقية، حقّ لنا ان نسأل الذين يعارضون في نسبته الى القديس كيرلس: ما هي غاية واضعه من هذا التزوير ? لو انه دسّ فيه ادنى سم هرطقة ام رأي شاذ، لادركنا انه اقدم على هذا التزوير ليتسنى له تسميم عقيدة المسيحيّين بسهولة دون ان يتخذوا حيطتهم ؟ اذ انه ينسب آراءه الفاسدة الى قديس قديم من اشهر علماء الكنيسة واوسعهم حجة. اما والواقع غير ذلك فما هو غرضه من اخفاء اسمه ? لو جرّدنا هذا الميمر من ثوبه المستعار وعبارته الركيكة الغريبة، لالفيناه من أجمل المواعظ التي ورثناها عن الآباء. الاولين معنى ومبنى، وأغزرها فوائد تاريخية وتقاليد ثمينة . فهل حمل فرط التواضع صاحبه على التستر وراء هذا القديس ? ولكن ما قول اصحاب هذا الرأي في رجل صالح ساعٍ في طريق الكمال المسيحي يرتكب الكذب والتلفيق والتزوير، فيسند اقواله الى احد اعاظم معلمي الكنيسة ويصفها على لسانه بصورة المتكلم « انا كيرلس . مسكنتي انا الحقير كيرلس » ، وما شاكل ذلك !

(للبحث صلة)

بغداد عاصمة الادب العباسي*

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

تمهيد

لقد اصبح من النافل ان نتبسَّط في البرهان على تأثير البيئة في الادب، ودلائلُ هذا التأثير ظاهرة واضحة في الفنون الادبيَّة جميعها، بل في ما وراء ذلك من مفردات وتعابير لغوية. حتى اجمع ذوو البحث على ان البيئة تكيِّف الفرد بل الشعب، وتَسِم بسمتها الخاصة كل ما يولده هذا الشعب من آثار متنوِّعة المظهر والغاية، فلخَّصوا ذلك بالقول المأثور: «الانسان ابن بيئته!»

وما كان الشعب العربي ليشذّ عن هذا الناموس، وما كان الادب العربي ليبقى بمعزل عن هذا التأثير. ونحن لا نفهم الشعر الجاهلي حقّ الفهم، بل لا ندرك معاني التعابير العربية نفسها، الا اذا عرفنا حياة العرب في تلك الصحراء القاحلة، الحارّة، القليلة المطر؛ فنفقه اذ ذاك لماذا يدعو العرب بالشرّ فيقولون: أسخن الله عينك! ويدعون بالخير فيقولون: سقاك الله! رعاك الله! واقرّ الله عينك! ثم يغدقون الرحمات على قبور موتاهم فيتمنّون الرطوبة اثراها ويكون عليها «الغوادي الرائحات» ! وهم، لو عاشوا في بلاد غزيرة المياه، شديدة البرد، لعكسوا تعابيرهم دون شك، فتمنوا الجفاف لقبور موتاهم، والدفء والحرارة لاحبابهم! [١]

هذا مثال ضئيل على تأثيرات البيئة الجغرافيــة المادية. فكيف بها، لو

*) مادة المحاضرتين الاولَيين من محاضرات «معهد الآداب الشرقية» ، في فرع «الفلسفة والآداب الساميَّة».

١) راجع في ذلك ما كتبناه في «المشرق» (٣٠ [١٩٣٢] : ٢٠٥-٢٠٦)

اقترنت بتلك البيئة عوامل خُلُقية شتى، ومظاهر ثقافيـة متعدّدة؛ كما كانت الحال في بغداد العباسيين، في القرنين الاول والثاني لتأسيسها؟

هو مجال رحب سنحاول جوسه شيئاً فشيئاً مستندين بالاكثر الى ما تركه لنا القدماء من معلومات واحاديث واساطير ايضاً، اذ ان للاساطير قيمتها، لا في معرفة تاريخية الامر الدائرة حوله، بل في الدلالة على عقلية واضعيها وناقليها. فندرس اولًا تأسيس بغداد وازدهارها، ثم تمازج العناصر البشرية فيها، وما كان لها من اثر في تكوين ذاك الادب العبـاسي. ونريد بالادب العبـاسي مجمل المولّدات العقلية المطبوعة بطابع تلك الثقافة الخاصة بالقرنين الاولين من حكم العباسيين، قبل ان تتشعّب السلطة، فتتعدّد عواصم المدنية والادب.

تأسيس بغداد وازدهارها

اسم بغداد

لمؤلّفي العرب آراء عديدة وتخريجات متنوّعة في شرح هذه اللفظة، شأنهم تجاه كل لفظة غريبة عن لغتهم. وقد جمع ياقوت[1] اكثر هذه الآراء. واشهرها ما نُقل عن بعض الاعاجم من ان معنى بغداد: بستان رجل اسمه داد، من الفارسية باغ او بغ = بستان، وداد او داذ = اسم الرجل.

وقال غيرهم: بل بغ = اسم صنم، وداد = عطية. وأصل ذلك ان كسرى كان، قد اقطع احد خصيانـه هذا المحل فقال: بغ دادي، اي: الصنم اعطاني.

وقد نقل ابن الجوزي[2] قول عبد الله بن المبارك في بغداد: «ان بغ شيطان،

---

١) ياقوت: معجم البلدان (طبعة Wüstenfeld)، ليبسك ١٨٦٦، ١: ٦١٧ – ٦٢٨

٢) ابن الجوزي: مناقب بغداد (طبعة الاثري)، بغداد ١٣٤٢ (١٩٢٣)، ص ٦

وداذ عطيته ، فانها شرك » . . .

واراد حمزة بن الحسن ان يشرح ، لا اصل اسم « بغداد » فحسب بل اصل معنى « دار السلام » ايضاً فقال ، في ما نقل ياقوت : « بغداد اسم فارسي معرّب عن باغ داذويه ، لانّ بعضَ رُقعةِ مدينة المنصور كان باغاً (= بستاناً) لرجل من الفرس اسمه داذويه . وبعضها اثر مدينة دارسة كان بعض ملوك الفرس اختطّها فاعتلّ . فقالوا : ما الذي يأمر الملك ان تُسمَّى به هذه المدينة ؟ فقال : « هليدوه ورّوز » اي : خلّوها بسلام . فحكي ذلك للمنصور فقال : سمّيتُها « مدينة السلام » . (كذا !)

ولهم كذلك اختلاف في لفظها . فهي بغداد ، وبغداذ ، وبغدان ، ومغداد ، ومغداذ ، ومغدان[1] .

وتراهم في تعليلاتهم هذه لا يتجاوزون اللغة الفارسية .

على اننا نجد ذكرًا قديماً لبغداد في الآثار المسمارية حيث ورد اسمها بصيغة بَغدَدو او بَگدَدو على حَدّ يرقى الى عهد الملك البابلي مردخ بلـدان الاول (١١٩٤–١١٨٢ ق. م.)[2] . ولكن ستريك[3] يضعّف هذا الرأي ، ويرى ان الفرضية لا تظهر قابلة الاحتمال بحجة ان قراءة لفظة بَگدَدو غير ثابتة ، وانه ليس من الممكن ان نرقى باسم ايراني الاصل الى زمن بعيد في القدم هذا البعد . اما قراءة لفظة بَگدَدو فعليها كثير من العلماء ، وقد اوردها مؤخرًا اصحاب

---

١) اطلب في اسماء بغداد وشرحها الخطيب البغدادي في : G. Salmon, *L'introduction topographique à l'histoire de Bagdâdh d'al-Khaṭīb*, Paris, 1904, p. 23-24

وسلمون يشير في احدى حواشي الصفحة ٢٤ الى رأي اوطيخيوس (Eutychius, *Annales* (éd. Pocock, II, p. 399) القائل ان بغداد اسم راهب كان يسكن الدير القائم مكان مدينة المنصور حين قصد الخليفة بناءها . وهو غريب .

واطلب ايضاً في اسماء بغداد ملاحظات دي غويه في المجلة الاسيوية *J. As.* série X, t. 3, 1904, p. 159

٢) اطلب في ذلك : Scheil, *Mém. Délég. en Perse*, VI, 1905, p. 31 ss.

٣) Streck, *Baghdâd* [*Encyclop. de l'Islam*, I, 575]

« الدليل الازرق » ايرادَهم لامر ثابت[١] . واما كون اصل لفظة بغداد ايرانياً — وستريكْ يؤكد ذلك تأكيد قدماء مؤلفي العرب ويشرحه بمعنى «عطية الله »[٢] — فهو ما نشكّ فيه ، وقد عرفنا قِدَم اللفظة ، وقِدَم المدينة نفسها بشهادة ما وجد فيها بعض العلماء من آثار الرصيف الآجري الراقي الى عهد بختنصّر الثاني(٦٠٤— ٥٦١) . فان راولنصون في السنة ١٨٤٨ ، وأوبرت في السنة ١٨٥٣ ، وبرنيون وهاربر في السنة ١٨٨٩ وجدوا في بغـداد ، على رصيف الشاطئ الغربي من دجلة ، قطعاً من الآجرّ محفورًا فيها اسم بختنصّر الثاني[٣] . ولا يزال ظاهرًا قسمٌ من هذا الرصيف الكلداني حتى ايامنا هذه ، على قول ستريك ، واصحـاب « الدليل الازرق » ، وماسينيون الذي ذكر موقع تلك الآثار في محلّة خضر الياس في الكرخ[٤] .

افلا يكون اسم بغداد سابقاً للعهـد الفارسي ؟ وهـل من غرابة في ان يكون آرامي الاصل ، وهو اسم محلـة في بقعةٍ نزلها الآراميون منذ القـدم بشهادة اسماء عدة اماكن في جوار بغداد كالكرخ والشماسية وغيرهمـا ؟ أوَ نكون على خطأ اذا قلنا ان لفظة « بغداد » اصلها بيت گداد ܒܝܬ ܓܕܕ الآرامية ومعناها « بيت القطيع » او « الحظيرة » [٥] ، فاكتُفي بالباء من « بيت »[٦]

---

١) اطلب « *Les Guides Bleus* » *Syrie — Palestine — Iraq — Transjordanie.* [*sous la direction de* Marcel Monmarché] Hachette, Paris, 1932, p. 480

٢) Streck, *loc. cit.*, p. 574-575 — وراجع ايضاً G. Le Strange, *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, Oxford, 1900, p. 11

٣) يشير ستريك الى كل هذا ذاكرًا مصادر منها :

H. Rawlinson, *Baghdad* [*Encyclop. Britannica*, II, 234. a].

J. Oppert, *Expédit. scientif.*, I, 92

٤) L. Massignon, *Mission en Mésopotamie* 1907-1908, t. II. *Epigraphie et topographie historique* [*Mémoires de l'Inst. français d'arch. orientale du Caire*, XXXI], 1912, p. 91, note 3

٥) كما يستعملها ابن بهلول (طبعة Rubens Duval) عمود ٤٤٩

٦) وهي ظاهرة لغوية معروفة واسعة الانتشار ، ولاسيا في لبنان في القرى الآراميـة

واصبحت اللفظة بگداد او بغداد . ثم فُرّست بتنقيط الذال الاخيرة فغدت بغداذ ، واخذ اللغويون من ثمَّ في شرحها عن طريق الفارسية .

واذاً فقد يكون من الممكن ، بدل ان نشكّ في قدم ذكر بغداد بحجة اسمها الايراني ، ان نشك في ايرانية هذا الاسم بدليل قِدَمه . . .

قدم بغداد

ومهما يكن من امر فلا شك في قِدَم محلة بغداد ، وفي وجودها قبل ان يفكر المنصور ببناء مدينته ، بل قبل ان يصل المسلمون الى ارض العراق . وقد ذكر ستريك ان التلمود يشير اليها مرتين على كونها سابقة لهذا العصر[1] . وذكر مؤرخو العرب انها كانت سوقاً جامعة يقصدها تجار العراق وفارس وسائر البلاد المجاورة ، بل تجار الصين انفسهم ، على قول ياقوت[2] ، وهي هذه السوق التي اغار عليها المثنى بن حارثة الشيباني ، القائد المسلم ، آبان عقدها ، فنهبها ، في اول الفتوح الاسلامية السنة ١٣ للهجرة (٦٣٤ م) كما يروي ابن الجوزي وياقوت عمن تقدمهما من المؤرخين . وخلاصة الخبر ان اهل الحيرة اخبروا المثنى عن هذه السوق وما يجتمع فيها من الاموال ، فسار بعسكره حتى اتى الانبار فكلّم شُفروخ مرزبانها وآمنه على شرط ان يمدّه في مشروعه ، قائلاً : « اريد ان اغير على سوق بغداد واريد ان تبعث معي ادلاء فيدلوني الطريق ، وتعقد لي الجسر لاعبر عليه الفرات . ففعل المرزبان ذلك . وقد كان قطع الجسر قبل ذلك لئلا تعبر العرب عليه . فعبر المثنى مع اصحابه ، وبعث معه المرزُبان الادلاء ، فسار حتى وافى السوق ضحوةً فهرب الناس وتركوا اموالهم — ويقول ابن

الاسماء ، كما نرى في بتدين = بيت الدين ، وبكيفا = بيت كيفا (اي بيت الصخرة) ومثلها كثير .

١) Streck, *loc. cit.*, p. 575

٢) ياقوت : الكتاب المذكور ١ : ٦٧٨ — ولم يترك ياقوت هذه الفرصة تذهب سدى ، فاستخرج اسم بغداد من اسم ملك الصين ، قال : « وكان اسم ملك الصين بغ فكانوا (تجار الصين) اذا انصرفوا الى بلادهم (بارباحهم الطائلة من تلك السوق) قالوا : « بغ داد » اي ان هذا الربح الذي ربحناه من عطية الملك . »

الجوزي : بل ان المثنى « وضع فيهم السيف »[١] — فاخذ المسلمون من الذهب والفضة وسائر الامتعة ما قدروا على حمله . ثم رجعوا الى الانبار ووافى معسكره غانماً موفوراً . »[٢]

وحول تلك السوق ، على الضفـة اليمنى ، كان كثير من القرى والمزارع الآرامية دخل بعضها في تكوين حي الكرخ وما اليه في جنوبي الجانب الغربي من بغداد الكبرى. وقد ذُكر من تلك القرى بَياوَري او بَناوَري ، وسال ، وشوانيّة ، وسونايا ، ووردانية ، وورثال او وَرثالة ، وبراثا ، واشهرها مدينـة الكرخ. واسمها آرامي الاصل معناه « المدينة المحصّنة » . وهي قديمة ينسب بعض المؤرخين بناءها الى سابور الثاني (٣١١–٣٨٠) . وليس غريباً ان تكون الكرخ المدينة المهمة المسوّرة قبل الاسلام ، وان يكون كل ما تقدم ذكره من المحالّ ، حتى بغداد ، من مزارعها وبساتينها.

وفي النصف الاعلى من مدينة المنصور ، في الربع المسمّى الحربيـة ، كان قبل العهد العباسي مدينتان معروفتان هما الخطابية والشرفانية.

وكل هذه الاماكن كانت مشهورة ببساتينها ورياضها على عهد الساسانيين ، بفضل ما كان يخترقها من الانهر والاقنية المتفرّع اكثرها عن الفرات حتى يصبّ في دجلة (اطلب الرسم ٢) ، كما يظهر لمن يلقي نظرة اجمالية على ما تصوّره لوسترانج من نظام شبكة الريّ في تلك الناحية ، في عدة خرائط[٣] قد يتناولها نقد ماسينيون في ما خصّ انهر الكرخ[٤] ، ولكنها تلخّص على اسهل طريقة معلومات مؤرخي العرب في هذا الشأن ، تلك المعلومات التي استفاد منها سالمون فكتب فصلاً وافياً في « سواد العراق ونظام الريّ في بابل »[٥].

---

١) ابن الجوزي : الكتاب المذكور ، ص ٧

٢) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٧٦

٣) G. Le Strange, *op. cit.*, Map. III, IV, V, VI...

٤) L. Massignon, *op. cit.*, p. 118-119

٥) G. Salmon, *op. cit.*, p. 32-42

وقد كان ينزلها ملوك الساسانيين احياناً ، وهي على مسيرة يوم من عاصمتهم المدائن (نحو ٣٠ كيلومترا) ، فيقيمون في قصر بنوه على مقربة من مصب نهر عيسى . وهو القصر الذي تحوّل اسمه في ما بعد الى « قصر عيسى » .

فيتضح مما تقدّم ان المنصور لم يبنِ مدينته في مكان مقفر من السكان . اما هؤلاء السكان فكانوا في اكثرهم من العنصر الآرامي الغالب على تلك الانحاء ، بدليل اسماء الاماكن الآرامية الاصل والصيغة احياناً ، وبدليل ما نعرفه من كثرة الديورة النصرانية الزاهرة على عهد الساسانيين . ولا يخفى ان قصر الخلد الذي بناه المنصور على الضفة اليمنى ، بعد بناء مدينته ، كما سنرى ، قام محل دير قديم . وانه كان في جوار مصبّ الصراة في دجلة دير آخر[1] ترك اسمه لذلك الحي باجمعه فكان الناس يدعونه حتى بعد العهد العباسي « الدير العتيق » . ويذكر ياقوت ايضاً بيعة كانت في موضع مدينة المنصور[2] .

بيد ان كل ما تقدم ذكره من القرى والمزارع كان ابعد من ان يمثل الدور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والادبي الذي مثّله بغداد . وعليه يمكننا ان نقول ان المنصور انشأ حقًّا مدينة بغداد .

لماذا اختار المنصور هذا الموقع ؟

كانت دمشق ، عاصمة الدولة البائدة ، لا تزال مخلصة امينة لخلفائها الامويين . وهي ، فضلاً عن ذلك ، اصبحت كثيرة الانحراف نحو الغرب بالنسبة الى مملكة كان اكثر اتساعها الى الشرق من البحر المتوسط حتى نهر الاندوس .

فكان من الضروري ان تحوّل الدولة الجديدة مركز حكمها من الشام . ولم يكن من المعقول ان تعود به الى الحجاز ، وقد فقد اهميته السياسية منذ عصر الراشدين ، فضلاً عن انحرافه عن متوسط العالم الاسلامي . واذا ذكرنا ما قام به الفرس ، ولاسيما الخراسانيون ، من الجهود والتضحيات في نصرة بني العباس ، قدّرنا ان العاصمة الجديدة ستتجه نحو بلاد فارس ، فتكون الدولة

---

١) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨١   ٢) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨٠

الحديثة قريبة من انصارها ، ويكون مقامها متوسطاً بين الفرس والعرب ، وهما العنصران المهمان في الجامعة الاسلامية اذ ذاك.

فكر السفّاح بهذا الامر ، فجعل مركزه اولًا على شاطئ الفرات . ولم يقم في البصرة لانحرافها عن المتوسط الجغرافي المقصود . وتجنّب الكوفة ، عاصمة عليّ ، لتعلق اهلها بالعلويين تعلقاً شديداً كان يخشى منه العباسيّون . فبنى الهاشميّة ، موسّعاً قصراً كان لابن هبيرة . ثم اختطّ تجاهه مدينة جديدة سمّاها الهاشمية ايضاً ، واتمها المنصور بعده [١].

اما المنصور فاقام في الهاشمية مدة ، ثم شعر باذًى من جيرانه اهل الكوفة الذين كانوا « يُفسدون جيشه » ، على قول المؤرخين . ولا ننسَ ان العباسيين انما نالوا الخلافة بفضل الفرس العلويين الذين لم يثوروا على بني امية الا لارجاع هذا الحقّ الى اصحابهم من ابناء علي ، لا لاعطائه بني العباس . فكان ان هؤلاء ، عندما تخلّصوا من الامويين ، ضبطوا الحكم وعملوا على التخلص من احزاب العلويين . فقتل المنصور ابا مسلم الخراساني ، « صاحب الدعوة » ، مَن كان اعظم مؤسس للخلافة العباسية على غير قصدٍ منه ، ثم تخلّص كذلك من ابراهيم الثائر في البصرة . فاضحى يتجنّب جوار العلويين فابتعد عن الكوفة والبصرة ؛ وخشي ان يكون عرضةً لزحف قد يقوم به الفرس فجعل دجلة بينه وبينهم ، واختار موقع بغداد على الضفة اليمنى.

وهنا يتبسّط مؤرّخو العرب في اسباب هذا الاختيار . وكلها تعود ، في نظرهم ، الى جودة المناخ ، وخصب الموقع ، وحسن مركزه الاقتصادي والتجاري والسياسي .

اما جودة المناخ فنسبيّة . لان بغداد لا تعلو عن سطح البحر الّا ٣٧ متراً وهي في منطقة حارة [٢] ، تكتنفها المياه البطيئة السير ولا يندر ان تؤلف ،

١) ياقوت : ك . م . ٤:٤٦٠

٢) يندر جدًا ان يسقط الثلج في بغداد . فاذا سقط اهتمّ به الناس وارّخه المؤرخون . من ذلك ما ذكر ابن العبري في تاريخ السنة ٢٩٦ للهجرة (٩٠٨ م) قال : « سقط ببغداد ثلج كثير من بكرة الى العصر ، فصار على الارض اربع اصابع . وكان معه برد شديد ، وجمد

بسبب فيضان دجلة ، مستنقعات يتولّد فيها كثير من البعوض والذباب[1]. ولعلها كانت ، قبل ان تكثر فيها السكان ، اقلّ فضلات ، وانقى هواء.

واما خصب البقعة فمشهور بفضل وقوعها بين دجلة والفرات في نقطة اقترابهما احدهما من الآخر ، وبفضل ماكان يخترقها من الاقنية او الانهر السائرة بين النهرين الكبيرين ، القائمة بريّ تلك البقعة بجملها ، كما قدّمنا.

واما حسن المركز الاقتصادي والتجاري والسياسي فناتجٌ عن موافقة الموقع في بقعةٍ متوسطة بين مراكز المدنيات الزاهرة منذ القدم من البابليين الى الاشوريين الى الفرس الاول الى السلوقيين الى الساسانيين الى البيزنطيين ، حتى كانت تلك البقعة نقطة اتصال بين الامم المختلفة فازدهرت فيها بابل ، ثم سلوقية ، ثم المدائن ، واخيرًا بغداد في العصر الذي يهمنا امره.

انتبه مؤرخو العرب وجغرافيوهم لهذه الاسباب فذكروها في القول على تأسيس بغداد. انما اضافوا اليها شيئًا من الحكايات والاساطير يصعب تحقيقها. فخلطوا المحتمل بالممتنع والمعقول بالمستحيل . وقد يكون من المفيد ان نذكر مثلًا على كل من هذين النوعين.

من النوع الاول ما ذكره كل المؤرخين ، على شيء من الاختلاف في الرواية ، قالوا : « ان المنصور استشار دهقان بغداد في موضع البناء. فقال الدهقان : « الذي اراه ، يا اميرَ المؤمنين ، ان تنزل في نفس بغداد . فانك تصير بين اربعة طساسيج[2] : طسّوجان في الجانب الغربي ، وطسّوجان في الجانب الشرقي . فاللذان في الغربي قَطرَبُّل وبادوريا ، واللذان في الشرقي نهر بوق وكلواذى . فان تأخر عمارة طسّوج منها كان الآخر عامرًا . وانت ، يا امير المؤمنين ، على الصراة ،

الماء والخلّ والبيض وهلك النخل وكثير من الشجر . » (تاريخ مختصر الدول (طبعة صالحاني) بيروت ، ١٨٩٠ ، ص ٢٦٩) . والبرد يشتدّ ، شتاءً ، في اكثر السنين ، حتى يلتزموا ان يضرموا النار للاستدفاء. » (البستاني : دائرة المعارف ٥ : ٥٠٥)

١) وقد اشار جلّ من ذمّوا بغداد ، شعرًا ونثرًا ، الى كثرة ما فيها من المنايل والمزابل والهوامّ . اطلب شيئًا من ذلك في ياقوت : ك. م. ١ : ٦٩٠–٦٩٦

٢) ج. طَسّوج : الناحية ، القرية.

ودجلة تجيئك بالميرة من القرب ، وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر وتلك البلدان . وتُحمل اليك طرايف الهند والسند والصين والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك ميرة ارمينية واذربيجان وما يتصل بها في تامرّا ، وتجيئك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة . وانت بين انهار لا يصل اليك عدوك . الا على جسر او قنطرة فاذا قطعت الجسر والقنطرة لم يصل اليك عدوك وانت قريب من البرّ والبحر والجبل . ودجلة والفرات والصراة خنادق مدينتك . »[1] فاقتنع المنصور .

ومن النوع الثاني ما تناقله المؤرخون ايضاً مما يمكننا تسميته باسطورة «مِقلاص» ، وقد اشار اليها ابن الجوزي والخطيب البغدادي بشيء من الاختصار ، ووردت مفصّلة في الفخري ومعجم البلدان ، وهي عن علي بن يقطين ، قال :

« كنت في عسكر ابي جعفر المنصور حين سار الى الصراة يلتمس موضعاً لبناء مدينة . (قال) فنزل الدير الذي على الصراة في العتيقة . فما زال على دابته ذاهباً جائياً منفرداً عن الناس يفكر . (قال) وكان في الدير راهب عالم فقال لي : لِمَ يذهب الملك ويجيء ؟ قلت : انه يريد ان يبني مدينة . قال : فما اسمه ؟ قلت : عبد الله بن محمد . قال : ابو مَن ؟ قلت : ابو جعفر . قال : هل يلقب بشيء ؟ قلت : المنصور . قال : ليس هذا الذي يبنيها . قلت : ولِمَ ؟ قال : لانّا قد وجدنا في كتاب عندنا نتوارثه قرناً عن قرن ان الذي يبني هذا المكان رجل يُقال له « مقلاص » . (قال) فركبت من وقتي حتى دخلت على المنصور ودنوت منه فقال لي : ما وراءك ؟ قلت : خيرٌ القيه الى امير المؤمنين واريحه من هذا العناء . فقال : قُلْ . قلت : امير المؤمنين يعلم ان هؤلاء معهم علم . وقد اخبرني راهب هذا الدير بكذا وكذا . فلما ذكرت له «مقلاص» ضحك واستبشر ونزل عن دابته فسجد واخذ سوطه واقبل يذرع به . فقلت في نفسي : لحقه اللجاج . ثم دعا المهندسين من وقته ، وامرهم بخط الرماد . فقلت له :

---

١) راجع خصوصاً ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨٠-٦٨١ ؛ وابن الجوزي : ك . م . ص ٨ ؛ وابن العبري : ك . م . ، ص ٢١١ ؛ والطبري : تاريخ الرسل والملوك (طبعة de Goeje) ليدن ١٨٨٠ ، ٣ : ٢٧٥

اظنك ، يا امير المؤمنين ، اردت معاندة الراهب وتكذيبه . فقال : لا والله . ولكني كنت ملقباً بمقلاص . وما ظننت ان احداً عرف ذلك غيري . وذلك اننا كنا بناحية الشراة ، في زمان بني امية ، على الحال التي تعلم ، فكنت انا ومن كان في مقدار سني من عمومتي واخوتي نتداعى ونتعاشر . فبلغت النوبة اليّ ، يوماً من الايام ، وما املك درهماً واحداً ، فلم ازل افكر واعمل الحيلة الى ان اصبت غزلاً لداية كانت لهم . فسرقته ثم وجّهت به فبيع لي واشتُري لي بثمنه ما احتجتُ اليه . وجئت الى الداية وقلت لها : افعلي كذا ، واصنعي كذا . قالت : من اين لك ما ارى ؟ قلت : اقترضت دراهم من بعض اهلي . ففعلت ما امرتها به . فلما فرغنا من الاكل وجلسنا للحديث طلبت الداية الغزل فلم تجده ، فعلمت اني صاحبه . وكان في تلك الناحية لصّ يقال له مقلاص مشهور بالسرقة . فجاءت الى باب البيت الذي كنا فيه ، فدعتني ، فلم اخرج اليها لعلمي انها وقفت على ما صنعت . فلما الحّت وانا لا اخرج قالت : اخرج ، يا مقلاص ! الناس يتحذّرون من مقلاصهم ، وانا مقلاصي معي في البيت ! فمزح معي اخوتي وعمومتي بهذا اللقب ساعة ثم لم اسمع به الا منك الساعة . فعلمت ان امر هذه المدينة يتم على يدي لصحة ما وقفت عليه.»[1]

افتكون هذه الاسطورة من اختراع الرواة ؟ ام تكون صحيحة النسبة الى الراهب ؟ فيكون هذا ، وقد عرف قصد امير المسلمين في النزول هناك ، وتحقق اسمه واسم ابيه وكنيته ولقبه ، رأى ان يخترع هذه الحكاية فينسب الى كتابٍ قديم أن لا يبني المدينة الا رجل اسمه بعيدُ البعدَ كلّه عن اسم الخليفة المذكور ، لعله بذلك يصرفه عن البناء في تلك البقعة ، فيبعد المسلمين عن الدير . . . فيكون المنصور ، والحالة هذه ، اشدّ دهاء من الراهب اذ يستفيد من القصة ويخترع اسطورةً اخرى تُتمم اسطورة الراهب ناسباً الى نفسه لقب مقلاص . . .

ومهما يكن من امر الاختراع هذا فقد تمّ بناء المدينة على يد المنصور .

---

١) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨١-٦٨٢ ؛ وابن الطِقطَقي : الفخري (طبعة Derenbourg ، باريس ١٨٩٥ ، ص ٢١٧ - ٢١٨

فأمر اولًا ان يخطّ رسمها بالرماد مع ابوابها وبناياتها وسورها. وان يكون تصميمها على شكل دائرة تامة «لئلا يكون بعض الناس اقرب الى السلطان من بعض.»[١] ومؤرخو العرب يفتخرون بهذه الهندسة التدويرية، ويرددون على اثر الخطيب البغدادي: «لا يُعرف في اقطار الدنيا كلها مدينة مدوّرة سواها.»[٢] ولعلهم معذورون لكونهم لم يسمعوا بغيرها من المدن على هذا التصميم. اما الحقيقة فهي ان «اقطار الدنيا» عرفت كثيرًا من المدن المدوَّرة، بل ان ذاك القُطر نفسه الذي اختاره المنصور عرف تدوير المدن منذ القديم. كما تفيدنا الآثار التاريخية واللغوية، وهي ما سنستند اليه في الجواب عن هذا السؤال:

ابن اخذ المنصور فكرته في الاستدارة؟

لنا في الجواب طريقان كما قدّمنا: طريق تاريخي، وطريق لغوي.

اما التاريخ فيفيدنا عن مدن كثيرة بناها الحثّيون والميديّون على تصميم مستدير، حتى ان مثال المدينة الحثّية المحصنة يظهر على شكل الاسوار المستديرة الواحد بعد الآخر تحيط بالمركز او النقطة المتوسطة؛ كما افادتنا الحفريات في موقع مدينة زنجرلي عند اقدام الامانوس[٣]، وفي موقع قادش في تل النبي مَند في سهل حمص[٤]، وكذلك في موقع كركميش على الفرات مكان جرابلس. وان الملاحظ المدقق ليجد في تصميم كركميش الشكلَ المستدير في الاصل ثم الميلَ به الى التربيع[٥].

واذا انتقلنا الى الميديين، ارباب ميدية او بلاد فارس، نرى شاهدًا واضحًا على استدارة المدن في تأسيس عاصمتهم المدعوّة اكبتان، القائمة مكانها اليوم مدينة همذان. فان هيرودوت المؤرخ يذكر ان ديجوسيس ملك الميديين

---

١) كذا، في ابن العبري: ك. م. ص ٢١١.

٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (طبعة Salmon) ص ١

٣) اطلب تصميم المدينة في E. Pottier, *L'art hittite*, 3° art. [*Syria*, II, 1921, pl. III, fig 41]

٤) اطلب في ذلك *Syria*, III, 1922, p. 89ss

٥) Pierre Lavedan, *Histoire de l'Architecture urbaine*, Paris, 1926, p. 59

« حتّم على ابناء رعيته ان يتركوا منازلهم ، ويبنوا مدينة يقيمون فيها. فبُنيت المدينة على اكمة . وكان يحيط بها سبعة اسوار مستديرة لا يعلو واحدها عن الآخر الا بمقدار المشارف المصبوغة بالوان مختلفة : من ابيض ، واسود ، وارجواني ، وازرق ، واحمر ، وفضي ، وذهبي. وجعل الملك قصره وبيت ماله (او كنوزه) داخل السور الاخير . اما البيوت فكانت بين سائر الاسوار . . . »[1] (انتهى كلام هيرودوت).

قلنا : اوَ لا يكون احد مهندسي المنصور من الفرس اتى بهذه الفكرة من بلاده ؟ ولا سيما اذا انتبهنا لأوجه الشبه البارزة بين المدينتين ومنها ان « دار السلام » كان لها سوران مستديران ، وان الرعية كانت تسكن بين هذين السورين ، وليس ضمن السور الداخلي الا قصر المنصور ، والجامع ، ودوائر الحكم.

ثم هناك الطريق اللغوي ؛ وقد يؤدي بنا الى نتيجة اقرب من هذه.

عرفنا ان بين القرى والمزارع والديرة التي كانت قائمة مكان بغداد مدينة قديمة اسمها « الكرخ » ، وقلنا ان لفظة « الكرخ » او « الكرك »[2] تعني المدينة المحصّنة باللغات الآرامية[2]. على اننا اذا فتّشنا عن اصل المعنى في اللفظة ، فاننا نرى ان الكرخ = كَرْخا ܟܪܟܐ اسم من فعل كَرَخ او كَرَكْ ، ܟܪܟ ومعناه احدق بالشيء ، واحاط به ، واستدار بجوانبه . وفي كل مشتقاته معنى الإحاطة ، والطواف ، واللف. وبهذه المعاني جميعها استُعملت اللفظة في الاسفار المقدسة[3] . فيكون من ثَمّ معنى الكرخ المدينة المحصنة وبالتالي المستديرة السور.

---

١) نقله عن تاريخ هيرودوت (I, 98) لافيدان في كتابه المقدم ذكره : Lavedan, *op. cit.*, p. 63

٢) ومن هذا الاصل اسماء بعض القرى اللبنانية والسورية ، المدعوّة « بالكرك ».

٣) ومن معاني ܟܪܟܐ الملفّ من الكتب ، او المجلّد الملفوف ، لان المجلّدات كانت في ما مضى ، قبل عهد الطباعة ، تُلفّ لفّاً . وشبه هذا الاصل اللغوي معروف في لفظة volume الفرنسية المشتقة من اللاتينية volumen من فعل volvere = لَفّ . ومن معاني ܟܪܟܐ ايضاً

ولنا شاهد آخر على هذا المعنى في اسم احد الانهر المحيطة بتلك البقعة على شكل يقرب من نصف الدائرة، واسمه، حتى في الآثار العربية جميعها، «نهر كرخايا» . ولا يخفى ان كرخايا ܟܪܟܝܐ السريانية معناها «الالتفافي» ، او المحيط والمستدير او ما يشبه معنى «التحويطة»

أفلا يكون المنصور رأى استدارة تلك المدينة ، او سمع بها ، او سأل عن معنى الكرخ ، فأُفيد ، فافتكر بالمدينة المدوّرة ؟

دار السلام

وقد استعان على تحقيق فكرته باشهر مهندسي العصر من فرس وآراميين وعرب ، منهم الحجاج بن ارطاة ، وابو حنيفة النعمان بن ثابت. واستحضر الصنّاع والعملة والنجّارين والحدّادين والحفّارين من الشام والموصل وجبل خُراسان والكوفة وواسط ، « وكتب الى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئاً من امر البناء » .[1] حتى بلغوا الالوف . فاس ببدء العمل سنة ٧٦٢ م. ووضع اول لبنة بيده قائلاً : « بسم الله ، والحمد لله ، والارض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين . » ثم تتابع الشغل فكانوا يضربون اللبن ويطبخون الآجرّ ثم يبنون. وقد حفظ لنا ابن الجوزي[2] وغيره شيئاً من المعلومات في هذا الشأن قال : ان ابا حنيفة كان يعدّ اللبن بالقصب . . . وكانت اللبنة ذراعاً في ذراع ، ووُزنت لبنة فكانت مائة وسبعة عشر رطلاً .[3]

على ان هذا العمل لم يغنِ المنصور عن طلب الأنقاض ومواد البناء . وكانت المدائن ، عاصمة الاكاسرة ، قريبةً منه على مسيرة يوم ، وفيها القصر

الزنّار ، نظرًا لالتفافه واستدارته . وقد حفظت اللغة العامية في بعض مناطق لبنان المتأثرة باللغة السريانية هذا المعنى في اللفظة « الكَرَكَّة » التي يسمّون بها الإبريق ، او آلة التقطير ، لما فيها من استدارة الانابيب والتفافها بعضها حول بعض .

١) الخطيب البغدادي : الكتاب المذكور ، ص ١

٢) ابن الجوزي : ك . م . ص ٨

٣) بالرطل البغدادي ، وسنقدّر وزنه عند كلامنا عن اسعار الحاجيات ، بُعيد هذا .

الابيض المشهور ، وإيوان كسرى . فاستشار خالد بن برمك في نقض تلك البنايات ونقل انقاضها الى بغداد . فقال خالد : لا ارى ذلك . فلم يسمع له المنصور وقال : أبيت الا الميل الى اصحابك الاعاجم . ثم امر بنقض القصر الابيض . فهُدم قسم منه . وأُخذ بنقل انقاضه الى موقع بغداد . ولكن سرعان ما انتبه المنصور ، وهو المالي المدقق المقتصد[1] ، لنتيجة هذا العمل ، فرأى ان نفقات النقض ونقل المواد الى بغداد تزيد على نفقات عمل اللبن ، فترك النقض .

وامر ان يجعل عرض السور الخارجي منَ اسفله خمسين ذراعاً ومن اعلاه عشرين ذراعاً . فكان في كل سافٍ مائة الف لبنة واثنتان وستون الف لبنة ، على ما نُقل عن رباح البنّاء ، وكان ممن يتولى البناء . هذا في اسفل السور . ولما وصلوا الى الثلث لطفوا الساكة فصيّروا الساف مائة الف لبنة وخمسين الف لبنة . فلما جاوزوا الثلثين لطفوا الساكة ايضاً ، فجعلوا في الساف مائة واربعين الفاً[2] . ثم بنى سوراً ثانياً داخلياً . واحاط المدينة بخندق . وجعل لها اربعة ابواب : باب خراسان الى الشرق الشمالي ، وباب الكوفة ناحية الحجاز ، وباب الشام ناحية المغرب ، وباب البصرة ناحية الاهواز وواسط واليمامة والبحرين (اطلب التصميم في الرسم ١) . ولم يضع عليها ابواباً من عمل صنّاعه ، انما نقل ابوابها من الخارج ، فوضع على باب خراسان باباً جيء به من الشام « من عمل الفراعنة »[3] ، وعلى باب البصرة باباً جيء به من واسط وكان الحجاج قد اخذه من مدينة اسمها زَنْدَوَرْد « يزعمون انها من بناء سليمان بن داود »[4] ، واقام على باب الكوفة باباً جاء به من الكوفة من عمل خالد القسري ، وعمل هو

---

١) في كتب المؤرخين كثير من الحوادث تدلّ على اقتصاد المنصور بل على بخله ، وعلى تنبّهه لطرق جمع المال . منها ما ذكره ابن العبري مما يصلح ان يكون مثالاً لموزّعي الضرائب قال : « امر المنصور بعدّ دور اهل الكوفة ، وقسمة خمسة دراهم على كل دار . فلما عرف عددهم جباهم اربعين درهماً اربعين درهماً . » (ابن العبري : ك . م . ٢١٢) .

٢) ابن الجوزي : ك . م . ٩ — ١٠

٣) ياقوت : ك . م . ؛ : ٦٨٤

٤) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨٤ ؛ وابن الجوزي : ك . م . ١٠ ؛ والخطيب ك . م . ص ١٢

باباً لباب الشام ، « وهو اضعفها »[١] وكلها من الحديد كل باب منها فردان[٢] . وجعل على الابواب القبب والابراج ، وفيها الحرّاس . وكان على رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح .[٢]

اما مساحة هذه المدينة فيمكننا معرفتها بما يُذكر من انه كان بين الباب والآخر مسافة ميل[٣] . والميل يعادل ٤,٠٠٠ ذراع سوداء او مأمونية ، وهذه تقرب من نصف متر . فتكون المدينة صغيرة بالنسبة الى ما ستصير اليه بغداد الكبرى بعد المنصور ، كما سنرى .

وبنى المنصور داخل السور الثاني ، وسط المدينة ، جامعاً ، والى جنبه دار الخلافة ، المعروفة « بقصر الذهب » او « بالقبة الخضراء » لانه بنى فوق الايوان قبةً عالية ذات لون اخضر بلغ علوّها ثمانين ذراعاً ، وعلى رأسها صنمٌ على صورة فارس في يده رمح[٤] .

هذا ما يتفق المؤرّخون على ذكره دون ان يشكّ احدٌ منهم في صحته . واذا احتجوا فانما يحتجون على الخرافة العالقة بذلك الصنم ، لا على وجود الصنم نفسه . اما كيف امكن خليفة المسلمين ، وهم المشهورون بالامتناع عن تمثيل الكائنات الحيّة بالرسم والتصوير فضلاً عن النحت والتجسيم ، ان يُقرّ هذا العمل ويسمح بوضع تمثال على قبة قصره ، فهو ما يحار فيه المطالع لاول وهلة . على ان الامر لا يظهر مستحيلاً ، اذا ما عرفنا ان بغض الاسلام السني لمظاهر تصوير الكائنات الحية ، واهتمام الائمة بتحريم هذا التصوير لم يتقدّما العصر العباسي . بل ان ذلك المجرى التحريمي قد يكون من نتائج تأثير العقائد التلمودية في الحديث الاسلامي ، ولم يسبق هذا التأثير العصر الذى يهمنا امره[٥] . فضلاً عن

١) الخطيب : ك. م. ص ١٤ ؛ ياقوت ك. م. ١ : ٦٨٤

٢) الخطيب : ك. م. ص ١٢

٣) ابن الجوزي : ك.م. ص ٩ ؛ والخطيب ك. م. ص ٨

٤) الخطيب : ك.م. ص ١١ ؛ ابن الجوزي : ك.م. ص ١١ ؛ ياقوت : ك.م. ١ : ٦٨٢

٥) اطلب في ذلك الملاحظات الدقيقة التي اوردها حضرة الاب لامنس في بحثه النفيس :
P. H. Lammens, *L'attitude de l'Islam primitif en face des arts figurés*, dans *Etudes sur le siècle des Omayyades*, Beyrouth, 1930, p. 351-389

ان هناك حتى في العصر العباسي ، بل في ما بعد العصر العباسي ، مظاهر عدة لتمثيل الاشخاص والحيوانات ، منها في بغداد نفسها ، ما مُثِّل على رؤوس قبب الابواب في « دار السلام » ، كما تقدّم في الصفحة السابقة ؛ وما مُثّل حول « بركة الشجرة » في دار المقتدر كما سنرى[1] . وخصوصاً ما مُثّل في اعلى الباب المعروف «بباب الطِلّسم» المبني سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١م) على عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسي (١١٨٠–١٢٢٥) كما يظهر من الكتابة الظاهرة فوق الاثر[2] . وقد نشرنا صورة هذا الاثر ، عن ستزيغوسكي[3] ، لاهميته في تاريخ الفنّ الاسلامي ، وذلك انه يمثّل ، في رأي علماء الآثار ، الخليفة الناصر نفسه ، وعلى رأسه تاج محاطٌ بهالة ، وهو جالس القرفصاء بين تنّينين مجنحين مذنَّبين ، وقد فغرا فيهما واخرجا لسانَيهما فقبض عليهما الخليفة[4] .

واذًا فان يكن من شكٍّ في صحة رواية الصنم ، فلا يكون هذا الشكّ مستندًا الى المبادئ الدينية .

اما الخرافة التي حاكتها مخيّلة العامة حول هذا الصنم ، وتجاوزت الى المؤرخين ، فخلاصتها ان الخليفة كان ، اذا رأى ان ذلك الصنم قد استقبل بعض الجهات ومدّ الرمح نحوها ، علم ان احد الخوارج يظهر من تلك الجهة . فلا يطول الوقت حتى ترد عليه الاخبار بان خارجياً قد نجم من تلك الجهة[5] . وقد

---

١) اطلب الصفحة ٩٨ من هذا البحث .

٢) اطلبها مع ترجمتها الى الفرنسوية في Massignon, *op. cit.*, p. 47-48

٣) Strzygowski, *Asiens bildende Kunst*, Augsburg, 1930, fig. 282

٤) اطلب وصفاً مختصرًا لهذا الاثر في Strzygowski, *op. cit.*, p. 645 ووصفاً مطوّلًا في Van Berchem, *Amida*, Heidelberg, 1910, p. 82 ss. et fig 31, p. 83 وايضاً في Hartmann et Sarre, *OLZ*, 1905, p. 277 ss., 541 ss. ; 1906 p. 173 ss. هذا وان تمثيل التنّينين المتقابلَين معروف على كثير من الابواب المشهورة المبنيّة في القرن الثالث عشر ، من ذلك واجهة « باب حلب » في ديار بكر ، وباب قلعة حلب ، وباب جامع « چفته مناره » في ارضروم . (اطلب Van Berchem, *op. cit.*, p. 83 et 84 و Strzygowski, *op. cit.*, p. 292) . ومن ذلك ما وجده حضرة الاب ريته موترد على احد ابواب حمص فتفضّل علينا بصورته ، فنشرناها ، لاول مرّة ، تحت صورة « باب الطلسم » .

٥) ابن الجوزي : ك. م. ١١–١٢ ؛ الخطيب : ك. م. ١١

نقل ياقوت هذه الخرافة وفندها بقوله :

« هو من المستحيل والكذب الفاحش . وانما يُحكى بمثل هذا عن سحرة مصر وطلسمات بليناس التي اوهم الاغمارَ صحتها تطاولُ الازمـان والتخيُّلُ ان المتقدمين ما كانوا بني آدم . فاما الملة الاسلامية فانها تجلّ عن هذه الخرافات. فان من المعلوم ان الحيوان الناطق مكلَّف الصنائع لهذا التمثال لا يعلم شيئاً مما يُنسب الى هـذا الجماد ولو كان نبياً مُرسلًا . وايضاً لو كان كلما توجهت الى جهة خرج منها خارجي لوجب ان لا يزال خارجي يخرج في كل وقت لانها لا بد ان تتوجه الى وجه من الوجوه . والله اعلم . »[1]

ويتفق من سبق ذكرهم من المؤرخين على القول ان تلك القبـة الخضراء سقطت «يوم الثلثاء لسبع خلون من جمادى الاخرى سنة تسع وعشرين وثلثمائة» اي في ٩ اذار ٩٤١ بعد ان مرّ على بنائها نحو مائة وثمانين سنة.

ولم يكد المنصور ينتهي بناء المدينة في السنة ٧٦٦ حتى نقل اليهـا دوائره المتعدّدة فاقام اربابها في البنايات الداخلية ، اي ضمن السور الـداخلي . وجعل الرعية بين السورين . ولم يكن يؤذن لهم في تجاوز السور الا نهـار الجمعة للصلاة في جامع القصر . فكانت مدينتـه مثالًا للمدن المحصّنـة في القرون الوسطى . وقد دعاها « دار السلام » وتُسمى ايضاً « مدينة السلام ». وللمؤرخي العرب اختلاف في اشتقاق هذا الاسم ، وبعضهم ينسبون المدينة الى نهر دجلة المدعو « نهر السلام » . على اننـا نرى ان المنصور دعاهـا تفاؤلًا بما ورد في القرآن عن الجنة اذ يدعوها « دار السلام » في قوله :« لهم دار السلام عنـد ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون . »[2] « والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم . »[3] ولا يخفى ان بعض المسلمين كانوا يجعلون الفردوس الارضي في اربعة مواضع منها بغداد ، والثلاثة الاخر هي غوطـة دمشق ، والابلّة ، وشعب بوّان في بلاد فارس.

ولكن اسم دار السلام لم ينتشر بين الناس ، على مـا يظهر ، ولم يكد

١) ياقوت : ك.م. ١ : ٦٨٣

٢) القرآن ٦ [الانعام] ١٢٧

٣) القرآن ١٠ [يونس] ٢٦

يتجاوز الَّا قليلًا الوثائق الرسمية والنقود . اما العامة فانها ظلت تدعو المدينة بغداد وبغداذ وبغدان ، والمؤرخون والشعراء كذلك . يدل على الامر الشعر العباسي بجمله وكتب التاريخ كلها ، وما نُقل عن موسى بن عبد الحميد النسائي قال : كنت جالساً عند عبد العزيز بن ابي روّاد فاتاه رجل فقال له : من اين انت ؟ فقال له : من بغداد . فقال : لا تقُل بغداد ، فان بغ صنم وداد اعطى . ولكن قل مدينة السلام . فان الله هو السلام والمدن كلها له[1].

ودعيت بغداد ايضاً المنصورية والزوراء . اما المنصورية فنسبة الى المنصور . واما «الزوراء» فاسم يراه ستريك محرّفاً عن الفارسية[2] . ويراه مؤرخو العرب مأخوذاً عن ازورار ابوابها الداخلية ، او عن ازورار القبلة في الجامع الكبير على الضفة الشرقية ، او عن ازورار نهر دجلة فيها[3].

نفقات البناء

لمؤلفي العرب تقديرات متنوعة لما تكلفه المنصور في بناء مدينته ، قد لا يخلو اكثرها من المجازفة . ولعل اقربها الى المعقول ما نقله ياقوت من ان هذه النفقات بلغت ثمانية عشر الف الف دينار[4] اي ١٨ مليوناً من الدنانير . ويهمنا ان نعرف قيمة الدينار وما يعادل في عصرنا كي يمكننا ان نتصوّر مبلغ هذه النفقات ، فنحكم فيها .

كان الدينار يزن شرعاً ٤,٢٥ غرامات[5] ، وقيل بل كان يزن ٤,٤ الى ٤,٧ غرامات من الذهب بعيار ٧٦٧ من الالف على الاقل . وهو ما يعادل في عصرنا ١٤,٥٠ فرنكاً ذهبياً او ٧٢ فرنكاً ورقاً على التقريب[6] ، اي ما يقرب من ٣٦٠

---

١) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٧٨

٢) Streck, *loc. cit.*, p. 575

٣) راجع في ذلك ; Le Strange, *op. cit.*, p. 11 ; Salmon, *op. cit.*, p. 94, note 2 ; Massignon, *op. cit.*, p. 98

٤) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨٢

٥) T. V. Zambaur, *Dinār*, [*Encyclop. de l'Islam*, I, 1002]

٦) Massignon, *L'influence de l'Islam au Moyen Age sur la fondation et*

غرشاً لبنانياً سورياً. فاذا اعتبرنا هذه المادلة بلغت نفقات البناء ما يقرب من ثلاثة عشر مليوناً ونصف المليون من الليرات الفرنسوية ذهباً.

وهو معقول لان اليد العاملة لم تكن، اذ ذاك، من الرخص بحيث نتصوره اليوم، وان كانت الحاجيات تبدو رخيصةً بالنسبة الى عصرنا. ولنا في روايات المؤرخين ادلة كافية على الامرين.

فقد ذكر الخطيب ان الاستاذ من الصناع كان يعمل يومه بقيراط الى خمس حبات[1]، اي ما يدور حول ١٨ الى ٣٠ غرشاً لبنانياً سورياً، والروزجاري اي البنّاء، يعمل بحبّتين الى ثلاث حبات او ما يعادل نصف اجرة الاستاذ تقريباً.

وذكر المصدر نفسه[1]، في ما خصّ اسعار الحاجيات، ان الكبش كان يباع بدرهم، اي ما يقرب من ٣٦ غرشاً لبنانياً سورياً[2]، والحمل[3] باربعة دوانيق[4] اي بثلثي الدرهم = ٢٤ غ. ل. س. والتمر ستين رطلاً[5] بدرهم،

---

l'essor des banques juives. [Extr. du *Bullet. d'études orientales* de l'Inst. franc. de Damas, t. I] p. 6, note 4

١) الخطيب: ك. م. ص ٦ – كانت الحبة تعادل ثُلث القيراط. اما القيراط فهو في الاصل ٢٠/١ من الدينار، الا ان قيمته كانت تعلو وتهبط فتارةً كان يعادل ٢/١ درهم وطوراً ١٢/١ من الدرهم. اطلب Sauvaire. *Matériaux pour servir à l'histoire de la métrologie et de la numismatique arabes*, I, p. 102

٢) نعتبر ان الدرهم كان يعادل، في اوائل العهد العباسي، اي في الزمن الذي يعنينا امره، عشر الدينار. وذلك قبل ان تسقط قيمة الفضة فيبلغ الدينار عشرين الى اثنين وعشرين درهماً، على عهد الرشيد. اطلب Massignon, *op. cit.*, p. 7, note 1. على ان زمبور يرى ان الدرهم، حتى في اوائل الاسلام، كان يعادل جزءاً من عشرين من الدينار T. V. Zambaur, *Dirhem* [*Encyclop. de l'Islam*, I, 1005-1006]. ويستند سلمون، جارياً على اثر سوفير، ان الدينار كان يعادل في زمن المنصور ١٤ درهماً: Salmon, *op. cit.*, p. 82; Sauvaire, *op. cit.*, supplément p. 203

٣) وفي ياقوت: الجمل، وهو خطأ مطبعي. ٤) الدانق = سدس الدرهم.

٥) اي الرطل البغدادي ووزنه ٣٩٧,٢٦ غراماً. اطلب Sauvaire, *op. cit.*, II, p. 181 ويرى زمبور ان رطل الوزن، وهو الليبرة، كان يعادل ٣٢٧,٤٥ غراماً. اطلب Zambaur, *Kirāṭ* [*Encyclop. de l'Islam*, II, 1083]

والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم ، والسمن ثمانية ارطال بدرهم . وزاد في خبر رفعه الى ابي نعيم الفضل بن دكين قال : كان يُنادى على لحم البقر في جبّانة كندة تسعين رطلاً بدرهم ، ولحم الغنم ستين رطلاً بدرهم ...

كانت اسواق المدينة في اول الامر بين السورين حتى حصل ما غيّر رأي المنصور في ذلك[1] . فأمر سنة ٢٧٣ باخراج الاسواق الى ما وراء السور الخارجي وجعلها في محلة الكرخ ، جنوبي دار السلام ، على تصميم خطّه بيده ، وحققه على نفقته ، ورتّب كل صنف منها في موضعه ، وقال : « اجعلوا سوق القصابين في آخر الاسواق ، فانهم سفهاء وفي ايديهم الحديد القاطع . » ولعلّ لهذا القول صلة بحكاية يوردها المؤرخون وخلاصتها ان المنصور ، قبل اخراجه الاسواق ، بينا كان يستقبل وفد ملك الروم ، سمع صرخة قوية تحت القصر ، ثم صرخة ثانية وثالثة ، فامر ان يُنظر في الامر . فقيل له : « يا امير المؤمنين ، بقرة قُرّبت لتذبح فغلبت الجازر وخرجت تدور في الاسواق . »[2]
ولعلّ الارجح في سبب نقل الاسواق والعامة الى الكرخ ما ذكره الخطيب من ان المنصور كان قد « ولّى الحسبة يحيى بن زكريا ، فاستغوى العامة وزيّن لهم الجموع فقتله ابو جعفر بباب الذهب — اي باب قصر المنصور — وحوّل اسواق المدينة الى باب الكرخ وباب الشعير وباب المحوّل . »[3]

ثم امر المنصور بتوسيع الطرق في مدينة السلام « وجعلها على اربعين ذراعاً ، وامر بهدم ما شخص من الدور عن ذلك القدر . »

ولما كان لا بد من المياه ، امر فمدّت الى دار السلام قناة من نهر دُجيل الآخذ من دجلة ، وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات ، و« جرّتا في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالصاروج والآجرّ من اعلاها . فكانت كل قناة منها تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والارباض وتجري صيفاً وشتاءً لا ينقطع ماؤها في وقت . »[4]

---

١) راجع ابن الجوزي : ك.م. ص ١٣ — ١٤؛ والخطيب : ك.م. ص ١٨ — ١٩
٢) الخطيب: ك.م. ص ١٨ ٣) الخطيب: ك.م. ص ٢٠
٤) الخطيب: ك.م. ص ١٩

وكذلك زاد الاقنية او « الانهر » التي كانت تصل الى محلة الكرخ وغيرها من ضواحي المدينة. وقد ذكر الخطيب خمسة منها مستحدثة، فضلاً عن القديمة السابقة عهد المنصور كنهر كرخايا ونهر عيسى وغيرهما، قال: « وجرّ لاهل الكرخ وما اتصل بها نهرًا يقال له نهر الدجاج وانما سُمي بذلك لان اصحاب الدجاج كانوا يقفون عنده؛ ونهرًا يقال له نهر القلائين حدَّثنا من ادركه جارياً يلقي في دجلة تحت الفرضة؛ ونهرًا يسمى نهر طابق؛ ونهرًا يقال له نهر البزّازين، فسمعت من يذكر انه توضأ منه؛ ونهرًا في مسجد الانباريين رأيته لا ماء فيه » . ويزيد الخطيب عن هذه الانهر في زمانه، اي في القرن الحادي عشر[1] : « تعطلت هذه الانهار ودرس اكثرها حتى لا يوجد له اثر . »[2] وقد اجتهد لوسترانج في تمثيلها مستندًا الى الآثار القديمة فخطّط التصميم الذي نشرناه في الرسم ٢. الا ان ماسينيون، بعد ان اقام متنبّاً في بغداد وجوارها مدة خمسة اشهر من اوائل السنة ١٩٠٨، يرى ان اتجاه الانهر على شكل نصف دائرة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي في الكرخ، كما يظهر في خارطة لوسترانج، لا يوافق مستوى الارض في بغداد. بل ان ماسينيون يميل الى موافقة ستريك في تخطيط نهر عيسى على خط مستقيم حتى مصبه في دجلة[3].

اما اسواق الكرخ فكانت عديدة اشهرها، في ما يهمّنا، ما يكثر ذكره في كتب الادب كسوق الصاغة، والقيسارية اي سوق الحرائر والانسجة النفيسة، وسوق الثلاثاء، وسوق الريحانيين، وسوق العطارين[4]، وسوق الصفّارين، وسوق الصيارفة، وسوق القرّانين، وخصوصاً دار البقل، التي كانت تقابل ما نعرفه اليوم « باسواق الخضرة »، ودار البطيخ التي لم تكن تقتصر على بيع البطيخ وحده بل تباع فيها الفواكه بجملتها[5] . يدل على ذلك ان الناس سموا « دار

---

١) عاش ابو بكر احمد بن ثابت الخطيب البغدادي من ٣٩٢ الى ٤٦٣هـ. (١٠٠٢–١٠٧١)

٢) الخطيب: ك. م. ص ١٩–٢٠

٣) Massignon, *Mission en Mésopotamie..*, II, p. 119

٤) ذكرها ماسينيون كلها مرجّحاً انها لم تزل في محلها القديم Massignon, *Mission...*, II, 90-93

٥) ابن الطقطقى: الكتاب المذكور، ص ٢٢٦؛ وياقوت: ك. م. ٢: ٥١٧

البطيخ » قصيدة ابن الرومي النونية الطويلة التي مطلعها :

اجنت لك الوصل اغصانٌ وكُثبانُ فيهنَّ نوعان تفاحٌ ورمّانُ

والتي يكثر فيها من ذكر الفواكه. ويدل على ذلك ايضاً قول ابن لنكك في هجو ابي الهيذام كلاب بن حمزة :

انت ابن كل البرايا ، لكن اقتصروا على اسم حمزة ، وصفاً غير تشبيهِ
كدارَ بطيخَ تحوي كل فاكهةٍ وما اسمها الدهرَ الا دارُ بطيخِ (١

وقد كانت هذه الدار اولًا في مدينة السلام في درب الاساكفة ، ودرب الزيت ، ودرب العاج ، ثم نقلت الى الكرخ في ايام المهدي ، على قول الخطيب[٢]. مما يدل على ان الاسواق لم تُنقل كلها دفعةً واحدة الى الكرخ ، وهو معقول خصوصاً اذا انتبهنا الى ان المنصور لم يعش طويلًا بعد مباشرته بناء الكرخ ، فقد توفي في السنة ٧٧٥.

وبعد ان اهتم المنصور ببناء الاسواق في الكرخ باشر بناء قصر له خارج سور دار السلام مما يلي باب خراسان في الشرق الشمالي ، على شاطئ دجلة في محل دير نسطوري قديم . وقد سماه « الخلد » « تشبيهاً بجنة الخلد لما حوى من العجائب . »[٣]

هذا ما يهمنا امره من الابنية في الجانب الغربي من بغداد . ومما يجدر بالذكر ان المنصور لم يتجاوز قط في ابنيته الضفة الغربية ، رامياً الى ان يبقى نهر دجلة بينه وبين الفرس.

عسكر المهدي او الرصافة

اما الجانب الشرقي فمن اشهر ابنيته واقدمها الرصافة او عسكر المهدي كما دُعيت اولًا . وذلك ان المهدي قدم من الري في السنة ٧٧٠ في جيش اكثره من الفرس ، فرأى المنصور ان يقيمهم ما وراء النهر . فارسل الى ابنه ان

١) الثعالبي : يتيمة الدهر ، دمشق ١٣٠٤ هـ. (١٨٨٦) ٢ : ١٢٣

٢) الخطيب : ك.م. ص ٢٢ – واطلب في « دور البطيخ ببغداد ودمشق في عهد العباسيين » بحثاً لحبيب زيات في المشرق (٢٧ [١٩٢٩] ٧٦١-٧٦٥)

٣) ابن الجوزي : ك.م. ص ١٢

يعسكر هناك. وبدأ ببناء المدينة الجديدة مع قصر وجامع، واجرى اليها الماء، كما فعل في دار السلام والكرخ. ثم اتمها المهدي بعد وفاة والده وبنى سورها ومسجدها وحفر خندقها سنة ٧٧٥، وظل مقيماً فيها. وكانت دار السلام — بعد ان هجرها المنصور منتقلاً الى قصر الخلد، ثم لم ينزلها المهدي مكتفياً بقصره في الرصافة، ثم اعرض عنها الرشيد مقيماً في الخلد — قد اخذت بالانحطاط والخراب شيئاً فشيئاً بسرعة غريبة، مما يدلّ على انه لم يكن يسكنها الا ارباب الدوائر من الموظفين.

وكان يصل بين الضفتين ثلاثة جسور، على قول ابن الجوزي[1]، عقدها المنصور، واحدٌ منها للنساء خاصة، وواحد عند باب الشعير. وكلها خشبية على السفن المتصلة احداها بالاخرى. ثم زادت على عهد الرشيد فصارت خمسة وكان الجسران الجديدان في ناحية الشماسية، حيث دور البرامكة. ثم تعطل اثنان في الثورة على الامين فبقي ثلاثة. ثم تعطل اثنان آخران فلم يبقَ في زمان المسترشد (١١١٨ — ١١٣٥) الا جسر واحد عند نهر عيسى. وقد وصف ماسينيون، في بعثته الى ما بين النهرين، السنة ١٩٠٨، ثلاثة جسور: اولها في الشمال بين الكاظمين والاعظمية، وهو خارج عن مدينة بغداد الخالية، وثانيها الجسر المتوسط في الكرخ، وهو المقصود في اقوال المؤرخين والكتاب اذا ما قالوا «الجسر»، على الاطلاق، وثالثها في الجنوب في ناحية قراره او كرار، وكلها خشبية على السفن[2]. وفي المدينة اليوم جسران احدهما محدّد[3]. هذا عدا الجسر الشمالي بين الكاظمين والاعظمية او المعظّم.

ولم يكن قصد المنصور، على ما يظهر، ان يبني مدينةً ذات اهمية عالمية، بل قد تكون غايته الاولى ان يقيم معسكراً لجنوده من الخراسانيين فيبعدهم عن الكوفة. ولهذا نراه يوزّع كل ما اتصل بمدينته من الاراضي بين انسبائه ورجاله ومواليه. وكذلك فعل عند بناء الرصافة فاقطع رجاله كل الاراضي

١) ابن الجوزي: ك.م. ص ٢٠

٢) Massignon, *Mission...*, II, 89

٣) *Les guides bleus*, p. 479

القائمة حول البناء . وتبعه على ذلك ابنه المهدي . وقد ترك لنا اليعقوبي لائحة بهذه الاقطاعات ترجمها سلمون الى الفرنسوية[١]

بغداد بعد المنصور

ثم تتابع البناء على الضفتين في زمن المهدي والهادي والرشيد . فقام قصر زبيدة ، امرأة الرشيد ، قرب قصر الخلد ؛ واتسع الكرخ باسواقه المتعددة حتى بلغ نهر عيسى فاصبح النهر المذكور حدًّا جنوبيًّا للمدينة بينا كان باب قطربل يحدّها شمالًا ، واقعاً في حيّ الحربية العامر وبقربه اقطاع السيدة زبيدة زوجة الرشيد . وفي الغرب كانت المدينة تتصل بالمحوّل . اما في الشرق فكانت تحدّها دجلة . وقامت في الضفة الشرقية قصور البرامكة في حي الشماسية ، واشهرها قصر جعفر تجاه الخلد ؛ تفصل بينهما دجلة . وجذب البرامكة كثيرًا من القوم ، كبارًا وصغارًا ، الى المعيشة في جوارهم فتتابعت البنايات في الضفة الشرقية من الشماسية الى دار الروم ، الى المخرِّم ؛ حتى اصبحت الرصافة في اوائل عهد الرشيد تضارع المدينة الغربية سعةً وازدهارًا . وكان لها من الشمال ثلاثة ابواب شهيرة : باب الشماسية ، وباب البَرَدان ، وباب خراسان[٢] . ومن مشاهير سكان المدينة الشرقية الفضل بن الربيع ، وكان مجاورًا للفضل بن يحيى في الشماسية ، كما يُستخلص من احدى روايات الاغاني[٣] .

واخذ البرامكة يبالغون في مظاهر الترف متأثرين بتلك الحضارة الفارسية المتأنقة التي ادخلوها دار الخلافة العباسية وصبغوا بها مجالي الدولة الجديدة جميعها فباهوا بتعلية القصور ، ورفع الشرفات والقبب ، وتضخيم الابواب ، والاكثار من الحجاب ، والمنافسة في الرياش الفاخر والمقتنيات الثمينة من جماد وحيوان . ولم يكن من اللائق ان يقلّ الخليفة عنهم بذخاً ، بل لم يكن من

١) Salmon, *op. cit.*, p. 70-73

٢) يجب التمييز بينه وبين الباب القديم في مدينة المنصور المدوّرة المدعو ايضاً باب خُراسان .

٣) ابو الفرج الاصبهاني : كتاب الاغاني ، بولاق ١٢٨٥ (١٨٦٨) ، ٥ : ٢

اللائق ان يساويهم ، فبزّهم في كل شيء . وجرى على اثرهم كبار القوم . ووافق ذلك ازدهارٌ في التجارة والصناعة ، وتوفّقٌ في الغزوات ، فحياة رخاء وسعة ومال كثير يتدفق الى بغداد ، والى رجال الدولة منها خاصة ، من جميع انحاء تلك الامبراطورية الواسعة . حتى اصبحت بغداد في مجالي مدنيّتها ورخائها وترفها وملاهيها وحركتها المتواصلة اعظم مدينة في العالم الاسلامي ، وقد لا نكون مبالغين اذا زدنا : بل اعظم مدينة في العالم اذ ذاك ؛ وهو ما سنشير اليه اذ نعرض لاحصاء سكان بغداد ، في آخر هذا الدرس ، وما سنتبسّط فيه في بحث مقبل نخصّه بذكر الشعوب المختلفة التي كانت تتعايش في هذه المدينة العظيمة . انما نكتفي الآن بالاشارة الى شيء من هذه المظاهر المدنية والترفية مما افاض به الشعراء . فمن ذلك قول ابي صفوان الاسدي ، مشيرًا الى تلك الصروح الشامخة :

واضحت بغدان في مترلٍ له شرفاتٌ دوينَ السما
وجيشٌ ، ورابطةٌ حوله غلاظ الرقاب كأسد الشرى
بايديهم محدَّثات الصقال سُريجيَّةٌ يختلينَ الطُلى (١

وقول عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير يصف طيب الحياة في بغداد وما في دجلتها من السفن الشامخة :

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين ، على تقلّبها في كلّ ما حين ،
ما بين قُطْرَبُلَ فالكرخ نرجسةٌ تندى ، ومنبت خيريّ ونسرين ،
تحيا النفوسُ بريّاها اذا نفحت وحرّشت بين اوراق الرياحين .
سقيًا لتلك القصور الشاهقات ، وما تخفي من البقر الأنسية العين ؛
تستنّ دجلةُ فيما بينها ، فترى دهم السفين تعالى كالبراذين ،
مناظرٌ ذات ابوابٍ مفتّحة أنيقة بزخاريف وتزيين ،
فيها القصور التي تهوي باجنحة بالزائرين الى القوم المزورين ،
من كل حرّاقةٍ يعلو فقارتها قصرٌ من الساج عالٍ ذو اساطين (٢

وفي وصف الحراقات في دجلة بيتان لابي نواس قالهما عندما امر الامين ان يُعمل له ، في سبيل لهوه ومسرّته ، خمس حرّاقات على صور الاسد والفيل

١) القالي : الامالي (طبعة دار الكتب المصرية) القاهرة ١٩٢٦ ، ٢ : ٢٣٧
٢) ياقوت : ك م . ١ : ٦٨٦ — ٦٨٧

والعقاب والحية والفرس . فعُملت وسُيّرت في دجلة ، وركب الامين في حرّاقة الاسد . فقال ابو نؤاس :

عجب الناسُ ، اذ رأوك على صو رة ليث تمرُّ مرَّ السحاب .
سبّحوا ، اذ رأوك سرت عليه ، كيف لو ابصروك فوق العُقاب!(١

نكبات بغداد

على ان هذا الازدهار العجيب توقف فجأة بسبب تلك الفتنة الهائلة التي حدثت بين الامين والمأمون ، بل بين العرب والفرس ، فقاست بغداد حصارها الاول سنة ٨١٢ ، مدة اربعة عشر شهراً ، فكان شديد الوطأة على الجانبين . وكان المأمون قد سيّر لحصار اخيه جيشاً انقسم قسمين : قسماً حاصر الجانب الشرقي بقيادة هرثمة بن أعيُن ، فعسكر قرب باب خُراسان المذكور آنفاً ، وقسماً حاصر الجانب الغربي بقيادة طاهر بن الحسين فاحتلّ الابواب الغربية واخذ يتقدّم شيئاً فشيئاً . اما الامين فالتجأ الى المدينة المدوَّرة وتحصَّن فيها ، حتى اذا يئس من الظفر خرج ليلاً من باب خراسان وركب سفينة قاصداً معسكر هرثمة على الجانب الشرقي ، فعُرف ، فأُمسك ، وقتل .

فكان من نتائج هذا الحصار ان نُكبت بغداد نكبة عظيمة فخربت احياء برمّتها ولاسيا في الرصافة والشماسية ، وكانت قصور البرامكة في هذا الحي قد انتقلت ، بعد ايقاع الرشيد بهم سنة ٨٠٣ ، الى الخلافة ، وقصر جعفر الى المأمون خاصة . ومما زاد المصيبة على بغداد ان الرعاع اعملوا يد النهب والتخريب والحريق في المدينة ، اثناء حرب الاخوين ، وبعد مقتل الامين . فاحترقت دور الحكومة وقصور الامين الخاصة .

ولم يتمكن المأمون من ترميم المدينة حالاً بعد انتصاره ، لانه ظل في خراسان ، ولم يدخل بغداد الا بعد مقتل اخيه بخمس سنوات .

وكان ، اثناء ذلك ، قد اعلن سنة ٨١٧ انه بايع بولاية العهد امام العلويين ، علي الرضا ابن موسى الكاظم . فنقم عليه العباسيون في بغداد وخلعوه وبايعوا

١) ابن العبري : ك . م . ص ٢٢٣

عمه ابراهيم بن المهدي المشهور بالغناء ، ولقبوه « المبارك » . الا انــه لم يكن مباركاً في خلافته القصيرة . وهو لم يهتمَّ في حيــاته الا بالشرب وضرب العود والغناء ، فاين منه ضبط الاحكام ؟

وكان افراد الجيش وغوغاء العامة قد اعتادوا النهب والتخريب فلم يغيّروا عادتهم ، فظلّت الفوضى سائدة في المدينة . وليس ما يشير الى ان اهل بغداد اهتموا الاهتمام الكافي بهذا الخليفة الجديد . بل قد لا نبعد عن الصواب اذا قلنا انهم نادوا به غيظاً للمأمون ، ورغبةً في الشغب ليس غير . يدل على ذلكَ ما اورد صاحب الاغاني من حديث رفع الى اسحق مفاده ان ابراهيم بن المهدي بويع وقد قلّ المال عنده . « وكان قد لجأ اليه اعراب من اعراب السواد وغيرهم من اوغاد الناس فاحتبس عنهم العطاء . فجعل ابراهيم يسوّفهم ولا يرون له حقيقة . الى ان خرج اليهم رسوله يوماً ، وقد اجتمعوا وضجوا ، فصرّح لهم بانه لا مال عنده . فقال قوم من غوغاء اهل بغداد : « اخرجوا الينا خليفتنا يغني لاهل هذا الجانب ثلاثة اصوات ، ولاهــل هــذا الجانب ثلاثة اصوات ، فتكون عطاء لهم ... » [1] وكفى بهذا القول دليلاً على روح التهكم في اهل بغداد ، وعلى انهم لم يقيموا وزناً لهذا الخليفة الجديد . ومن الادلة ايضاً انه عندما مات علي الرضا ، في السنة التاليــة ، وكتب المأمون الى اهل بغداد قائلاً : « انما نقمتم عليَّ بسبب علي الرضا وقد مات ... » ثاروا على ابراهيم بن المهدي فخلعوه ، فهرب واختفى . ولم ينل بغداد من خلافته الا مزيد فوضى ، وتتابع خراب .

على عهد المأمون

وفي ١٥ صفر سنــة ٢٠٤ للهجرة الموافق الى ١١ آب ٨١٩ دخــل المأمون بغداد ، فنزل الرصافة اولاً [2] واقام في قصره على شاطئ دجــلة ، وهو قصر

---

١) الاغاني ١٨ : ٤٢ — ومن هذا النوع قول دعبل في هجوه ابراهيم :
خليفةٌ مصحفهُ البربَطُ

٢) اطلب : ابو الفضل احمد بن ابي طــاهر طيفور : الجزء الســادس من كتاب بغــداد (نشر Keller) ليبسك ١٩٠٨ ، ص ٢

جعفر القديم المعروف بالقصر « الجعفري » ، و«الشطي» ، ثم « المأموني ».

فرمّه ووسّعه ، « واقتطع جملةً من البرية عملها ميداناً لركض الخيل واللعب بالصوالجة ، وحَيّزاً لجميع الوحوش ، وفتح لــه باباً شرقياً الى جــانب البرية ، واجرى فيه نهراً ساقه من نهر المعلّى . وابتنى مثلــه قريباً منه منــازل برسم خاصته واصحابه سُميت المأمونية »[1].

ثم انتقل المأمون الى قصر الخلد ، واهتم بترميم عاصمته ، وتموينها ، فضلاً عن اساليب اللهو والسرور ، بكتب العلم والادب مما افاض به المؤرخون . حتى بلغت بغداد في عصره درجةً ساميةً من الازدهار انستها النكبات السابقة. فكثرت الثروات فيها ، وانغمس اربابها في الترف انغماساً شديداً . ولعلنا نرى شاهداً على هذا في وصف عرس المأمون ، اذ عُقد له على بوران بنت الحسن بن سهل سنة ٨٢٥ ، نختصر ذلك عن المؤرخين ولا سيما المسعودي[2].

كان الحسن بن سهل ، ابو العروس ، يقيم في فم الصلح ، وهي بلدة على ضفة دجلة بالقرب من واسط . فانحــدر المأمون في النهر مع اهله واصحــابه وامرائه وبعض جنده . وحل ضيفاً على الحسن تسعة عشر يوماً حتى كان ميعاد العرس . فخرج الناس لحضوره ، بطريق النهر ، حتى قيل ان عدد المــلاحين في السفن التي كانت تنقل الناس بلغ عشرة آلاف وقيل : بل كان ستة وثلاثين الفاً . هذا عدا الزوارق والسفن الخاصة .

« ونثر الحسن في ذلك الاملاك (العرس) ما لم ينثره ولم يفعله ملــك قط في جاهلية ولا اسلام. وذلك انه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع واسماء جوار وصفات ودواب وغير ذلك . فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة فيجــد على قدر اقباله وسعوده فيها . فيمضي الى الوكيل الذي نُصب لذلك ، فيقول له : ضيعة يُقال لها فلانة من طسوج كذا من رستــاق كذا . وجارية يُقال لهــا

---

١) ياقوت : ك . م . ١ : ٨٠٧

٢) المسعودي : مروج الذهب (طبعة Barbier de Meynard) ٧ : ٦٥–٦٦

فلانة . ودابة صفتها كذا وكذا . ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر . وانفق على المأمون وعلى جميع قواده واصحابه وسائر من كان معه من جنوده ايام مقامه عنده حتى المكارين والملاحين والحمالين ، وكل من ضمّه عسكره من تابع ومتبوع ومرتزق وغيره . فلم يكن احد الناس يشتري شيئاً في عسكر المأمون مما يطعم ولا مما تعلفه البهائم .»

هذا بعض ما انفقه الحسن بن سهل . عدا ما انفقه المأمون . ومهما يكن من مبالغة فان الاحتفال بهذا العرس ، واهتمام الناس به على اختلاف طبقاتهم لدليل على الرخاء الذي كانت تتمتع به الدولة اذ ذاك . وكان من جملة تقادم المأمون أن اهدى الى عمه قصره المأموني ، قصر جعفر القديم ، فعُرف من ثم « بالقصر الحسني » . وقد انتقل هذا القصر الى بوران بعد وفاة ابيها فاقامت فيه حتى خلافة المعتمد على الله(٨٧٠–٨٩٢) فطلبه منها ، فاصلحته واهدته اليه .

الانتقال بالخلافة الى سامرا

وولي الخلافة بعد المأمون اخوه المعتصم فكان من آثاره في بغداد انه شق نهر موسى . ولكن لم يقم فيها طويلاً ، حتى اخذ اهل المدينة يتشكون من جنوده من الترك ، وقد كثروا حتى بلغوا السبعين الفاً فكانوا يؤذون الناس . فرأى المعتصم ان يبعدهم عن المدينة . فانتقل بهم ، وبارباب دوائره ، الى محلة تبعد ثلاثة ايام عن بغداد صعوداً على ضفة دجلة ، فبنى فيها مدينة سامرّا او سُرَّ من رأى ، التي صارت عاصمةً للخلافة مدة ٥٦ سنة (٨٣٦-٨٩٢) فاقام فيها ثمانية خلفاء .

اما بغداد فكان يحكمها الولاة في تلك المدة . وكان اكثرهم من اسرة طاهر بن الحسين . ولا يظهر ان انتقال الخلافة والدوائر الرسمية منها أثر كثيراً فيها من حيث التجارة وازدهار الاعمال .

نكبات جديدة

على ان انتقال الخلافة لم يكن ليجعل بغداد بمعزل عن الحركات الثورية وما تجرّه عادة من ملمّات ونكبات متنوّعة . من الحق ان الجيش التركي وما

يتعلق به من مرتزقة وشذاذ وغوغاء ، وطبقات الحاشية التركية جميعها ، كانت قد انتقلت مع الخليفة فسلمت بغداد نوعاً من نتائج فوضاها المباشرة . الا انها لم تسلم من تأثير هذه الفوضى ، عندما كانت تقوى في سامرّا فتتجاوز الى الثورة . كما حصل في السنة ٨٦٥ ، اذ ثار الجيش على المستعين (٨٦٢-٨٦٦) ، ولم يكن ذلك الا مظهراً من مظاهر استبداد الاتراك بالخلفاء البادي منذ عصر المعتصم (٨٣٢ - ٨٤٢) . فهرب الخليفة ليلاً ، وانحدر الى بغداد . فبايع الخدم في سامرّا المعتز بالله . فكان من اول اعمال الخليفة الجديد ان جهّز جيشاً لمحاصرة بغداد والظفر بالمستعين . وكان حصار بغداد الثاني ، مؤدياً الى ما ادّى اليه الحصار الاول من خراب وحريق ونهب . وكأن الله خصّ الجانب الشرقي بتحمّل القسط الاوفر من النكبات فخربت محلات الشماسية والمخرّم .

ثم تتابعت الثورات المتنوّعة في بغداد فدامت الفوضى اكثر من ثلاث سنوات (٨٦٦-٨٦٩) بين ظهور وخفوت .

اما في سامرّا فاخذت رقابة الاتراك على الخلفاء تشتدّ وطأة شيئاً فشيئاً . حتى كره المعتمد على الله (٨٧٠-٨٩٢) ان يظلّ في تلك البيئة الفاسدة ، فعاد بالخلافة الى بغداد في آخر ايامه .

الرجوع من سامرّا

القصر الحسني ، والتاج ، والثريا

وكان قد طلب من بوران[1] ، ارملة المأمون ، ان تعطيه القصر الحسني الذي كان المأمون قد اهداه الى عمّه الحسن فانتقل اليها بعد وفاته . « فاستنظرت المعتمد[2] اياماً حتى رمّمته وبيّضته وجصّصته وفرشته باجمل الفرش واحسنه .

١) عاشت بوران ٧٦ سنة (٨٠٨-٨٨٤) وتزوّجها المأمون سنة ٨٢٥ ، كما تقدّم . وماتت في خلافة المعتمد المذكور فلم تدرك المعتضد (٨٩٢-٩٠٢) . واذا فلا صحة لما ذكره بعض المؤرخين من انها اهدت القصر الحسني الى المعتضد . انما اهدته الى المعتمد ، كما ذكرنا اعلاه .

٢) لا المعتضد كما اورد الخطيب : ك . م . ص ٤٨ ، ونقل عنه ابن الجوزي : ك . م .

وعلّقت اصناف الستور على ابوابه وملأت خزائنه بكل ما يُخدم الخلفاء به . ورتّبت فيه من الخدم والجواري ما تدعو الحاجة اليه.»[1] ثم اهدته الى المعتمد فكان يقيم مدة فيه ومدة في سامرّا حتى انتقل اليه نهائياً . ومات فيه.

ووليه المعتضد بالله (٨٩٢–٩٠٢) ثم ابنه المكتفي (٩٠٢–٩٠٨) . وكانا من ارباب السطوة والهيبة ، ومن الراغبين في البناء والعمران . فقضت بغداد في عصرهما عهد راحة وطمأنينة واستعادت ماضي ازدهارها .

وكان من آثار المعتضد ان وسّع القصر الحسني واضاف اليه دوراً عديدة ، واقتطع قسماً من البريّة فجعله ميداناً . واحاط الجميع بسور . ثم وضع أساس قصر آخر سمّاه « التاج » . وكان ان خرج الى آمد في اثناء حفر الاساسات . فلما عاد « رأى الدخان يرتفع الى الدار ، فكره ذلك » وترك التاج . ثم اختطّ على ميلين منه ، على نهر موسى ، قصراً جديداً دعاه « الثريا » . ووصله بالقصر الحسني بواسطة سرداب معقود تحت الارض تمشي فيه الجواري والحرم والسراري . وجعل حول الثريا الجنان الزاهرة تترقرق فيها المياه ، على نحو ما وصف ابن المعتز في قوله :

سلمت ، امير المؤمنين ، على الدهر ! فلا زلت فينا باقياً واسع العمر !
حللت الثريا خير دار ومنزل ، فلا زال معموراً ، وبورك من قصر ! ...
جنان واشجار تلاقت غصونها ، واورقن بالاثمار والورق الخضر ،
ترى الطير في اغصانهنّ هواتفاً تنقّل من وكر لهنّ الى وكر ...
وبنيان قصر قد علت شرفاته كصفّ نساء قد تربّعن في الأُزر
وانهار ماء كالسلاسل فجّرت لترضعَ اولاد الرياحين والزهر
وميدان وحش تركض الخيل وسطه فيؤخذ فيها ما يشاء على قدر ...
عطايا اله منعم كن عالماً بانك اوفى الناس فيهنّ بالشكر. [2]

وظلّ القصر قائماً حتى فاضت دجلة فيضاناً قوياً سنة ٤٦٦ هـ. [3] (١٠٧٣–

ص ١٥ ؛ على انها اشارا الى الرأي الآخر القائل ان المعتضد طاب القصر.

١) الخطيب : الموضع المذكور ؛ وياقوت : ك. م. ١ : ٨٠٨

٢) ابن المعتز : الديوان (طبعة الانسي) ، بيروت ١٣٣١ (١٩١٣) ص ١٢٨–١٢٩

٣) ابن الجوزي : ك. م. ص ١٧

١٠٧٤) وهو « الغرق الاول » كما يدعوه ياقوت[1] ، فاحدثت خراباً عظيماً في بغداد ، وكان من جملة ذلك خراب الثريا .

اما التاج فقد اتمّ بناءه المكتفي بالله (٩٠٢-٩٠٨) ابن المعتضد ، بواجهة مبنية على « خمسة عقود كل عقد على عشرة اساطين خمسة اذرع »[2] . وكان المعتضد قد امر بنقض القصر الابيض الكسروي في المدائن ، ذلك الذي باشر نقضه المنصور ثم اقلع ، فنُقضت مشارفه ووُضعت في الاساس . ثم نُقض ما تبقّى منه ، على عهد المكتفي ، ووُضعت آجرّه في مشارف التاج . وكان يتولى العمل رجل اسمه ابو عبد الله النقري ، فاعتبر هذا الامر وبكى ، على ما اورد ياقوت ، وقال : « ان فيما نراه لمعتبراً : نقضنا شرفات القصر الابيض وجعلناه في مسناة التاج ، ونقضنا اساساته فجعلناها شرفات آخر . فسبحان من بيده كل شيء حتى الآجر . »[2]

وبنى المكتفي الى جنب القصر قبة دُعيت قبة الحمار « لانه كان يُصعد اليها في مدرج حولها على حمار لطيف ، وهي عالية مثل نصف الدائرة . »[2]

فكانت هذه البنايات من اعاجيب بغداد . وبقيت كذلك مدة قرنين ونصف حتى كانت السنة ٥٤٩ هـ . (١١٥٤) ، في عهد المقتفي لامر الله (١١٣٦-١١٦٠) ، فوقعت صاعقة على القصر فتأججت النار فيه وفي القبة « وبقيت تعمل تسعة ايام . ثم اطفئت وقد صيّرته كالفحمة . »[2]

بعد المكتفي بالله ارتقى عرش الخلافة المقتدر بالله (٩٠٨-٩٣٢)[3] . وكان ، على ضعف سلطته تجاه تأثير الخدم النافذ[4] ، وافر الرغبة في مظاهر الاناقة والترف . فزاد في زينة دار الخلافة زيادةً عجيبة قد يفوق وصفها

١) ياقوت : ك . م . ١ : ٨٠٨ ٢) ياقوت : ك . م . ١ : ٨٠٩

٣) تخلل خلافته خلافةُ ابن المعتز يوماً واحداً ، بل بعض يوم ، سنة ٩٠٨ ، وخلافة القاهر يومين سنة ٩٢٩

٤) من الامثلة على هذا التأثير ما يذكر ابن العبري في تاريخ السنة ٣١٧ هـ . (٩٢٩) : « وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة خُلع المقتدر بالله عن الخلافة ، وبويع اخوه القاهر بالله محمد ابن المعتضد فبقي يومين . ثم اعيد المقتدر . وكان السبب في ذلك استيحاش مونس الخادم . » (ابن العبري : ك . م . ص ٢٧٢-٢٧٣)

وصف قصور الاساطير والحكايات . وقد نقل لنا الخطيب البغدادي تفصيل مظاهر هذه الفخفخة عند ذكره وفد الروم القادم على المقتدر. واننا نستند اليه في الاشارة باختصار الى ما كان في دار الخلافة من مظاهر الابهة . من ذلك « دار الفيلة » فيها اربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي. و« دار السباع » فيها مائة سبع. وبستان في وسطه « بركة رصاص قلعي حواليها نهر رصاص قلعي احسن من الفضة المجلوّة ، وطول البركة ثلاثون ذراعاً في عشرين ذراعاً ، فيها اربع طيارات لطاف مذهبة مزيّنة بالدبيقي المطرّز . » وفي البستان اربعمائة نخلة طول كل واحدة خمس اذرع. و« دار الشجرة » وفيها « شجرة في وسط بركة كبيرة مدوّرة فيها ماء صافٍ . وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضّضة . واكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهّب. وهي تتمايل في اوقات ، ولها ورق مختلف الالوان يتحرك كما تحرّك الريح ورق الشجر . وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر . »[1] ويزيد الخطيب ذاكراً تماثيل الفرسان القائمة حول البركة ، وهو يؤيّد ما قلناه سابقاً عند ذكر صنم « القبة الخضراء »[2]. وهذا كلامه بنصه: « وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً قد البسوا الديباج وغيره . وفي ايديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد ، فيظنّ ان كل واحد منهم الى صاحبه قاصد . وفي الجانب الايسر مثل ذلك . »[3] الى ما هنالك من مخازن السلاح ، وانواع الفرش والبسط الفائقة ، والرياش الفاخر ، وكثرة الخدم والغلمان وتنوّع مراتبهم واختصاصاتهم حتى لقد كان في دار الخلافة سبعة آلاف خادم : اربعة آلاف بيض ، وثلاثة آلاف سود ، وسبعمائة حاجب ، وكان عدد الجيش مائة وستين الف فارس وراجل[4] . الى غير ذلك من آلات الابهة ومظاهر العظمة ممّا حار به موفدا الروم فخلب لبهما كما يُستخلص من الوصف الطويل الذي خصه المؤلف بتلك الوفادة[5] .

---

١) الخطيب : ك . م . ص ٥٢–٥٤ ٢) راجع ص ٨١
٣) الخطيب : ك . م . ص ٥٤ ٤) الخطيب : ك . م . ص ٥١
٥) الخطيب : ك . م . ص ٤٩–٥٦ . — اما الموفدان فكانا البطريق جان راديئوس

وقد لا نكون مخطئين اذا قلنا ان عصر المقتدر كان ، كعصر الرشيد والمأمون ، من اعظم العصور عائدةً على بغداد من حيث ازدهارها ، واتساع حركتها ، ووفرة مظاهر البذخ والترف فيها[1] .

على ان للمدن ، كما للافراد والشعوب ، سني نعيم وسني شقاء ، وعصور ازدهار وعصور انحطاط . وقد مرّ بنا ذكر شيء مما توالى على بغداد من النوائب . وكان لها ان تقاسي شيئاً من ذلك ايضاً بعد عصر المقتدر . فقد تعدّدت مظاهر الشغب ، ولاسيما في الجيش ، وما يليها من نهب وحريق ، حتى ضعُفت الخلافة شيئاً فشيئاً منذ عصر الراضي (٩٣٤—٩٤٠) فقويت شوكة الخدم وازداد نفوذهم ، بل اصبحوا الحكام المطلقين . فامتدّ الانحلال في عناصر السلطة الاصلية ، وكثرت الفوضى والفتن الداخلية والنكبات ، مما مهّد السبيل لدخول البويهيين بغداد سنة ٩٤٦ ؛ فتشعّبت السلطة ، وتعدّدت بلاطات الملوك والامراء ، وفي كل منها طائفة من الادباء . فلم تبقَ بغداد تلك العاصمة الادبية العظمى ، بل انحطت الى درجة غيرها ، بل الى احطّ من درجة غيرها من العواصم التي تقسّمت مظاهر الادب العربي منذ القرن العاشر . ولا يدخل في بحثنا هذا درس بغداد بعد ذاك العصر[2]

وميشال توكاراس ، اوفدهما الامبراطور قسطنطين پورفيروجينيت في طلب المهادنة والفداء . فاحسن المقتدر وفادتهما ، واجابهما الى رغبة الامبراطور . اطلب ابن العبري : ك . م . ٢٧٠ ؛ و Salmon, *op. cit.*, p. 132, note 1,

١) وبينما كانت بغداد تتقدّم وتشيد ازدهارها بسرعة عجيبة ، كانت سامرّا تنحطّ وتتأخر بسرعة عجيبة كذلك . فبعد ان اوجدها المعتصم كبيرةً ضخمةً دفعة واحدة ، وبلغ بها المتوكل اسمى درجات الفخامة ، هبطت اذ انتقل عنها المعتمد هبوطاً عظيماً ، حتى لم يمضِ على ذلك الانتقال بضع عشرة سنة الا كان الخراب قد شمل اكثرها ، واخذ الناس يسلّون انقاض قصورها المتداعية « كالفيل المائت تُسلّ منه العظام » على قول ابن المعتزّ :

قد اقفرت سُرّ من را ، وما لشيء دوامُ !
فالنقضُ يُحمل منها ، كأنها آجامُ ،
ماتت ، كما مات فيلٌ تُسلّ منه العظامُ !

٢) يجد المطالع في بحثة ماسينيون Massignon, *Mission...*, p. 77-118 وصفاً اجمالياً لما تبقّى من آثار بغداد القديمة حتى السنة ١٩٠٨

عدد سكان بغداد

احصائيّات متنوّعة

كم كان يعيش من الناس في هذه المدينة العظيمة ؟

نُقرّ بكل بساطة ان مؤرخي العرب ، الذين حسبوا لنا كم دخل من لبِنة في كل ساف من سور مدينة المنصور ، وعدّوا الدنانير والدراهم المنفقة على بناء تلك المدينة ، وذرعوا كل ما بناه الخلفاء طولاً وعرضاً وارتفاعاً ، لم يكلفوا انفسهم القيام باحصاء معقول لسكان تلك المدينة . ولا يعني هذا ان ليس لدينا ارقام . . . ان الارقام لكثيرة حتى تدفعنا تلك الكثرة الى الارتياب والشك فالظن ان اربابها لا يقدّرون ماهيتها ، ولا ما تمثل في الحقيقة . وكل هذه الارقام ترجع الى خراب بغداد على يد هولاكو سنة ١٢٥٨ ، زمن انقراض الدولة العباسية ، وكانت العاصمة قد انحطت كثيراً عن عظمتها السابقة ، فدخلها التتار واعملوا السيف في اهلها . وهنا يتبارى المؤرخون في عدّ القتلى فيتجاوزون مئات الالوف الى الملايين ، متنقلين بين « ثمانمائة الف » ، « وما ينيف على الفي الف وثلثمائة الف وثلاثين الف نفس » لا اكثر ولا اقل[1] .

فاذا كان هذا عدد القتلى في بغداد ، آخر زمن الخلافة العباسية ، وقد خرب الكثير من احيائها بسبب الثورات والحرائق والمشاغبات المتتابعة . فكم وجب ان يكون عدد سكانها على عهد المأمون او المقتدر ؟

فواضحٌ اذاً ان هذا الاحصاء غير معقول ، وان هذا القياس لا يمكن ان يؤخذ به .

على ان هناك قياساً آخر يُخيّل الى الدارس ، اول وهلة ، انه يمكن الاعتماد عليه . وهو عدد الحمامات والمساجد في بغداد ابان ازدهارها ، وقد عُني الخطيب بذكرها .

اما الحمامات فقد نقل الخطيب عمن قرأ في «كتاب بغداد» لطيفور الكاتب

١) اطلب في ذلك بحثاً دقيقاً لحبيب زيات : « المجازفة بالارقام في التاريخ » في المشرق (٣١ [١٩٣٣] : ١٦٦-١٦٧)

في القرن التاسع (+ ٨٩٣) انها كانت ستين الفاً . وزاد : « اقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر : حمّامي ، وقيّم ، وزبّال ، ووقّاد ، وسقّا . . يكون ذلك « ثلثمائة الف رجل » . ثم حسب كم يُنفق من الصابون فمن الزيت ليلة العيد[١] . . .

اما المساجد فذكر المؤرخ نفسه « انه يكون بازاء كل حمام خمسة مساجد ، يكون ذلك ثلثمائة الف مسجد . وتقدير ذلك ان يكون اقلّ ما يكون في كل مسجد خمسة انفس ؛ يكون ذلك الف الف وخمسمائة الف انسان . »[١]

٣٠٠,٠٠٠ شخص لخدمة الحمامات ، و ١,٥٠٠,٠٠٠ شخص لخدمة المساجد !

أوَ يمكن ان تتصوّر هذا في بغداد مهما كانت ضخمةً ، ومهما بلغ من رغبة اهلها في النظافة ، ومهما كان من تقواهم وشعورهم الديني . لا شك في ان الحمامات كانت عديدة لاسباب منها كثرة الغبار والعرق في تلك المنطقة الحارة ، ومنها الرغبة في التنعم والرفاهية ، ومنها فروض الاسلام الدينية من وضوء وتطهير . . . ولا شك في ان المساجد كانت عديدة كذلك ، بل كان من عادة الوزراء والكبراء ان يبنوا المساجد بدليل ما يُستخرج من قول مَن هجا البرامكة بريائهم وتظاهرهم بالدين الاسلامي على كفرهم الباطني ، قال :

ان الفراغ دعاني الى بناء المساجد
وان رأيي فيها كرأي يحيى بن خالد !

اما ان تبلغ الحمامات والمساجد الى العدد المذكور اعلاه فغير معقول . وما قولكم في مدينة يبلغ عدد خدمة الحمامات والمساجد فيها مليوناً وثمانمائة الف ! . . . أيجب ان يقلّ عدد سكانها عن الخمسين مليوناً ؟ . . . وهي ارقام اقرب الى الخيال والمجازفة منها الى العقل السليم .

ولعل عدد الحمامات كان يدور حول ثلاثة آلاف ، كما ذكر الخطيب نفسه في احدى رواياته المتعددة[٢] ، وقد يكون عدد المساجد قريباً من هذا الرقم .

وهناك احصاء آخر قد يقدّمنا بعض الشيء في تقدير عدد السكان ، وهو احصاء الاطباء . وتفصيل ذلك ان المتطببين كثروا في بغداد في اوائل القرن العاشر ، وكان فيهم عدد من الدجالين يجازفون بارواح العباد بل ان بعضهم سقى

١) الخطيب : ك . م . ص ٧٤-٧٥ ٢) الخطيب : ك . م . ص ٧٥

رجلًا دواء فاسدًا فمات الرجل . فأمر الخليفة ، إما المقتدر وإما القاهر ، بمنع جميعهم عن التطبيب الّا من امتحنه سنان بن ثابت (+ ٩٤٣) واعطاه تصريفاً . فصاروا اليه فامتحنهم وصرّف كلًّا منهم بما يصلح له . وقد بلغ ما اعطى من المأذونيات ثمانمائة وستين في جانبي بغداد . هذا عدا مَن استغنى بشهرته عن الامتحان ، وعدا من كان متعلقاً بخدمة السلطان . فاذا قدّرنا عدد هؤلاء الاطباء المشهورين قريباً من المائة والخمسين ، كان لنا في بغداد ، زمن ازدهارها ، نحو الف طبيب .

واذا اعتبرنا الآن مدينة بيروت ، وهي مشهورة بكثرة اطبائها ، رأينا ان عددهم فيها يبلغ ٢٦٥ طبيباً . اما سكان بيروت فيبلغون ، بحسب احصاء سنة ١٩٣٢ ، ١٦٠,٧٥٩ يُضاف اليهم كثير من سكان العاصمة الذين تقيّدوا في الجبل ، وعدد من الذين لم يحصوا . وعليه فاننا لا نبالغ اذا رفعنا هذا الرقم الى المائتي الف . فيكون فيها طبيب لكل ٧٥٤ شخصاً تقريباً . هذا في بيروت المشهورة بكثرة الاطباء . اما في بغداد العباسيّين فيمكننا بكل سهولة ان نقدّر طبيباً لكل الف شخص ، فيكون لنا مجموع من السكان يقرب من المليون . وهو معقول .

وقد نصل الى النتيجة نفسها اذا ما استندنا الى مساحة بغداد في ذاك العصر . وهنا لا بد من العودة الى الخطيب . فقد ذكر عدة روايات في مساحة عاصمة العباسيين ، منها رواية طيفور وخلاصتها ان مساحة بغداد كانت ، في القرن التاسع ، ٥٣,٧٥٠ جريباً . ورواية محمد بن يحيى البالغة بمساحة بغداد ٤٣,٧٥٠ جريباً[1] .

اما الجريب فيختلف مقداره باختلاف البلدان . وفي كتب اللغة ومجموعات المكاييل تقادير عديدة . منها انه كان يبلغ عشرة اقفزة والقفيز من الارض مائة واربع واربعون ذراعاً ، ومنها انه اربعة اقفزة ، ومنها انه عشرة آلاف ذراع ؛ وهذا الاختلاف ناتج عن ان الجريب كان مقياساً للكيل ، ثم قياساً للمساحة التي تتسع لبذار جريب من الحنطة . فخلط الناس بينهما وبين كر

١) الخطيب : ك . م . ص ٧٤

الكيل وكسر المساحة . ولعلّ الاقرب الى الصواب ما ذكره قدامة من ان الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع ، ويريد الذراع السوداء او المأمونية المربعة ، وقد تقدم لنا انها تعادل نحو نصف المتر.

فاذا اعتبرنا هذا المقدار للجريب وضربنا به العدد المذكور لمساحة بغداد عن طيفور كان لنا ٥٣,٧٥٠ × ٣,٦٠٠ = ١٩٣,٥٠٠,٠٠٠ ذراع مربعة . واذا حوّلناها الى امتار على حساب الذراع السوداء المتقدّمة الذكر كان لنا ٤٨,٣٧٥,٠٠٠ متر مربع[١] ، وهو ما يقرب من تقدير ستريك لمساحة بغداد في عهد المهدي ، اذ يقول انها كانت تبلغ من سبعة الى ثمانية كيلومترات في مثلها[١] .

هذا معدَّل ما ذكره طيفور (+ ٨٩٣) . ولا يخفى ان بغداد اتسعت بعد هذا العهد ، ولاسيا زمن المكتفي والمقتدر ، حتى اننا لا نخطئ اذا اضفنا الى تقديرنا وتقدير ستريك ثلث قيمته ، فتبلغ مساحتها من ٦٠ الى ٧٠ مليوناً من الامتار المربعة ، يخرج منها لا اقل من عشرة ملايين مساحة القصور والبساتين والشوارع والساحات العامة والمقابر . ثم اذا جعلنا للبيت الصغير المتسع لخمسة انفار فقط من ٣٠٠ الى ٤٠٠ متر مربع كان لنا ما يقرب من مائتي الف بيت مجموع سكانها نحو مليون نفس ، عدا ارباب القصور وحاشية الخلافة ، وهو معقول . وقد وصلنا الى مثل هذا التقدير في الاستناد الى عدد الاطباء .

هذا ومما يدل على سعة بغداد القديمة ووفرة عدد سكانها ان بغداد الخالية

---

١) لقد عرض الامير شكيب ارسلان لهذا الموضوع في مقال دعاه « مدينة السلام » وصف فيه تاريخ بغداد للخطيب (مجلة « الثقافة » دمشق ، العدد الاول : نيسان ١٩٣٣ ص ٤–١٥) فاعتمد الرواية الثانية القائلة بـ ٤٣,٧٥٠ جريباً ، واعتبر الجريب عشرة اقفزة ، والقفيز مائة واربع واربعين ذراعاً ، فكان له « ثلاثة وستون مليون ذراع مربع » (كذا في ص ٢) ثم اعتبر الذراع ثلثي المتر فطرح من قيمة المساحة ثلثها فكان له ٤٢,٠٠٠,٠٠٠ متر مربع . وفاته ان عملية الطرح هذه فاسدة ، لان الذراع البسيطة اذا كانت ثلثي المتر البسيط ، لا يمكن ان تكون الذراع المربعة ثلثي المتر المربع ، وهو من بديهيات علم الحساب . . . واذاً ، فتكون النتيجة انه بالغ في تصغير بغداد ، واعطاها مساحة لا يمكنها ان تسع « الثلاثة الملايين » التي يريد ان يجعلها فيها (ص ١٤) .

١) Streck, *loc. cit.*, p. 577

لا تحتل اكثر من ربع المساحة القديمة ، على كون سكانهـا يقربون اليوم من ثلثمائة الف . وكذلك ان مدينة الكاظمين التي كانت سابقاً في اطراف بغداد الكبرى تبعد عن بغداد اليوم نحو عشر دقائق بالسيارة .

وللقدماء شهادات عديدة على كثرة السكان في هذه المدينة الهائلة . من ذلك قول ابن الجوزي ان المجتاز كان « لا يخلص في سوق الكبش والاسد — وهما في اطراف المدينة — من كثرة الزحمة . »[1] وما رواه ياقوت عن عبد الملك ابن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ، انه قدم بغداد فرأى كثرة الناس بها فقال : « ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة الا ظننت ان الناس قد نودي فيهم . »[2]

واذاً فلا نستغرب ان يبدأ ياقوت مقاله عن بغداد بقوله : هي « أمّ الدنيا وسيدة البلاد . »[3] ولا نستغرب كذلك ان يسأل الامام الشافعي تلميذه يونس بن عبد الاعلى : « يا يونس دخلت بغداد ؟ » فيجيب يونس : لا . فيقول الامام : « يا يونس ، ما رأيت الدنيا ، ولا رأيت الناس ! »[4]

اما العناصر البشرية التي كانت تتعايش في هذه « الدنيا » ، فتتمازج ، وتتنافس ، وتتطاحن في سبل الحياة المتنوّعة ، فسنخصّ بدرسها بحثاً آخر ، ان شاء الله .

ملحق

رأينا ان نلحق بهذا البحث جدولين :

الجدول الاول باسماء الخلفاء العبّاسيين في الحقبة التي بحثنا درسها ، وهو معروض على مظهرين : ١ً حسب تسلسل خلافاتهم — ٢ً حسب تسلسل انسابهم

الجدول الثاني باسماء مؤرّخي بغداد عصراً فعصراً .

---

١) ابن الجوزي : ك . م . ص ٢٤

٢) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨٧

٣) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٧٧

٤) ابن الجوزي : ك . م . ص ٢٣

الجدول الاول

١ – الخلفاء حسب تسلسل خلافاتهم

١ السفّاح	٣٠ ت ١	٧٤٩ – ٧٥٤	الهاشمية
٢ المنصور	٩ حزيران	٧٥٤ – ٧٧٥	دار السلام
٣ المهدي	٧ ت ١	٧٧٥ – ٧٨٥	اتمّ الرصافة
٤ الهادي	٤ آب	٧٨٥ – ٧٨٦	قُتل
٥ الرشيد	١٥ ايلول	٧٨٦ – ٨٠٩	قصر جعفر
٦ الامين	٢٤ اذار	٨٠٩ – ٨١٣	حصار بغداد الاول ٨١٢ – قُتل
٧ المأمون(١	٢٦ ايلول	٨١٣ – ٨٣٣	دخل بغداد ٨١٩ – المأمونية
٨ المعتصم بالله(٢	٧ آب	٨٣٣ – ٨٤٢	قصر نهر موسى – سامرّا ٨٣٦
٩ الواثق بالله	٥ ك ٢	٨٤٢ – ٨٤٧	في سامرّا
١٠ المتوكل على الله	١٠ آب	٨٤٧ – ٨٦١	في سامرّا
١١ المنتصر بالله	١١ ك ١	٨٦١ – ٨٦٢	في سامرّا
١٢ المستعين بالله	٦ حزيران	٨٦٢ – ٨٦٦	عاد الى بغداد – الحصار الثاني ٨٦٦
١٣ المعتزّ بالله	٢٥ ك ٢	٨٦٦ – ٨٦٩	في سامرّا – قُتل
١٤ المهتدي بالله	١١ تموز	٨٦٩ – ٨٧٠	في سامرّا – قُتل
١٥ المعتمد على الله	٢١ حزيران	٨٧٠ – ٨٩٢	عاد الى بغداد
١٦ المعتضِد بالله	١٦ ت ١	٨٩٢ – ٩٠٢	الثريّا والتاج
١٧ المكتفي بالله	٥ نيسان	٩٠٢ – ٩٠٨	اتمّ التاج
١٨ المقتدر بالله(٣	١٣ آب	٩٠٨ – ٩٣٢	وفد الروم ٩١٧
١٩ القاهر بالله	٣١ ت ١	٩٣٢ – ٩٣٤	خُلع
٢٠ الراضي بالله	٢٤ نيسان	٩٣٤ – ٩٤٠	انحطاط الخلافة
٢١ المتقي لله	٢٣ ت ١	٩٤٠ – ٩٤٤	خُلع
٢٢ المستكفي بالله	١٢ ت ١	٩٤٤ – ٩٤٦	خُلع وقُتل ١٥ ك ٢ ٩٤٦

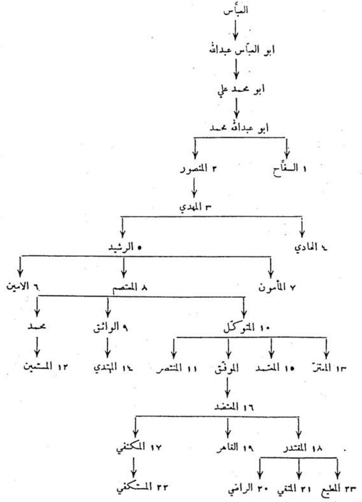
١) بينا كان لا يزال في خُراسان ، بويع في بغداد عمه ابراهيم بن المهدي ولُقّب « بالمبارك » (٢٤ تموز ٨١٧ – ١٨ ك ١ ٨١٨)

٢) بويع العباس بن المأمون في دمشق ٨٣٣ – وبايع العلويون محمد بن القاسم العلوي ٨٣٣

٣) تخلّل خلافته خلافة ابن المعتزّ « المُرتضى » يوماً واحداً (١٨ ك ١ ٩٠٨)، وخلافة القاهر يومين (٢٨ شباط ٩٢٩)

الجدول الاول

— الخلفاء حسب تسلسل انسابهم



الجدول الثاني

مؤرّخو بغداد

نذكر في هذا الجدول اشهر من كتب عن بغداد من مؤرّخين ، وجنرافيين ، ورحّالة ، ممن امكننا الوقوف على آثارهم :

القرن التاسع :

ابو الفضل احمد بن ابي طاهر طيفور : كتاب بغداد . لم يصل الينا منه الا الجزء السادس ، محفوظًا في المتحف البريطاني في لندن ؛ وقد نشره هنس كلّر بخطّه ، في ليبسك سنة ١٩٠٨ :

Dr H. Keller, *Sechster Band des Kitâb Baġdâd von* Aḥmad ibn abi Ṭâhir Ṭaifûr, Leipzig, 1908

البلاذُري : فتوح البلدان (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٦٦

ابن رُسته : الاعلاق النفيسة (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٩١

اليعقوبي : كتاب البلدان – في آخر كتاب ابن رسته ، في الطبعة المتقدم ذكرها .

ابن خُرداذبه : المسالك والممالك (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٨٩

قُدامة بن جعفر : كتاب الخراج وصنعة الكتابة : منتخبات منه في آخر كتاب ابن خُرداذبه ، في الطبعة المتقدم ذكرها .

ابن الفقيه الهمذاني : مختصر كتاب البلدان (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٨٥

الطبري : تاريخ الرسل والملوك (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٨٠

القرن العاشر :

المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر (طبعة Barbier de Meynard) باريس ، ١٨٧٧

الاصطخري : مسالك الممالك (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٧٠

ابن حوقل : المسالك والممالك (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٧٣

المقدسي : معرفة الاقاليم (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٧٧

ابو الفرج الاصبهاني : كتاب الاغاني ، بولاق ، ١٨٦٦

ابن النديم : الفهرست (طبعة Flügel) ليدن ، ١٨٧١

ابن مسكويه : كتاب تجارب الامم (طبعة Amedroz) مصر ، ١٩١٦

القرن الحادي عشر :

الهلال الصابئ : تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ؛ ويليه الجزء الثامن من تاريخه (طبعة Amedroz) بيروت ، ١٩٠٤

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد – نشر مقدّمة جورج سلمون في كتابه الآتي ذكره ، وهي وحدها تمسّنا في الموضوع الحالي . ثمّ نشر التاريخ في القاهرة ، ١٩٣١

القرن الثاني عشر :

ابن الجوزي : مناقب بغداد (طبعة الاثري) بغداد ، ١٣٤٢ هـ (١٩٢٣)

ابن جبير : رحلته (طبعة Wright) ليدن ، ١٨٥٢

القرن الثالث عشر :

ياقوت : معجم البلدان (طبعة Wüstenfeld) ليبسيك ، ١٨٦٦

ابن الاثير : الكامل ، مصر ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣)

ابن العبري : تاريخ مختصر الدول (طبعة صالحاني) بيروت ، ١٨٩٠

ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية (طبعة Derenbourg) باريس ، ١٨٩٥

القرن الرابع عشر :

ابو الفداء : تقويم البلدان (طبعة de Slane et Reinaud) باريس ، ١٨٤٠

ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (طبعة Defrémery et Sanguinetti) باريس ، ١٨٥٩

القرن التاسع عشر :

البستاني : دائرة المعارف : المجلد الخامس ، بيروت ، ١٨٨١

نابليون الماريني : نزهة العباد في مدينة بغداد ، بيروت ، ١٨٨٧

القرن العشرون :

G. Le Strange, *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, Oxford, 1900

Clément Huart, *Histoire de Bagdad dans les temps modernes*. Paris, 1901

G. Salmon, *L'introduction topographique à l'histoire de Bagdâdh d'al-Khaṭîb al-Bagdâdhi*, Paris, 1904

وانظر نقداً لهذا الكتاب بقلم دي غويه *J. As.*, 1904, p. 159-169

Habib Chiha, *La province de Bagdad*, Le Caire, 1908

L. Massignon, *Mission en Mésopotamie 1907-1908* [*Mémoires de l'Inst. français d'arch. orientale du Caire*, XXVIII, 1910 et XXXI, 1912]

M. Streck, *Baghdâd* [*Encyclop. de l'Islam, I*]

علي ظريف الاعظمي : مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث ، بغداد ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦)

ومن اراد زيادة معلومات عن مؤرخي بغداد من عرب وفرس وترك وافرنج فليه بلائحة واسعة في كتاب ماسينيون السابق الذكر المجلد ٢ : ٥٥-٥٦

اخبار

سفر المونسنيور فرنسيس پيكيت

الى بلاد ارمينية والعجم ١٦٨١—١٦٨٤

كتبها السيّد اثناسيوس سفر العطار السرياني اسقف ماردين ،
مرافق المسافر وترجمانه

نشرها الخوري اسحق ارملة السرياني

توطئة

منذ ربع قرن فنشرنا على صفحات « المشرق » الاغرّ (١١ [١٩٠٨] : ٥٦٣) ترجمة السيد اثناسيوس سفر العطّار ، مطران ماردين ، وأشرنا هناك (ص٥٦٩) الى كتابه هذا الذي ضمّنه اخبار رحلة السيد فرنسيس پيكيت الى بلاد ارمينية وفارس . وقلنا ان نسخة تلك الرحلة مصونة في المكتبة الواتكانية برومية تحت الرقم ٢٣٢ . ثم جاء الاب الفاضل القس بطرس سارة ، الراهب اللبناني ، فنشر على صفحات هذه المجلة عينها ، عام ١٩٢٥ ، ترجمة هذا الحبر القدّيس والقنصل والسفير الفرنسي المجيد ، وأشار الى صلات الاب سفر السرياني به ومرافقته اياه في رحلته من ديار بكر الى ارمينية وفارس.

مرّت الايام تلو الايام حتى قيّض الله تعالى لنا ان نزور عاصمة الكثلكة ، عام ١٩٣٠ ، ونحظى في دار كتبها الواتيكانية العامرة بهذا المخطوط الفريد النفيس . فنسخناه بالحرف نروم نشره . وهو مخطوط صغير الحجم يقع في ٢٠٨ صفحات طوله ١٢ س في عرض ١٠ س. كتبه مؤلفه القس سفر بالعربية بحروف كرشونيّة جميلة على ورق صقيل متين ، مكسوّة دفتاه بجلدٍ ابيض ، واورد فيه بعبارة سهلة أخبار رحلة السيد پيكيت من ديار بكر الى همذان من السنة

١٦٨١ الى السنة ١٦٨٤ ؛ معرباً عن مزايا ذلك الحبر الجليل ، ومشيراً الى اخلاصه وتفانيه في خدمته مدَّة ثلاث سنوات واربعة اشهر اذ كان وكيله وترجمانه الامين في العربية والتركية والفارسية والارمنية .

وُلد السيد فرنسيس بيكيت في ليون في ١٢ نيسان ١٦٢٦ . ونُصب قنصلاً في حلب (١٦٥٢-١٦٦٢) خلفاً للمسيو انج بونين . ومن جملة مآثره في تلك الحاضرة انه صرف المساعي المشكورة في ترقية السيد اندراوس اخيجان الى الرتبة الاسقفية عام ١٦٥٦ ، بوضع يد السيد يوحنا الصفراوي ، بطريرك السريان الموارنة الانطاكي . واستحصل صكَّ الموافقة على سيامته من اغناطيوس شمعون بطريرك السريان المنفصلين . وسعى كذلك في ترقيته الى الكرسي الانطاكي عام ١٦٦٢ ، وساعده في محنه وشدائده الكثيرة . وقد ورد في اخبار الكنيسة السريانية ان السيد اندراوس اجاب الى طلب صديقه القنصل الورع فرقاه الى رتبة شماس المرتّل في كنيسة حلب في ١٠ كانون الاول ١٦٦٠ ، حسب الطقس السرياني .

وفي السنة ١٦٦٢ ، غادر السيد بيكيت مدينة حلب الى رومية وحظي بالمثول لدى الحبر الاعظم البابا اسكندر السابع (١٦٥٥-١٦٦٧) واطلعه على تفاصيل احوال الملل الشرقية عامة . ثم انطلق الى ليون وطنه ، وحلَّ في دار غودفروا والده . وما عتَّم ان نزعت نفسه كشقيقيه الى الزهد في الدنيا . ونصبه البابا اقليميس العاشر (١٦٧٠-١٦٧٦) نائباً رسولياً عاماً على بلاد ما بين النهرين طبقاً لبراءة مؤرخة في ١٥ كانون الثاني ١٦٧٥ وفي ١٦ ايلول ١٦٧٧ ارتقى السيد بيكيت الى الكرامة الاسقفية بوضع يد نيافة الكردينال غريمالدي . واوفد اليه الحبر الروماني مار اينوشنسيوس الحادي عشر (١٦٧٦-١٦٨٩) براءة رسولية عام ١٦٧٨ يسميه بها زائراً رسولياً لقبرس ، وحلب ، وطرابلس ، ولبنان ، وابرشية نخجفان بارمينية .

أبحر السيد بيكيت في ١١ ايلول ١٦٧٩ من فرنسة الى مالطة ووصل الى الاسكندرونة في ٦ تشرين الثاني . ثم عرَّج على انطاكية ، وشخص الى حلب مركز قنصليته سابقاً . وفي ٢٨ آب ١٦٨٠ حضر في كنيسة السريان رسمياً

الاحتفال بتقليد الدرع المقدّس للسيد اغناطيوس بطرس شاهبادين، بطريرك السريان الانطاكي (١٦٧٨–١٧٠٢)، وألقى اثناء الاحتفال خطبة عربية في الثناء على فضائل ذلك الحبر الانطاكي النبيل الذي توفاه الله تعالى برائحة القداسة، منفيًا في قلعة آطنه.

ظلّ السيد پيكيت نحو سنتين في حلب ينتظر بذاهب الصبر وصول جواز السفر من قسطنطينية العاصمة. وكان نصارى ارمينية وبلاد فارس من ارمن وسريان ونساطرة يكاتبونه اذ ذاك ويستعجلونه على الذهاب اليهم. فكتب الى لويس الرابع عشر، ملك فرنسة (١٦٤٣–١٧١٥) ملتمسًا، ان يسمّيه سفيرًا خارق العادة لدى شاه العجم. فاستحسن الملك اقتراحه وكتب في ذلك الى سفيره في قسطنطينية، والى شاه العجم نفسه. وما كادت تصل الكتب الى السيد پيكيت، السفير الجديد، حتى غادر الشهباء في اواسط نيسان ١٦٨١ وشخص الى ديار بكر فبلغها في ١٠ ايار. وهناك قرّ رأيه على اتخاذ القس سفر العطار الماردينى السرياني ترجمانًا له. فاغتنم القس سفر تلك الفرصة ليكتب اخبار معلّمه مياومةً. ولما اعتزم على الاقامة في رومية انصرف الى جمعها في هذا المخطوط الفريد الذي نتحف به القراء، تاركين النصّ على حالته مشيرين الى صفحاته تباعًا بين معقّفين، مثبتين في الهامش تتمّاتٍ من الفوائد التاريخية والجغرافية، مع شرح الالفاظ الغريبة.

وقبل اثبات نصّ هذه الرحلة نرى ان ننبّه القراء الى ما كان يعترض المسافر في الامس من الموانع والصعوبات، وما كان ينفقه من المبالغ الوافرة، ويقضيه من الايام الطويلة توصلًا الى غايته. فقد لبث المونسنيور پيكيت الجليل مدة سنتين في حلب ينتظر ورود اوراق جواز السفر من الاستانة. ولولا توسط السفارة الفرنسية في ذلك لاقتضى لمنال الجواز مدة اطول ومبالغ اوفر. ثم استدرك ما قد يطرأ عليه في طريقه الشاقة الطويلة من الغوائل والاخطار والطوارق، فأعدّ ما يلزمه من المحافظين والجنود ليقوه شرّ الاكراد وقطاع الطريق في بلادٍ استفحل فيها الاستبداد، وتفاقم السلب والنهب والقتل. وهيأ من المؤونة والامتعة ما يكفيه ويكفي اصحابه، ويقيهم لوافح الحرّ

ونوافح البرد وهبوط الامطار والثلوج ، وهبوب الرياح والعواصف . واذخر من الادوية والعلاجات ما يدفع عنه وعنهم صنوف الامراض لداعي تقلّبات الجوّ واختلاف المناخ ، في رحلة استغرقت اربعين شهرًا ، وفي بلاد خلت من طرق العربات والسيارات والقطارات . ومـا عدا هذا كله فقـد اضطرّ المونسنيور بيكيت ان يجامل المكارين ويجاريهم في مطامعهم ، ويُعدّ لهم ما يحتـاجون اليه من الطعام ، وينفحهم بالهدايا والحلوان ، خيفةَ ان يطرّحوه في مفاوز لا زاد فيها ولا ماء ، او ينتقضوا عليه فيثبّطوه عن استئناف سفره ، او يفتكوا به . وكان ، اذا عزم على التنقّل من مرحلة الى أخرى ، نهض ليلًا وامتطى دابّته ساعات طويلة . حتى اذا انتهى الى بلدةٍ او قريةٍ حطّ رحاله في خانٍ حقيرٍ فيها، خالٍ من المعدات اللازمة ، او خلد الى مغارة ضئيلة ، او بات في صحراء قاحلة تحت خيمةٍ ينقلها معه ويجتمع فيها هو واصحابه ودوابه معًا .

واذا لاحظ القارئ حسب المونسنيور بيكيت ونسبـه ، ومقامه الـديني والمدني ، ونحافة بنيته ، ورفاهية معيشته في دار والده او في قصر قنصليتـه ، أدرك ما عاناه من التضحيات حبًّا للايمان الكاثوليكي المقدّس ، واستنتج مـا كابده المرسلون في عصره من الضيم والتلف استجلابًا للخراف الضالة الى حظيرة السيد المسيح الواحدة ، وعرف كذلك ما تذرّع به الاحبار الرومـانيون العظام من الذرائع الفعّالة لباوغ غايتهم المقدّسة ، وما توسّل به ملوك فرنسة الفخـام من الوسائل لنشر الايمان المقدّس في الاقطار السحيقة .

واليك ، بعد هذا التفصيل ، نصّ الرحلة بحرفها الواحد :

[١] اخبار سفر المونسنيور فرنسيسكوس بيكيت اسقف بابل[١] الذي رافقته انا الفقير اثناسيوس[٢] سفر اسقف ماردين لما كنتُ قسيساً . وكتبتُ بعض فضائله

المونسنيور بيكيت في ديار بكر[٣]

لما كان بتاريخ سنة الف وستمائة واحدى وثمانين مسيحية في ١٠ ايار دخل المونسنيور بيكيت الى مدينة آمد[٤] من باب الروم راكباً فرساً في ثياب زي ثياب التجار . وانا كنتُ جالساً بجانب الباب . وكان أمامه شابٌ ارمني فاخذه الى بيت البادرية الكبوجيين ونزل هناك . حينئذٍ جاء اليه مار[٥] يوسف بطرك الكلدانيين وزاره . وبعده رحتُ انا اليه وزرته وبستُ[٢] يده . فاوّل ما دخلتُ اليه عرفني ولم يكن نظرني. لكنه لما كان في حلب كنتُ قد ارسلتُ له مكتوباً مع اخي اشتكي من الهراطقة الذين كانوا يضادّونني . وهو ارسل لي جواب المكتوب ليسلّيني ويعزّيني بالصبر.

ولما دخل الى آمد اخذوا أحماله وانزلوها في الكمرك كالعادة . ثم راح البادري يوسف الكبوجي عند الكمركجي وأدّى له قدر عشرين قرشاً هدية من عند المونسنيور . اما الكمركجي فلم يفتح احماله بل أرسلها له مع خروف هدية . وثاني يوم أخذ[٦] له البادري بيتاً قريباً من بيته وانتقل اليه . ثم رحتُ

١) وقّع المونسنيور بيكيت امضاءه في وصيّته الاخيرة هكذا: « فرنسوا بيكيت اسقف بابل ونائب رسولي على العجم ». وكان مطراناً على سيزاروپوليس بمقدونية . ثم سُمّي زائراً رسولياً لبابل وفارس ومطراناً على خسروپوليس اعني مدينة كسرى وهي اصفهان عاصمة الفرس.

٢) كان اسمه حين مرافقته السيد بيكيت في رحلته : « القس سفر » . ولكنه لما يتمّ الترجمة في رومية كان قد رُقّي الى الدرجة الاسقفية على ماردين باسم اثناسيوس سفر.

٣) هذه العناوين المتسلسلة من وضعنا ٤) ديار بكر

٥) هو يوسف الاول بطريرك الكلدان (١٦٨١–١٧٠٧) اطلب ترجمته في المشرق ٩ [١٩٢١]: ١٢٤–١٢٨)

٦) استأجر

اليه [٣] وقلت له ايش تأمرني حتى اخدمك ؟ قال تفتّش لي عن واحد يصير لي ترجماناً . فلقينا شاباً ارمنياً يُسمّى جبرائيل تلميذ وانيس مرتبيد[١] الارمني القاثوليقي . لان هذا الشابّ كان في رومية وتعلم الايطالياني فصار له ترجماناً

ويوم الاحد راح المونسنيور وقدّس في كنيسة (البطريك) مار[٢] يوسف التي تسمى مار فثيون . و كان مار يوسف قد عزم[٣] مطران الارمن ومطران الروم مع اكابر الارمن والسريان والروم والكلدانيين . فامتلأت الكنيسة والحوش من الناس . فقدّس المونسنيور قدّاساً كبيراً وكان هناك ثمانية بادرية كبوجيين [٤] وسكولند[٤] ويسوعيين فرنكاوا . وبعد خلوص القداس تقدّس[٥] بعض اناس من يد المونسنيور . ثم جلس المونسنيور على كرسي والتاج على رأسه . وجاء الرجال والنسا. وتباركوا منه . فكان ناس منهم يبوسون يده . وناس ركبته وناس رجله . واكثرهم كانوا هراطقة . ولما انتهوا ادخلنا المونسنيور الى قلاّية مار يوسف[٦] مع المطارين والقسوس واكابر الطوائف . وكان مار يوسف قد عمل ضيافة عظيمة وأطعم كل الناس الذين دخلوا اليه . وانا كنتُ واقفاً على رجلي اترجم بينهم . لان المونسنيور كان يتكلم معي باللسان العربي الكتابي وكنتُ انا اشرحه بالتركي لان ارمن ديار بكر لا يفهمون [٥] العربي .

ثم وضعوا مائدة في الوسط حيث كان المونسنيور والمطارين والاعيان . وجعلوا مائدة اخرى في بيت آخر للكهنة والشمامسة وباقي الدولتلية[٧] . وانا جلستُ في هذه المائدة . لان مار يوسف كان جعلني وكيلاً للمائدة الثانية . ثم جعلنا مائدة ثالثة لباقي الناس في مكانٍ آخر . فبعدما اكلتُ مع الجماعة في مائدتي بعث صاحبي[٨] المونسنيور حتى اترجم . لان الجماعة كانوا يريدون ان يسمعوا الفاظه . ولما حضرتُ امرني بالجلوس فجلست قريباً منه وبدأ يلقش[٩]

١) المرتبيد او الورتبيد وظيفة كنسية تقابل وظيفة الخوروسقفوس عند السريان .
٢) مار هذه لفظة سريانيّ يُراد به السيد ويُنعت به الاسقف والبطريرك ٣) دعا
٤) سكولند يُطلق هذا اللفظ على التلامذة الذين يدرسون العلوم الكهنوتية ويقال لهم في السريانية أصحة حا : الدارسون
٥) تناول القربان ٦) البطريرك ٧) الاغنياء
٨) استدعاني ٩) يتكلّم

مع الجماعة مقدار ساعة بعد الغدا . ثم قاموا جميعهم [٦] وباسوا يده وراحوا.

وبعد ذلك قام المونسنيور واراد ان يروح فرافقته انا وقسّيسان . وبينما كنّا رائحين الى البيت عبرنا على بيت واحد ارمني يسمى هزرشا دولتلي(١) وكان قد مات في تلك الايام . فلقينا اخاه الاسقف واقفاً في الباب يستنى(٢) المونسنيور فتعلّق به وألزمه بالدخول . فلما دخلنا لقينا النسوان والبنات كلهن لابسات ثياباً سودا، وهنّ حزانى . فجاء الجميع وارتموا على اقدام المونسنيور وتباركوا منه وبدأوا يبكون . فعزّاهم وسلّى خاطرهم بكلامه الطيّب . وجابوا(٣) [٧] ووضعوا امامنا مائدة من جميع الحلويات والسكر والعرق والنبيذ والماورد والبخور مثل عادة البلاد . فامتنع المونسنيور من المائدة . ثم توسلوا اليه باكين ان يبارك على مائدتهم وبيتهم فباركهم جميعاً . وبقينا هناك مقدار نصف ساعة. واما الاسقف المذكور فكان قاتوليقياً . فلما قمنا حتى نروح جاء جميعهم وجثوا امام المونسنيور وتباركوا منه ومن ثيابه كعادة البلاد . وايضاً الاسقف باس يده . ثم وصّلنا المونسنيور الى بيته ورجعنا عند مار يوسف.

ولما كان يوم [٨] الخميس الذي هو عيد الجسد قدّس مار يوسف قدّاساً كبيراً وطقّس(٤) الكنيسة كعادة [الكلدان] . ثم لبس القسوس والشمامسة مع مار يوسف. وداروا ونزلوا من المذبح في الجسد المكرّم. وداروا ثلاث دورات في الكنيسة مبتدئين من يمين المذبح مرتلين : « ܡܫܝܚܐ ܕܒܗܘ ܘܙܘܡܪܐ ܒܣܪܐ ܐܟܠܝܢ ܚܕܡܢ ܡܘܬܐ »(٥) . وهذا العيد ما هو عند السريان ولا عند الكلدانيين . لكن مار يوسف عمله(٦). اما المونسنيور فكان جالساً على كرسي في باب المذبح والتاج على رأسه . فكرز(٧) مار يوسف كرزة(٨) باللسان التركي [٩] ووصف فيها المونسنيور وفضائله . ولهذا كرز بالتركي لكي يفهم الارمن والطوائف الحاضرون كلامه . وبعد خلوص القدّاس جاء الناس وتباركوا من

---

١) غني ٢) ينتظر ٣) أحضروا ٤) بارك

٥) هي ترنيمة سريانية من نظم مار افرام، ملفان الكنيسة الكاثوليكية، ينشدها السريان والكلدان اثناء الذبيحة الالهية. ٦) وضعه ٧) خَطَب

٨) الكرزة سريانية ܟܪܘܙܘܬܐ يُراد بها الوعظ والارشاد والتبشير.

المونسنيور ورجعوا . ونحن دخلنا الى قلاية مار يوسف وتغدّينا هناك . ثم اخذنا المونسنيور ووصلناه الى بيته . ولما كان نهار عيد الفنطقوسطي[١] حضر المونسنيور ايضاً الى كنيسة مار يوسف وقدّس مار يوسف ايضاً وبعد القدّاس دخلنا اليه وتغدّينا عنده .

وفي الاحد التابع عزم الارمن المونسنيور ومار يوسف الى كنيستهم الصغيرة التي تُسمّى سورب كراكوس [١٠] اعني مار عبد الاحد . وعندما قربنا من الكنيسة رأينا القسوس والشامسة لابسين طقوسهم[٢] وقد خرجوا خارج الحوش بالرّياح العظيم حاملين سناجق الصليب المكرَّم والاناجيل والمباخر والنواقيس والصنوج تدقّ وهم يرتلون باطيب النغمات . وكان المسلمون يتفرّجون من الاسطحة ولم يتكلّموا ابدًا مع انهم اشقياء اشرار اشرّ من اسلام غير بلاد . فلما دخلنا الى الكنيسة نظرناها ملآنة من الناس . ثم وضعوا كرسيًا للمونسنيور عن يمين المذبح وألبسوه بدلة [١١] جميلة وتاجاً . ثم كرز مطران الارمن ووصف في كرزه المونسنيور وصفاً عظيماً . وهذا العجب ان المطران كان رجلًا هرطوقيًا كبيرًا وعمل طاعة زائدة للمونسنيور وكمّل فيه قول الكتاب : « ان الله ينطق المنافقين غصباً » . ثم من بعد خلوص القدّاس جاء الكبار والصغار وتباركوا من المونسنيور وهو جالس على كرسي بتاجه .

ثم خرجنا من الكنيسة حتى نعدّي[٣] الى مكان الضيافة . فما امكننا العبور من كثرة الناس . لان الكنيسة والاحواش كانت ملآنة . وانا كنتُ حاملًا جوخة[٤] المونسنيور على كتفي وكانت من السمّور[٥] . وكان قسّيسان آخران حاملين اذيال بدلته [١٢] . وباقي قسوس الارمن والكلدانيين كانوا محتاطين حوله ليحموه من الناس . ومع هذا جميعه لم نقدر نحميه من الناس الذين كانوا يجيئون يتباركون منه وكانوا يزحمونه . وكنتُ اخاف عليه لضعف قوّته . ثم اني زعقتُ على الناس باللسان التركي وقلت : « لاجل محبة الله ساعدونا حتى

١) العنصرة ٢) حللهم الكهنوتية ٣) نذهب ٤) جبّة
٥) السمّور حيوان برّي يشبه ابن عرس واكبر منه . لونه احمر مائل الى السواد يُتّخذ من جلده فراء ثمينة .

يخلص المونسنيور لانه ضعيف القوّة . عند ذلك جاء اناس اقوياء وهجّجوا[1] الناس عنا . ثم دخلنا الى بيت المطران ودخـل المونسنيور الى مكان منفرد وبدّل ثيابه من العرَق . لاننا دائمًا كنا نأخذ ثيابه معنا حتى يبدّل . ثم جلس المونسنيور ومدّوا [١٣] امامه مائدة شريفة . وكان هناك اكابر الارمن وباقي الطوائف . فتغدّينا وبقوا يتكلّمون معه مقدار ساعـة وانا كنتُ اترجم بينهم بالتركي . وبعد ذلك قمنا رحنا ورافقنا بعض قسوس ارمن الى بيت المونسنيور . ثم تركناه ورجعنا كل واحد الى بيته .

ولمّا كان الاحد الآخر عزم الارمن المونسنيور ايضًا الى كنيستهم الكبيرة التي تسمّى خضر الياس . ولمـا وصلنا الى باب الحوش خرجوا امامنـا بالزّياح المذكور اعلاه وادخلوه الى الكنيسة ولبّسوه بدلة ووضعوا التاج على رأسه [١٤] واجلسوه على كرسي عن يمين المذبح مكان مطرانهم . ثم كرز مطرانهم ووصف المونسنيور . وبعد خلوص القداس جاء الكبار والصغار وتباركوا منـه . ومن هناك اخذونا الى بيت المطران داخل حوش الكنيسة . لان المطران له مسكن في كل كنيسة . وبالجهد العظيم قدرنا نتخلّص من النـاس . ودخل المونسنيور وبدّل ثيابه وتغدّينا هناك . وعزمه كثيرون حتى يروح الى بيوتهم ويباركهم . ولكن لم يمكنه ان يروح عند احد . لانه لو راح عند واحد كان يطلبه الكل حتى يروح اليهم . وكان يتعوّق في [١٥] آمد .

ونحن كنّا نخاف عليه من ظلم المسلمين وحسد الهراطقة وعوانيتهم[2] ولكن عناية الله اعمت عنه ابصارهم بعد ما صار له هلقدر[3] عزّ ووقار الـذي ما صار ابدًا لاحد غيره . وكان الناس يجون[4] اليه الى البيت ليزوروه ويتباركوا منه . وكان بعضهم يهدون اليه بعض المأكول والمشروب . ولم يكن يقبل ان يأخذ من احدٍ شيئًا . لكن البعض كانوا يتوسّلون اليـه كثيرًا فكان يقبل ذلـك ويعوّض لحاملها ضعفين عمّا جاء به .

وذات يوم انا الحقير اردت ان اهـدي اليه جرّة نبيذ [١٦] مليح ممّا كان

---

١) كشفوا ٢) جاسوسيّتهم ٣) كل هذا ٤) يجيئون

يعجبه وصينيّة بقلاوى التي يعملونها من السكر والعجين واللوز والسمن وغير اشيا.. ثم اني حملتُ النبيذ خادماً كان عندي وفتّشت عن آخر فوجدتُ واحداً نصرانياً فقيراً فاعطيته حقّه وحملته الصينيّة. فلما ودّيا[1] له ذاك اعطى كل واحد نصف قرش. فرجع النصراني فرحان وهو يشكر فضل المونسنيور ويدعو لي. فقلتُ له مالك ؟ قال ان اخي كان منذ يومين محبوساً لاجل الخراج لاجل نصف قرش. وكنت افتّش حتى اتديّن له نصف قرش وافكه من الحبس [١٧]. والآن اعطاني هذا الرجل المبارك نصف قرش. حينئذٍ راح فكه.

٢ - اخبار القس سفر ترجماناً للمونسنيور ديكيت

اما جبرائيل ترجمان المونسنيور فرض ومات وخسر المونسنيور دراهم على دفنته وأعطى القسوس وبقي بغير ترجمان. فصاح[2] مار يوسف والبادري يوسف وقال لها ليفتّشا له عن ترجمان. فقالا له اننا نتكلم مع القسيس سفر الماردين. فقال لها لعله لا يقبل. فقالا نحن نكلمه. ثم استدعياني وتكلّما معي في بيت مار يوسف وقالا انك تعلم ان المونسنيور ما له ترجمان. وانت الآن بطركك معزول[3] وما تقدر تروح الى [١٨] ماردين لخوفك من الهراطقة. فيلزم ان تروح مع المونسنيور وتوصله الى بلاد نقشوان[4] لان هناك قاتوليقيين من الارمن لا يعرفون اللسان. وعندما ينصب بطركك ترجع الى ماردين. فقلت لهما السمع والطاعة. وثاني يوم اخذاني عند المونسنيور فبستُ يده وباركني وقالا له ان القسيس يجيْ معك. فقال لي هل تجيْ ؟ قلت نعم انا عبدك وفي خدمتك. فاحتضنني وقال لي رُح اقشع شغلك لاننا بعد كم يوم نطلع. فقلت له ما لي شغل سوى اني آخذ لي فرساً. قال ما تحتاز الى فرس لاني أستكري دوابّ للتحميل [١٩] والركوب. ثم اعطاني كم قرش خرجية لاشتري عازتي.

وكان المونسنيور قد استكرى من واحد مكاريّ ارمني حتى يودّيه الى

١) أخذا ٢) استدعى ٣) يشير الى السيد اغناطيوس بطرس شاهبادين البطريرك الانطاكي (١٦٧٨-١٧٠٢) المنبوط الذي ظهر عليه البطريرك عبد المسيح واستولى على كنيسة حلب عام ١٦٨١ ٤) نخجنان

تبريز على درب بدليس وفصل معه بثلاثمائة قرش مكفّى مجفّر[١] ودفع له من المبلغ المذكور ستين قرشاً . وبعد يومين جاء ناس وخوّفوا المونسنيور ان لا يروح على درب بدليس لان الكروان[٢] ما هو كبير والدرب مخوف . فاستدعى اليه مطارين الارمن ومار يوسف واستشارهم . فقالوا له مـا هو لازم ان تروح على درب بدليس بل سافر على درب ارز الروم (ارضروم) الى ايروان[٣] . فقال كيف يصير [٢٠] هذا وقد اعطيت ستين قرشاً للمكاري . فقالوا نحن نصيح المكاري ونأخذ منه الدراهم . ثم صاحوا المكاري وتكلموا معه فانكر وقال اني قد خرجتُ[٤] الدراهم واشتريتُ دوابّ . فقالوا اعطنا كفيلاً صـادقاً بانك توصل هذا الرجل الى تبريز بغير ضرر ونحن نعطيك باقي الدراهم . ولما لم يقدر ان يوجد الكفيل اعطى اربعين قرشاً ولم يقدر يعطي العشرين قرشاً الباقية . فجاز عنه المونسنيور ثم امرني ان افتش عن قاطرجية[٥] آخرين يأخـذونا الى ايروان على درب ارز الروم . فرحتُ مع بعض ناس وفتشت عن [٢١] مكاريّة فوجدتُ رجلين نصرانيّين من ماردين وثلاثة مسلمين من بالو[٦] واستكرينـا منه خمس عشرة دابة لاجل التحميل والركوب وفصلنا معهم القنطار اعني مائة رطل حلبي بستة قروش ونصف الى ارز الروم . وعـادةً المركوب هو نصف قنطار . ثم اعطاني المونسنيور دراهم معلومـة حتى اروح اتسوّق خبزاً وشراباً وارزاً وسمناً وكل ما نحتازه في الـدرب . فرحتُ وتسوّقت بقساط[٧] وحملين شراباً وباقي اشياء . وبعدما بقي المونسنيور سبعة وعشرين يوماً في آمد امرني ان اعطي الكروة لاصحاب البيت فاعطيتهم مثلما [٢٢] كنا فاصلناهم . وانعم عليهم ازيد . وانعم كذلك على الذين كانوا يخدمونه حتى على الذين جـابوا له شربة ماء . فدعوا له كلهم بالسلامة .

اما البادري يوسف فراح عند الكمركجي وعند الصوباشي[٨] وطلب منهما

---

١) خالص ٢) القافلة ٣) اريفان وهي عاصمة ارمينية الحاليّة
٤) صرفتُ ٥) مُكارين
٦) بالو: قرية من اعمال ديار بكر ٧) البقساط : خبز يابس كالكعك
٨) مأمور التفتيش

الدستور في ان تخرج احمال المونسنيور من باب البلد بغير تكليف وتفتيش . لان القانون يحكم بانه اذا خرجت احمال يفتشانها ويأخذان عن كل حمل ثلاثة قروش . ثم بعث الكمركجي والصوباشي اناساً الى الباب لكي يمنعوا البوابين من التفتيش .

٣ سفر المونسنيور بيكيت من ديار بكر الى ارضروم

وكان خروجنا من آمد نهار الخميس ٧ حزيران بالحساب الشرقي [٢٣] في السنة المذكورة اعلاه (١٦٨١) . وجاء مطارين الارمن عند المونسنيور ليودّعوه وكان بينهم مطران قاتوليقي يسمى اوهان . فكتب مكاتيب الى ارز الروم لبعض اصحابه الارمن يوصيهم بالمونسنيور واعطاني المكاتيب . ثم خرجنا من باب آمد مع الاحمال وخرج معنا مار يوسف والمطران اوهان الارمني القاتوليقي وبعض المحبين ليودعوا المونسنيور . فانعم المونسنيور على البوابين ببعض دراهم فشكروا فضله ودعوا له بالسلامة . اما الذين خرجوا معنا فانهم تودعوا ايضاً من المونسنيور وباسوا يده ورجعوا متأسفين على الفراق[٢٤]ومشينا مقدار ميلين عن آمد ونزلنا في برية وبتنا تلك الليلة هناك . وثاني يوم تلاقينا مع قفل ارز الروم . وكان برفقتنا ثلاثة بادرية كبوجيين وهم البادري يوسف والبادري لورنسيوس والبادري فرنسيس . وكان الكروان كله مسلمين واكثرهم لازيين من بلاد اللاز وهم يبغضون النصارى جدًّا . واما نحن فكان لنا خيمة كبيرة كنا ننصبها ونحتوي تحتها نحن واحمالنا . لانه في تلك البلاد مطر زائد وما فيه مكان يحتوي الانسان . واكثر درب ارز الروم جبال عالية عليها الثلج دائماً . وهي ملآنة من كل الزهور [٢٥] روائحها كروائح الفردوس .

وذات يوم حملنا من بكرة من ذيل الجبل والمساء وصلنا الى راس الجبل دائماً صاعدين . وثاني يوم حملنا من راس الجبل والمساء وصلنا الى ذيل الجبل دائماً نازلين . وكنتُ انا دائماً قريباً من المونسنيور . وكان يسألني بعض اسئلة فكنت اترجم بينه وبين الذين كانوا يقربون اليه من المسلمين في الكروان

حتى يتكلموا معه . وكانوا اذا سألوه عن شيء من امور الدين ام من احوال بلاده كانوا يكلمونه بالادب والحشمة مثلما [٢٦] يكلم العبد سيده لما كانوا يسمعونه من عذوبة كلامه . وكانوا يسمونه الحكيم الكبير ويسمون مسيو وينسا الحكيم الصغير . وقد صدقوا بقولهم لانه كان حكيماً روحانياً كبيرًا.

وكان المونسنيور يجتمع مع البادرية ومسيو كازميولب اعترافه تحت الخيمة ويصلّون بحسٍّ عالٍ . وكان المسلمون يجيئون الى قرب الخيمة ويسمعون. وما كانوا يتكلمون ابدًا ولا يتضحكون كعادتهم مع النصارى ولا يمنعونهم عن الصلاة جهرًا وعن ارتفاع الحس بل كانوا يتحيرون ويستهيبون لما كانوا ينظرون المونسنيور واقفاً في الصلاة [٢٧] بالحشمة واجتماع الحواسّ والمخافة مثل ملاك الله . وكانوا ينصرفون الى خيامهم بغير كلام ابدًا.

ولما كنا نتغدّى كنّا نُحضِر الشراب ونشرب كعادتنا وهؤلاء ينظروننا ولا يتكلمون مع انهم يبغضون الشراب وشاربيه . وكانوا يتعجبون في شربنا لما كانوا ينظروننا نشرب كل واحد منا قدحين او ثلاثة ممزوجة بالماء . وكانوا يقولون لي بما ان نصارى بلادنا ما يشربون مثلكم بل يشربون مثل الخنازير ويسكرون فلهذا نبغضهم. وكان بينهم واحد مريض فجاؤوا به الى الحكيم واعطاهم دواء بغير ثمن فبقوا يراعونا كثيرًا. والمكان الذي كنا نحط فيه كانوا يعطونا المحطّ الاحسن [٢٨]. وهكذا رافقونا بغير ضرر بل نالنا منهم اكرام.

ولما بقي بيننا وبين ارزالروم مسافة يوم واحد امرني المونسنيور ان اسبق الى البلد واعطي المكاتيب لاصحابها حتى يفتشوا لنا عن بيت نسكنه . فركبتُ ورحتُ الى ارز الروم ولاقيتُ في دربي الكمركجية رائحين قدام الكروان حتى يكتبوا الاحمال . وسألوني قائلين قد سمعنا بان مع الكروان رجلًا فرنجياً تاجرًا كبيرًا ومعه عدة احمال . فقلت لهم ان هذا الرجل الذي سمعتم عنه هو قسيس واحماله هي كتب وهو رائح الى بلاد نقشوان عند الفرنج الذين [٢٩] هناك . ومعه طبيب حاذق واحماله هي ادوية . فقالوا لي اننا ما نصدّق قولك لاننا سمعنا ان احماله جوخ وبضاعة افرنجية . فقلتُ لهم غدًا عندما تفتحون الاحمال في ارزالروم يظهر صدقي او كذبي . فضيتُ

ودخلتُ الى ارزالروم ولم اكن قد دخلتها ابدًا . وسألتُ عن حارة النصارى فقالوا لي هذا خارج البلد الذي ترى كله خانات التجار وبيوت النصارى . فرحتُ الى احد الخانات ورأيتُ الخواجكية الارمن الذين جبتُ لهم مكاتيب: فالواحد اسمه بدروس وهو رجل قاتوليقي والآخر اسمه بشارة والآخر اسمه اللهوردي[١] وهو عند الكمركجي . فدفعت اليهم المكاتيب فاخذوا وقرأوها [٣٠] وجاؤوا معي واستكروا لي بيتاً فيه خمس حجر الشهر بقرشين . ثم نمت تلك الليلة في الخان . وثاني يوم ركبتُ من بكرة ورحتُ قبال المونسنيور فوجدتُ الكروان قد قارب البلد نحو ميل.

٤ – وصول المونسنيور بيكيت الى ارضروم

ثم اخذت المونسنيور والجماعة والاحمال تتبعنا ودخلنا الى ارز الروم بعد سبعة عشر يوماً[٢] ونزلنا في البيت . فجاء ناس الكمرك وختموا الاحمال. وثاني يوم جاؤا طلعوا عليها فما وجدوا فيها كما سمعوا . واما الخواجكية الارمن المذكورون اعلاه فجاؤوا عند المونسنيور وزاروه وتباركوا منه وفرحوا به وتكلموا معه ورجعوا . وثالث [٣١] يوم جاء الينا مطرانان ارمنيان الواحد يُسمّى عزريا مطران ارزالروم وهو قاتوليقي مخفي والآخر يُسمّى المطران ابرهيم مع بعض تجار ارمن . وجابوا معهم قسماً من الفواكه في صينيتين وشيئاً من النبيذ وتباركوا من المونسنيور وبقوا عندنا مقدار ساعة يلقشون . واحضرنا امامهم مائدة من الحلاويات مع عرق فانشرح خاطرهم مما نظروه وسمعوه من المونسنيور. ثم رجعوا الى بيوتهم . وفي اليوم الرابع جاءنا من بيت الخواجا بدروس ثلاث صواني الواحدة بقلاوة والثانية لقم القاضي مصنوعة بسكر وعجين وسمن والثالثة [٣٢] خبز معجون بسمن على عادة البلاد . فامرني المونسنيور ان اعطي الذين جابوا الصواني لكل واحد نصف قرش.

وبعد ذلك جاءنا من عند الخواجا بشارة جرّة نبيذ الكرج . لانه في ارزالروم ما يوجد شراب لقلة العنب فيها ولسبب الخوف لئلا يشرب

---

١) عطاالله ٢) ٢٦ حزيران

الجنجكارية[1] ويسكروا ويعملوا ماريولية[2] . فلهذا السبب عملوا يسق[3] مجيء الشراب الى ارزالروم . والنصارى هنـاك بالجهد العظيم كانوا يلاقون شراباً عاطلاً . ونحن كان معنا ظرف شراب من شراب آمد . ولما جاء الكمركجية وفتشوا احمالنا ووجدوا الشراب مـا تكلموا لعلمهم ان الافرنج [٣٣] لا يقدرون يصبرون بدون شراب .

وكان في ارزالروم ارمن قاتوليقيون منهم كانوا قد سافروا الى بلاد الافرنج وصاروا جهراً قاتوليقيين ومنهم كانوا قاتوليقيين مستورين . ونحن كنا عملنـا الحجرة الواحدة كنيسة لاجل القدّاس . وكان المونسنيور يقـدّس كل يوم . فطلب هولاء القاتوليقيون ان يحضروا القدّاس ويتقرّبوا[4] فامرني المونسنيور ان اعرّفهم فعرّفتهم باللسان التركي وتقـدّسوا[5] كلهم . وأوصيتهم ان لا يُعلموا احداً . لانه هناك ما يقدر احد ان يقدّس خارجاً عن كنيسة معلومة خوفاً من ظلم الترك .

وفي اليوم السادس رحنا الى [٣٤] كنيسة الارمن وزرناها فـاخذنا مطران الارمن واحضروا امامنا مائدة شريفة واكرموا المونسنيور اكراماً زائـداً . ثم رجعنا الى البيت ورافقتنا جماعة منهم .

وفي اليوم السابع رحتُ انا ومسيو وينـا الحكيم (الطبيب) واخذنا هدية الى الكمركجي فقبلها واكرمنا وسقانا قهوة . وبعده رحت انا ومسيو كازمو واخذنا معنا ثلاثة كتب ارمنية مطبوعة وبعض اشياء من بركة رومية وقصدنا دار الخواجا بدروس حتى نزوره . وكان بيته داخل البلد . ولما وصلنا قدمنا له الهدية وسلّمنا عليه نيابةً عن المونسنيور . فاعزّنا واكرمنا واحضر امـامنا [٣٥] مائدة شريفة . وبعدما تحدّثنا عنده مقدار ساعة رجعنا الى بيتنا .

وبعد يومين جاء الينا الله وردي المذكور وقال ان الكمركجي ما يقبل الهدية وحدها بل يريد له شيئاً آخر . فقال له المونسنيور انا ما عنـدي شيء

١) الجنجكارية او الخنكشارية او الينشرية ، اعني العسكر الجديد ، قوم من المماليك اتخذهم السلطان مراد الاول (١٣٦٠-١٣٨٩) .

٢) ضوضاء ٣) منعوا ٤) يتناولون القربان الاقدس ٥) تناولوا

يستحقّ الكمرك لاعطيه . فقال ان هولاء قوم ظالمون ما يخافون الله ولا يعرفون الحقّ . ثم قال لي المونسنيور رُح اعطيه مها اراد . فرأيتُ ان اروح اتكلم مع الكمركجي فمنعني الله‌وردي وقال انا اروح اتكلم معه وما يعتاز ان تجيء انت . فراح كلّمه وجاء وقال لي انه اراد سبعين قرشاً [٣٦] لكن انا ارضيته بثلاثين . فرحتُ وحكيتُ المونسنيور فقال اعطه كل ما يريد واستكرِ لنا دوابّ لنطلع من ارز الروم . اما هذا الله وردي فكانوا حقيقةً قد وصّوه بالمونسنيور بواسطة مكتوب والمونسنيور بعث له هدية من كتب وغير اشياء . ولكن بما انه كان رجلًا هرطوقيًّا ما صار لنا منه مساعدة. وقالوا لنا انه هو صار سبب هذه الثلاثين قرشاً . امّا انا فرحتُ وفتشت عن دوابّ حتى استكريها فلم اجد مكارية مناسبين غير المكارية الذين جابونا من آمد . فاستدعيتهم عند المونسنيور وفصلنا معهم الى ايروان القنطار [٣٧] باربعة قروش ونصف.

وكان كروان حاضر في ارزالروم رائح الى ايروان ولكنه لم يكن قد قضى شغله . والمونسنيور كان يريد يطلع من ارزالروم بالعجل لخوفه من شرّ الحكام الظالمين . واشار علينا بعض اصدقاء ارمن قائلين انه يوجد دير خارج عن ارزالروم يومين يسمّى دير السيدة[١] وفيه اسقف ورهبان ارمن ورأوا ان نروح نقعد هناك نستنى الكروان . لان الكروان عندما يخرج من ارز الروم يعبر قدّام الدير . ثم رحتُ عند الكمركجي وطلبتُ منه دستور الرواح فبعث معي اناساً جاؤا وطلعوا على احمالنا [٣٨] لما ربطناها . لانهم هكذا يعملون حتى اذا خرج الكروان من ارزالروم ورحل ثلاث مراحل يأتي ناس الكمرك ويطلعون على الختوم . فالذي يكون حمله مختوماً يأخذون منه نصف قرش والذي ما هو مختوم او ينترع ختمه يفتّشونه فاذا وجدوا فيه فضة يأخذون الكمرك.

---

١) دير السيدة ابتناه مار ترسيس الجاثليق الكبير وكان يُدعى دير الاحمر . والآن يُسمى دير السيدة وهو في حوزة الارمن الغريغوريين.

سفر المونسنيور پيكيت من ارضروم الى دير السيدة

ونحن بعد ما مكثنا في ارزالروم خمسة عشر يوماً اعطيتُ كروة البيت قرشاً وطلعنا (في ٩ تموز) . وارسل مطران الارمن معنا قسيساً الى الدير المذكور . وبعد يومين وصلنا الى الدير ونصبنا الخيمة خارجاً [٣٩] ونزّلنا احمالنا فيها . وخرج الينا اسقف الدير ورحب بالمونسنيور (واخذه الى الدير) وفرش له حجرة . وبقي المونسنيور ينام هناك في الليل وكان ينام عنده واحد يخدمه . اما نحن فكنا ننام جميعنا خارج الدير عند الاحمال تحت الخيمة . ولخوفنا من الحرامية كنا ننام بالنوبة . وانا كنتُ انطر اكثر منهم . ولكن الله نجّانا وما نالنا مكروه ابداً . والمونسنيور ومسيو كازمو والبادريّة كانوا كل يوم يقدّسون في الكنيسة . وكان المونسنيور بعد خلوص القدّاس يسمع باقي القداديس ثم يطلع يفطر ويدور يتنزّه مقدار ساعة ثم يجوز الى حجرته ويبدأ يصلي الى [٤٠] نصف النهار . ثم يتغدّى ويدور ايضاً وبعد ذلك يستريح قليلاً ويرجع يصلي الى وقت العشاء . ثم ينام . ووقتما كان يتمشّى كنت اقف عنده حتى يتحدّث معي . وبعد ذلك كنت ارجع الى الخيمة ونتعشّى هناك .

اما مطران الدير فكان هرطوقياً غشيماً[١] ويوم نزولنا في الدير جاب لنا خروفاً هديّة . وكان من قبلُ في هذا الدير مطران يُسمّى ورتان وهو مطران بلاد بولونية على طائفة الارمن وأصله من طوقات بجانب سبسطية . وكان قد قرأ في مدرسة بروبغندا فيده في رومية وارتسم هناك من مطارين ارمن قاتوليقيين . فلمّا نزلنا هناك [٤١] سألنا عنه فقالوا انه راح الى بعض قرى الارمن ليجمع حقوق الدير . ثم ارسل المطران اناساً خلفه حتى يعلموه بحضور المونسنيور . وبعد ثلاثة او اربعة ايام حضر المطران ورتان مع فرسين وخادمين وتلاقى مع المونسنيور وقبّل يده وفرح به الفرح العظيم وجاب لنا الى الخيمة خروفاً وجبناً اخضر وغير اشياء هدية الى المونسنيور . ويوم الاحد قدّس قدّاساً

---

١) بسيطاً

كبيرًا وذبح عجلًا واضافنا . وكان في خاطره ان يبني في حوش الدير بعض قلالي ويعلّم في الاسكول[1] اللسان الارمني واللاتيني.

واما المكارية فلما بقوا معنا [٤٢] في الدير سبعة ايام يستنون الكروان ولم يجيء. بل جاء بعض ناس رائحين الى القرص ولم نكن نعرفهم حتى نرافقهم لانهم ما كانوا من التجار . وكنّا ايضاً نخاف نروح الى القرص لان حاكمها كان ظالمًا . فجاء المكارية وقالوا لي الى متى ننتظر الكروان قاعدين ههنا . ها قد جاء اناس قوموا حتى نروح على درب القرص فقال لهم المونسنيور انا ما قاولتكم حتى نروح على درب القرص بل على درب قلعة بيازيد . فما قبلوا بل ارادوا ان يرجعوا الى ارزالروم وياخذوني الى القاضي ويدّعوا معي . فلما نظر المونسنيور شقاوتهم وشرّهم صاحهم وزادهم على القنطار قرشاً . فرضوا وقالوا قم حتى نحتمل ونروح الى ايروان والا نروح الى الشرع[2] وندّعي معك . فقلت لهم ألم تقرّوا انكم تنتظرون الكروان ولو كان شهرًا ؟ فجحدوا ذلك وقالوا نحن قاولنا الى ثلاثة ايام وها قد كملت . فلما نظر المونسنيور عملهم هذا زادهم ايضاً على القنطار قرشاً آخر [٤٤] فقبلوا.

سفر المونسنيور يكيبت من دير البدة الى دير سورب كرابيد

وفي اليوم الحادي عشر (٢٠ تموز) جاء ناس الى الدير وبشرونا ان الكروان قد عدّى تحت قلعة حسن التي هي خلف الدير . وبينها وبين الدير جبل . فقمنا حمّلنا قاصدين الكروان . وجاء معنا مطران الدير والمطران ورتان . ورافقنا مطران الدير بمقدار ميلين او ثلاثة ثم رجّعه المونسنيور الى ديره. اما المطران ورتان فبقي معنا . وبعد خمس ساعات وصلنا الى الكروان . وجاء ناس الكمرك وتطلّعوا على ختوم الاحمال . وثاني يوم رحل الكروان . وبينما كنّا ماشين تغلّبت علينا الذبّان الكبيرة التي تقرص الدوابّ. وكان المونسنيور راكباً فرساً عالياً [٤٥] فمن كثرة الذبّان التي قرصت فرسه بقي الفرس ينطّ

---

١) المدرسة ٢) المحكمة

ويرقص ويخبط بيديه حتى رمى المونسنيور عن ظهره الى الارض . فركضنا كلنا وأقمناه ولم يُصبه ضرر . ثم أمرني المونسنيور ان الاقي له فرساً حتى يشتريه . فقلت له يا سيدي اركب فرسي حتى نصل الى ضيعة افتش فيها عن فرس . ثم جاء المطران ورتان وقدَّم فرسه للمونسنيور وركبه اياه وركب هو فرس المونسنيور . وجاء معنا درب ثلاثة ايام . ثم قال له المونسنيور يكفي ارجع الى ديرك . فاعطى فرسه للمونسنيور هديةً والمونسنيور ايضاً اهدى اليه فرسه .

ثم اننا [٤٦] مشينا بعض ايام حتى وصلنا الى دير هو على جانب نهر الدجلة يُسمى دير سورب كرابيد اعني مار يوحنا المعمدان . فتجاوز الكروان الدير وراح . اما المونسنيور فامرنا ان نتزل فنزلنا على جانب النهر ونصبنا الخيمة وركبنا خيلنا وعبرنا النهر حتى وصلنا الى الدير . فخرج المطران للقاء المونسنيور ومعه الرهبان واستقبلوه بفرح عظيم . وهذا المطران هو مطران تبريز واسمه سهاك[١] مرتبيد وهو قاتوليقي صالح محبوب من طائفة الارمن لسبب قداسته . ثم دخلنا الى الكنيسة . وهي عالية كبيرة جدًّا [٤٧] لكنه من مدة ثلاثمائة سنة كانت قد انهدمت قبتها وخلا الدير من السكان . فاجتهد هذا المطران الصالح في عمارته بمساعدة امير تلك الكورة واسمه امير محمد وهو رجل عادل كان يحبّ المطران ويكرمه وهو الذي امره ببناء الدير وساعده بدراهم . وكان الافعول[٢] يشتغلون وقد نصبوا حوالي الدير دكاكين وعملوا بِشهرًا[٣] اعني فيدا[٤] يبيعون هناك من جميع البضائع لاناس تلك الكورة .

اما المطران فاحضر مائدة امام المونسنيور واكرمه اكراماً زائدًا . ثم اخذنا ودوّرنا حوالي الدير فنظرناه ببناء عظيم [٤٨] قديم . وذكر لنا المطران بانه ههنا عمّد مار غريغوريوس المنوّر اثني عشر نفس بيده في هذا النهر . وبعدما حكينا

١) اسحق ٢) العَمَلة

٣) الشهر (ܫܗܪܐ) لفظ سرياني يراد به الاحتفال بالمواسم العمومية ليلًا. فكان المؤمنون يقصدون مقام صاحب العيد ليلة عيده ويبيتون فيه ليلتهم ساهرين في الصلاة.

٤) سوقًا عمومية

عنده مقدار ساعتين توسّل في المونسنيور ان يمكث عنده كم يوم وهو يبعث معنا اناساً حتى يوصلونا الى ايروان فلم يُرد المونسنيور ان ينفرق من الكروان بل ودّع المطران ورحنا الى مكان خيمتنا وحملنا ووصلنا الى الكروان وقت المساء.

وصول المونسنيور يكيت الى طوبراق قلا وقلعة بايزيد

وبعد يوم (٢١ تموز) وصلنا الى قلعة تسمى طوبراق قلا اعني قلعة التراب وهي في حكم الامير محمد المذكور. وهناك يأخذون عن كل حمل نصف قرش. وثاني يوم وصلنا الى قلعة بيازيد [٤٩] التي فيها الامير محمد. فحطّ الكروان تحت القلعة وجاء ناس الامير وعدُّوا احمال الكروان. ثم جمع رئيس الكروان من كل حمل قرشين حتى يروح يعطي للامير. وكان الكروان ثمانين حملاً. وبينما اراد رئيس الكروان الرواح جاء ناس من عند الامير يقولون لرئيس الكروان ان ياخذ المطران الافرنجي والحكيم الى الامير لانه يطلبهما. ثم ارسل الرئيس صاحني وبلّغني هذا الكلام. فرجعتُ وحكيتُ مع المونسنيور فقام وركب متكلًا على الله ورحنا معه انا والحكيم والخادم ورئيس الكروان وبعض التجار.

[٥٠] ثم وصلنا الى القلعة ونزلنا في بيت رجل نصراني اسمه اوهاديس خياط ثياب الامير. فرحّب بنا وجاء هو وعياله وتباركوا من المونسنيور. واحضر قدّامنا مائدة ملآنة من كل الخيرات والنعم. وكان هناك قسيس ارمني فجاء وزار المونسنيور. والمونسنيور ما كان ياكل ولا يشرب الا الشيء القليل اينما حضر على عادته. ومن هناك اخذونا وصعدنا الى راس الجبل حيث سراي الامير فادخلونا اولًا الى حجرة عمّ الامير واسمه ابرهيم بك وهو رجل معقول صاحب معرفة [٥١] فاستقبل المونسنيور بالمحبة وابتدأ يكلمه بادب وسقانا قهوة. وبعد ذلك جاء الامير من دار الحرم الى الديوان وامر باحضار المونسنيور والتجار. فادخلونا اليه فنظرناه قاعداً في صدر المجلس فوق الصفّة[1] مثل طقس

١) الصفّة بيت صيفي يكون مسقوفاً بجريد النخل ونحوه. ويراد بها ايضاً مقعدٌ عالٍ في جو الاستقبال.

الملوك . وجميع ارباب دولته واقفين حوله على ارجلهم مكتفين . ثم سلّم عليه المونسنيور فردّ سلامه بالحشمة واستدعاه اليه حتى اقترب منه وأمره بالجلوس . واجلس الحكيم ايضاً والتجار كل واحد في مكانه . وانا كنتُ واقفاً على رجلي بجانب المونسنيور . فامرني الامير بالجلوس فجلست.

[٥٢] وابتدأ الامير يتكلم مع المونسنيور ويسأله عن البلاد وعن الملوك المسيحيين وعن كل شيء . وكان يجاوبه بالحكمة وانا كنتُ اترجم بينهما . ثم التفت الى عمه ابرهيم بك وقال له باللسان الكردي ما احسن هذا الرجل ! وما احلى كلامه ! اظنّ انه من نسل الملوك . فيا حيف انه نصرانيّ . وانا كنت افهم اللسان الكردي مثلما افهم اللسان العربي . ولكني ما اظهرتُ ذاتي اني اعرف . وبعد ما حكى مع المونسنيور زماناً طويلاً وكان جميعهم ساكتين التفت الى رئيس الكروان وقال له قدّم واعطِ حقّ الاحمال . اما رئيس الكروان فكان قد [٥٣] اخذ معه هدية الى الامير تساوي عشرين قرشاً فقدّمها له مع مائة قرش . فقال له ان عندك ثمانين حملاً تعمل مائة وستين قرشاً . فهذه مائة اعطِ ستين قرشاً اخرى . فاعطى الرئيس عشرين قرشاً فقال له الامير يبقى عندك اربعون قرشاً . اعطِ العشرين وانا اخشَشك العشرين قرشاً . فتقدّمتُ انا من الامير وبستُ يده وقلت له هذه العشرون تخششها لي انا . فقال وهكذا يكون . ثم قال لي وكم حملاً عند سيّدك ؟ قلت عشرة . فقال لا تعطِ شيئاً للرئيس . ثم اوصى الرئيس ان لا يأخذ مني شيئاً [٥٤] . غير ان الرئيس كان قد اخذ مني قبل يوم حقّ الاحمال . فبعد ما ردني طلبنا منه دستوراً حتى نروح . فقال لنا اصبروا تعشّوا . فصبرنا وجابوا المائدة ووضعوها . فنزل من الصفّة وجلس في راس المائدة واجلس المونسنيور عن يمينه وعمه عن يساره واجلس باقي التجار كل واحد في رتبته .

ولما كان يتعشى كانت تُضرب له النوبة بالطبول والزمور والنفير كعادة الملوك . فبعد ما تعشّينا وشربنا القهوة قام عمه ابرهيم بك واخذ المونسنيور والحكيم وانا ونزلنا الى حجرته وبقي يتكلم مع المونسنيور ويسأل ايضاً الحكيم [٥٥] عن مرض كان به . ثم بعث الامير خادماً الى عمه يقول له

باللسان الكردي ان لا يترك المونسنيور والحكيم يذهبان بل يبقيان عنده كم يوم لينا الحكيم يطبب ابنه المريض . فقلت للمونسنيور عمّا يتكلمون فقال لي قل لابرهيم بك حتى نقوم نروح بدستوره[١] فقال لي ابرهيم ان الامير اوصى ان تبقوا عنده كم يوم . لكي يعالج الحكيم ابنه لانه مريض . فاعتذر الحكيم وقال ما عندي الآن حوائج الادوية لانها في ايروان . ثم اني توسلتُ الى ابرهيم بك [٥٦] ان يطلقنا . فقام واخذنا وصعدنا عند الامير. وكان الوقت الساعة الاولى من الليل . فدخلنا اليه وكان عنده اثنان اعني كاتبه وخازنه. فاجلس المونسنيور جنبه[٢] وابتدأ يحكي معه مدّة نصف ساعة . وسألني قائلًا : انت ما انت فرنجي ؟ قلت لا بل انا من بلاد الترك . قال وكيف استخدمت عند هذا المطران ؟ قلتُ اني كنت اعرفه . ولاجل فضائله خدمتُ عنده . قال ارمني انت ام سرياني ؟ قلت انا سرياني . قال تعرف تقرأ السرياني وتكتب ؟ قلت نعم . فاحضر لي دواة وقلماً وقال اكتب لي الف باء باللسان السرياني [٥٧] فكتبتُ . ثم قال لي هل تعرف الكلداني ؟ قلت نعم . فكتبتُ له بالكلداني . قال تعرف العربي ؟ قلتُ نعم . فكتبت له بالعربي والتركي والفارسي . قال اتعرف الارمني ؟ قلت لا . قال ما لنا حاجة الى الارمني لانه عندنا ارمن كثيرون . ولكن اقعد عندي وعلّمني السرياني والعربي فاعطيك كل شهر عشرة غروش وكسوتك . واعطيك خادماً وفرساً . وتكون عندي كواحد من خواصي معززًا مكرّماً . ولا تخف لاني انا احبّ النصارى كثيرًا . فقلت له يا سيدي كيف اقدر اترك سيدي في هذه البلاد الغريبة وحده . وانا لسانه وما عنده احد غيري . لكني اذا وصلته الى مكان يكون فيه [٥٨] احد يعرف اللسان فحينئذٍ أتركه واجيء اليك . وطالت المصاحبة بينه وبين المونسنيور .

١) برخصته. ٢) قريباً منه

(لها تابع)

شذرات

دروس الآداب الشرقية

معهد جديد في جامعة القديس يوسف

لقد انشأت جامعة القديس يوسف، في هذه السنة الدراسية ١٩٣٣—١٩٣٤، معهداً جديداً « لدروس الآداب الشرقية » غايته التعمق في دراسة العلوم اللغوية والآداب والتاريخ والآثار القديمة، وفقاً للاحتياجات الفكرية في الشرق الادنى. وافضل تفصيل لماية هذا المعهد ان ننشر البيان الذي اذاعه حضرة الاب كوستا دي بورغار رئيس الجامعة وهو :

تفتتح جامعة القديس يوسف في شهر تشرين الثاني من السنة الجارية ١٩٣٣ « دروساً في الآداب الشرقية »، وهي واثقة من انها، وقد ظهرت الرسالة الحبرية المستهلة بالعبارة الآتية « Deus Scientiarum Dominus »، الداعية الجامعات الكاثوليكية الى توسيع فروعها، تقوم بعمل نافع بانشائها فرعاً عالياً لدراسة العلوم اللغوية والآداب والتاريخ وعلم الآثار القديمة وفقاً للاحتياجات الفكرية في الشرق الادنى.

ويثابر اليوم محبّو العلوم، في العالمين القديم والجديد، على التوغل في هذه الدروس الشرقية، لما يجدون فيها، بكل صواب، من تدريب لا بد منه الى ثقافات ذات فائدة تُجلى في تاريخ الديانات والشعوب السامية، وفي تاريخ صدر النصرانية والاعصار الاولى للكنيسة، وفي معرفة كنه الاسلام بل الشرق الحالي. ومع ذلك لم يكن لها حتى الآن الرواج الموصوف نفسه في الخانات الشرقية، حيث تفرّدت العقول السامية وحدها في ان تقدر ابحاث العلماء الاوربيين في هذا الشأن، حق قدرها. وكانت كلية القديس يوسف ترى انها، سعياً وراء ايجاد صلات تربط الشرق بالمستشرقين، قد بذلت جهدها المستطاع بان انشأت في السنة ١٨٩٨ مجلة « المشرق »، ثم « المعهد الشرقي » الذي استمر

من السنة ١٩٠٢ حتى السنة ١٩١٤ ، ثم مجموعته المعنونة « مؤلفات شتى » (Mélanges) ، التي ما زال يُتابَع نشرها منذ السنة ١٩٠٦

على انه لا بد من خطوة جديدة في هذا المضار . فان التاريخ والادب الشرقيين قد اصبحا ، بفضل تقدّم التعلم الثانوي لدى النشء ، ميراثاً بديعاً ليس في الوسع التخلي عن استثماره للعلماء الاجانب وحدهم ؛ فكان من الموافق ، والحالة هذه ، تمهيد الصعاب امام هذه النخبة من مفكري الشرق ، كيما تتمكن من ادراك النتائج التي قد وصل اليها المتخصصون بالعلوم الشرقية ، ومن احتذاء طرق الاجتهاد العلمي المؤذن بارتقاءات جديدة.

تلك هي الغاية الاولى من «دروس الآداب الشرقية » ، التي تهمّ ايضاً بعضاً من الاوربيين المقيمين في الشرق ، كما تهمّ ايضاً اساتذة المدارس الذين يلجئهم نظام البكالوريا اللبنانية والسورية الى تدريس التاريخ المحلّي ، والآداب ، والتاريخ ، والفلسفة العربية.

اولئك هم الاولى يُقدَّر لهذا التعليم الجديد ان يجمعهم حوله . وستلاقي هذه الدروس تأييداً قيّماً بما يأتيها من المعاونات ، ولاسيما من قبل المعهد الفرنسي في دمشق .

على ان فرعنا هذا ، وان لم يكن ليتشبه بالمعاهد العليا للدروس اللغوية والادبيّة المنشأة في البلدان الاخرى ، فانه يسترحي برامجها . فعلى مثالها يؤثر على « الفصول » ، اي الابحاث التي تقرب النظريات الصعبة من فهم الجمهور ، منهاج الامثولات او المحاضرات الفنية ، التي تتوخى بنوع خاص ارشاد الدرس الشخصي والتخريج في نقد النصوص وتفسيرها . وقد يفضي الدور الدراسي عند نهايته الى شهادة ذات صفة تمنح بعد تأدية الامتحان.

وسيُنشر في مجلة المشرق بعض ما يلقى من « دروس الآداب الشرقية ». فان هذه المجلة سيحوّر نسقها ابتداء من ك ٢ في السنة ١٩٣٤ وتصبح لسان حال للمعهد الجديد ، مما لا يمنعها من ان تواصل ، بمقالاتها ونشرياتها وما تعالجه من وصف المؤلفات ، تنشيط حركة التعاون العلمي بين الشرق والغرب[1] .

١) يرى المطالع في الجزء الحاضر من « المشرق » نوعية هذا التحوير.

يلي ذلك تعليقات متنوّعة مما قد جمّ القراء الكرام الاطلاع على بعضها :

عُهد الى الاب رينه موترد، كنشليار مكتب الحقوق الفرنسي، في ادارة «دروس الآداب الشرقية».

تُلقى هذه الدروس في بناية معهد الحقوق والهندسة الفرنسيّين بشارع هوثلين، عادة من الساعة ١٨ الى الساعة ١٩، بمعدل ساعتين الى اربع ساعات في كل اسبوع.

ويكون موعد الدرس الافتتاحي الاربعاء ٢٢ ت ٢ من السنة الحاضرة ١٩٣٣، وتختم الفصول في نحو ١٥ ايار.

وهذا تفصيل منهاج الدروس في السنة الحالية : (١

١ً : الفلسفة والآداب السامية

تاريخ الآداب العربية :

عواصم الادب العربي : السلسلة الاولى : بغداد عاصمة الادب العباسي
١٥ امثولة يلقيها فؤاد افرام البستاني، استاذ الآداب العربية في جامعة القديس يوسف.
من ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٣ الى ٢٢ آذار ١٩٣٤ (٢

٢ً : التاريخ

تاريخ سورية في العصر اليوناني - الروماني.
٨ امثولات يلقيها الاب رينه موترد اليسوعي. من ٢٢ تشرين الثاني ١٩٣٣ الى ٢٤ كانون الثاني ١٩٣٤ (٣

٣ً : علم الآثار القديمة

١ – الفنّ المسيحي في سورية.
٦ امثولات يلقيها جان لاسوس، استاذ في الادب من الجامعة الفرنسوية، وعضو المعهد الفرنسوي في دمشق. من ٣١ كانون الثاني الى ٢ آذار ١٩٣٤

---

١) لم يذكر في هذا المنهاج فصل اللغة العبرية ولا فصلا اللغة السريانية التي يلقيها الابوان بولس موترد ولويس رينوله في معهد القديس فرنسيس كسافاريوس الاكليريكي الشرقي.

٢) نشرنا في هذا الجزء الامثولتين الاوليَين من هذه السلسلة.

٣) نشرنا في هذا الجزء الامثولة الاولى من هذه السلسلة.

ب — الطقوس والعادات المدفنية في فنيقية.

٦ امثولات ، او زيارات للمتحف ، يلقيها الامير موريس شهاب ، امين المتحف الوطني اللبناني . من ٧ اذار الى ١٨ نيسان ١٩٣٤

٤ً : علم الشؤون الارمنية

دروس مقابلة في البيئة الارمنية منذ اصولها حتى الفتح العربي.

٩ امثولات يلقيها الاب جان مصيريان ، الاستاذ في كلية اللاهوت من جامعة القديس يوسف . من ١٢ كانون الاول ١٩٣٣ الى ٢٧ شباط ١٩٣٤

٥ً : تاريخ الكنائس الشرقية القديمة ومؤسساتها

اللغات الطقسية ، وامكنة العبادة.

٦ امثولات يلقيها الاب جان مصيريان . من ٦ آذار الى ٢٤ نيسان ١٩٣٤

حول مقال «القضاء في لبنان»

كتب الينا احد القراء الكرام في جونيه ، تعليقاً على ما ورد في القسم الاخير من مقال «القضاء في لبنان بزمن الامراء الشهابيين» للاستاذ عيسى اسكندر المعلوف ، المنشور في «مشرق» كانون الاول الفائت (ص ٨٢١–٨٣٢) ، جاء فيه ما ننشره شاكرين:

«اولاً — ان كنية الشيخ احمد تقي الدين القاضي في زمن الامير بشير هي ابو حسين ، وكنية ابي صالح هي لولده الشيخ سلمان[1].

ثانياً — ان الشيخ حسين حماده القديم لم يكن شيخ عقل ، بل كان موظفاً في معية الامير ، والشيخ حسن تقي الدين هو شيخ العقل وقتئذٍ.

ثالثاً — في آخر الصفحة ٨٩٢ خطأ وهو ان الذي عُين عوض الشيخ محمود تقي الدين هو الشيخ سلمان تقي الدين ابن الشيخ احمد . وهو ابن عم الشيخ محمود لا شقيقه . لان الشيخ سلمان لم يكن له سوى شقيق واحد هو الشيخ حسين جدّ الشيخ احمد تقي الدين حاكم صلح جونية الآن .»

١) هذا الخطأ نتج من سقوط عبارة بين سطرين من المقال ، وقد نُبّه الى الامر في الصفحة ٩٦٨ من الجزء نفسه.

مطبوعات شرقية جديدة

Carl Watzinger, **Denkmaeler Palaestinas**. Eine Einführung in die Archäologie des Heiligen Landes. I, Von den Anfängen bis zum Ende des Israelitischen Koenigszeit. VIII+117 pp. In-8°, 10 fig. dans le texte et 88 sur 40 pl. Hinrichs, 1933.

الآثار الفلسطينية
توطئة لدرس الاثريات في الارض المقدسة : الجزء الاول

نعم الفكرة فكرة خطرت لمؤلف هذا الكتاب ، العالم الاستاذ في جامعة توبنگن ، فرأى ان يجمع ، في سبيل جمهرة القراء ، صور اشهر الآثار المكتشفة في فلسطين منذ الحرب الكبرى خاصة ، فيوردها حسب التسلسل التاريخي منذ اقدم العصور حتى العهد الروماني ؛ ويصفها وصفاً يظهر فائدتها الجزيلة لتاريخ تلك البلاد ، ولاسيما لفهم نصوص الكتاب المقدس. وقد جعل مؤلفه جزءين بين يدينا الاول منهما منتهياً بآخر ملوك اسرائيل ؛ والثاني قيد التأليف.

ولا يخفى ان الكثيرين من علماء الكاثوليك والبروتستان قاموا ، منذ مدة طويلة ، بجهود جمة في اطلاع الجمهور على حالة الاكتشافات الفلسطينية وتقدمها . على ان مؤلفاتهم لا تغني عن الكتاب الحاضر ، وهو قبل كل شيء عمل عالم اثري بارع شاهدته سورية ، قبل الحرب وفيها ، يجوس ارضها منقباً في فلسطين ودمشق وتدمر ، فضلاً عن مشاركته في متنوّع المؤلفات عن هذه البلاد . ومن مزايا مؤلفه الحالي انه آخر ما ظهر في الموضوع ، وقد بزّ كثير من الاكتشافات الحديثة ، فعرفها الكاتب واستفاد منها كالاكتشافات المتعلقة بزمن العصر الظرّاني ، وباقصى الازمنة السابقة للتاريخ ، وبتوقع « تليلات غسول » . ومن مزاياه ان فيه كثيراً من النظرات في المقابلة بين الآثار الفلسطينية وما في البلدان المجاورة كسورية ، ومصر ، وآسية الصغرى ، والعالم الايجي ، مما لا نراه دائماً في المؤلفات السابقة . فضلاً عن كثرة الرسوم والصور الضرورية

في تأليف من هذا النوع. والمؤلف يرمي الى اظهار توطئة او تمهيد لدرس الاثريات في الارض المقدسة، ليس غير. واذاً، فيمكننا القول انه ينال حقاً غايته هذه.

وان يكن لنا من ملاحظة نبديها فاننا نشير الى ما في الكتاب من ايجاز شديد، وازدحام في المواد كان من السهل تلافيه بوضع التقاسيم والعناوين الصغيرة. ولكن هذه الملاحظة تنوية بالنظر الى ان الكتاب ليس تأليفاً منظماً في الاثريات الكتابية. وكذلك يمكن ان تختلف والكاتب في عدة آراء. الا ان حكمه يظل رزيناً وعلى قسط من التحفظ في غالب الاحيان.

اما مظهر الطبع والتصوير فحسن يحق للناشر ان يُهنأ عليه. س. ر.

A. Reubeni, Shem, Ham and Japhet. The Peoples of the Bible, their racial connections and place in Ancient History. A Summary, 14 pp. in 8°, Tel-Aviv, 1932.

سام وحام ويافث

اهدى الينا المؤلف هذا الملخص الانكليزي لكتاب وضعه باللغة العبرية الحديثة، وهو واضح كافٍ للدلالة على موقف المؤلف من موضوعه، وان يكن اخصر من ان يطلعنا على براهينه وقيمتها.

من المعلوم ان سلسلة الانساب الواردة في سفر التكوين لا تزال عرضة لكثير من الشروح والتأويلات، ولا تزال غامضة على كل ذلك. وها ان المؤلف يزيد طريقة جديدة للتأويل قوامها ان يُنيل بعض الاعلام قيماً جنسية او شعبية تقوده حتى يحدّد آفاق النصوص الكتابية في آسية وحدها. وهي نتيجة عرضة لكثير من النقد مرتكزة على براهين هي نفسها غير ثابتة. من ذلك ما يستند اليه من المطابقة بين «الخبيريين» و«العبرانيين»، والمقاربة بين «الاخلاميين» و«الايلاميين». س. ر.

Urbanus Holzmeister, S. I., Chronologia vitae Christi. Vol. in 8° de XII+246 pp. Rome, Institut Biblique, 1933, Prix : 16 lires

توقيت حياة المسيح

ان السنة اليوبيلية الحاضرة لفتت نظر الكثير من العلماء الى تاريخ آلام السيد المسيح في اي سنة حصلت، والى درس توقيت حياته اجمالاً. وكان

الاب هولزميستر اليسوعي قد قام، منذ مدة طويلة، ببحث دقيق في هذه المسألة على اختلاف وجوهها؛ فمثل كتابه للطبع. وهو اثر يفوق، دون شك، اكثر ما ظهر من المؤلفات في الموضوع، ان لم نقل كلها، بما فيه من التدقيق وسعة المعلومات. والمؤلف يعتبر، مع كثير من الاختصاصيين، ان التاريخين الممكنين لوفاة المسيح على الصليب هما السنتان ٣٠ و٣٣ من تاريخنا الجاري، على انه يميل الى ترجيح السنة الثلاثين. ب. موترد

Aug. Merk, S. I., **Novum Testamentum graece et latine apparatu critico instructum.** Vol. in-16 de 36+854 pp., 4 cartes géographiques. Rome, Institut Biblique. Prix, relié toile : 16 lire.

العهد الجديد باليونانية واللاتينية

تظهر هذه الطبعة العلمية الجديدة مشابهةً لطبعات تيشندورف وفوكلس ونستله في ما خصّ حجم الكتاب اللطيف وثمنه البخس، فتفيد الكهنة والاكليريكيين، وغيرهم من الطلاب، نصاً صحيحاً للعهد الجديد بلغته اليونانية الاصلية وباللغة اللاتينية ايضاً. اما النص اليوناني فحُقّق من جديد بكل دقة وامانة، وبالاستناد الى كل المصادر الممكنة. واما النص اللاتيني فهو نص الترجمة الجارية المعروفة. والكتاب مزدان بظاهر النقد الكاملة التي تسهل على المطالع ان يعرف بسرعة وسهولة جميع الاختلافات المهمة في النصين المذكورين. ولا شك في ان هذه الطبعة، بما تمتاز به من الصفات المذكورة، تفوق الطبعات السابقة، وتُفضَّل عليها. ب. م.

Solomon Grayzel, Ph. D., **The Church and the Jews in the XIII[th] Century.** Vol. gr. in-8° de X + 377 pp. Prix, broché : 3 dollars, Philadelphia, the Dropsie College, 1933.

الكنيسة واليهود في القرن الثالث عشر

هذا الكتاب أُطروحة للدكتوراه جمع فيها المؤلف كثيراً من الوثائق، واستند اليها مختصراً في ثمانين صفحة علاقات يهود اوربة بالسلطات الكنسية وبالكرسي الرسولي خاصة في القرن الثالث عشر. ثم سرد منتخبات من

مراسلات الاحبار الاعظمين ، ومن قرارات المجامع . سردها بلغتها اللاتينيــة الاصليّة ثم ترجمها الى الانكليزية . على اننا رأينا في الترجمة وهناً يقود المترجم احياناً الى عدم التدقيق في التعبير عن المعاني الثنوية ، وقد يقوده الى سوء الفهم لمخالفة الاصل . مما يدفعنا الى السؤال عن هذه النصوص والوثائق الثمينــة لو وقعت في مقدور مؤرخ اوفر تضلعاً من دقائق اللاتينيّة في ذاك العصر ، الا يكون استخرج منها نتائج اغنى وادق مما استخرجه مؤلف هذا الكتاب ؟ على ان مما يشفع بالمؤلف حسن نيّته ورغبته في فهم الاسباب الاصلية في هذا الخلاف الظاهر بين المسيحيّين واليهود. ك. ب. هيوز

Chanoine Henri Morice, La voix du Crucifix. In-12, 224 pp. Aux éditions de l'Evangile dans la vie, Paris XVII. Prix : 10 f[r].

صوت المصلوب

كل ما يظهر من الكتب الدائرة مواضيعها حول السيّـد المسيح يأتي في حينه في هذه السنة اليوبيليّة ، ولاسيما اذا اختص كهذا الكتاب بذكر الصليب وتعاليمه التي لا تزال حيّة في نفوس مئات الملايين ، انما هي بحاجة الى ايقاظ وتنبيه باسلوب شائق لطيف كاسلوب المؤلف. ج. ل.

Johannes Friedrich, Ras schamra. Ein Ueberblick über Funde und Forschungen. [*Der alte Orient*, 33, 1/2]. In-8°, 38 pp. 13 fig. sur 8 pl. Hinrichs, 1933.

راس شمرا
نظرة في المكتشفات والتنقيبات

يحقّ لقرائنا الشرقيّين ان يفتخروا بالآثار المكتشفة في « مينة البيضا » وفي « راس الشمرا » قرب اللاذقيــة شمالاً ، ويحقّ لهم ان يفتخروا كذلــك متى عرفوا ان عالماً المـانياً بالاشوريات والاثريات رأى ان يطلع جمهور المثقّفين في بلاده على هذه المكتشفات فكتب رسالة موجزة ، انما جامعة ، لخصت ، مع ايراد الرسوم الضرورية ، تاريخ الحفريات في ذاك المحل الذي نال شهرةً بعيدةً منذ السنة ١٩٢٨ ولم يكن قبل ذلك ليذكر اسمه على ايّ خارطة من خرائط فنيقية . الا انهم يأسفون اذ لا يرون في اللغة العربيّة مـا يماثل هذه الرسالــة

الموجزة . بل اننا لا نكاد نرى ما يماثلها في اللغة الفرنسوية نفسها . من الحق ان مجلة «سيريا» المعروفة تُعنى بجميع هذه المكتشفات فتدوّن نتائج الحفريات شيئاً فشيئاً ، وتنشر ما يؤلف فيها من ابحاث . الا ان المؤلفين في فرنسة قد ينتظرون اختتام التنقيبات ، وخصوصاً نشر ابحاث المنقبين النهائية ، ليأخذوا منها الملخصات في سبيل جمهرة القراء . هذا ومما يؤسف له حقاً اننا لا نرى في هذه البلاد نشرةً واحدة باللغة العربيّة تُختص بعلم الآثار . نعرف المجلة الحلبيّة التي تدعو نفسها «مجلة العاديات» ونعرف ان فيها قسماً مكتوباً بالعربيّة ؛ على ان هذا القسم الضئيل جدًّا تحرّره اقلام ليست على شيء من الاطلاع والتضلّع . بل ان ما يُثير الاسف ، فوق ما تقدّم ، ما نتحقّقه من اعراض السوري اعراضاً تامًّا عن ماضي بلاده الاثري والتاريخي ، وهو ذاك التاجر المتفوّق الماهر في بيع القطع الاثرية ! . . . «حط بالخرج !»

اما بعد فان مؤلف هذه الرسالة يلخّص حالة الحفريات ، ويصف طبقات الارض محاولاً تقدير توقيتها . ثم يعرض لذكر النصوص المسمارية المكتشفة ، وبعضها باللغة البابليّة ، وبعضها بلغة لا تزال مجهولة ، والبعض الآخر ، وهو اكثرها ، بلغة ساميّة قريبة جدًّا من اللغة الفنيقيّة القديمة وهي مكتوبة بحروف ابجدية على كونها ظاهرة بالمظهر المسماري ، وذلك ان عدد هذه الحروف لا يتجاوز التسعة والعشرين . وكل هذه النصوص الاخيرة في موضوعات دينيّة وميثولوجية ترتقي الى القرن الثالث عشر ق . م . ولا يُعرف شيء عن تاريخ راس الشمرا في ما سبق هذا العصر الا ما يُرجح من انها كانت تُدعى «اوجريت» وكانت تلك المدينة على غاية من الازدهار في القرن الرابع عشر . ثم خربت في نحو السنة ١٢٠٠ ، ولم تستعد عمرانها الا بجهد . وقد دلت الآثار المكتشفة على انه كان لها علاقات ، لا مع جيرانها الاسيويين كالحثّيين والميتانيّين فحسب ، بل مع قبرص والعالم الايجي ايضاً بواسطة التجارة . ولا يفوت المؤلف ان يعرض مثالاً مما تشتمل عليه تلك النصوص . وهو يصف ايضاً التماثيل الالهية المكتشفة ويلخّص ما يُعرف عن ديانة ذاك المكان . هذا وبالامكان ان نعدّد الملاحظات على بعض من هذه النقاط الثنوية . على ان الملخص حسن بجمله .

ولا ننسَ ان الحفريات لم تنتهِ بعد فتنتشر نتائجها. س. ر.

Jamil Ibrahim Abou-Khater, La condition des étrangers en Syrie et au Liban. In-8° de 166 pp. Paris, Librairie générale de Droit et de Jurisprudence, 1933

حالة الاجانب القضائية في سورية ولبنان

انها لحالة ممتازة! هي النتيجة التي يصل اليها مطالع الكتاب برفقة مؤلفه اذا جال في هذا التأليف الوافر المعلومات. على ان هذا الامتياز يستند الى اسباب وظروف لا ينكرها المؤلف. ولكنه يتمنى زوالها يوماً.

ولا يمكننا الا ان نوافقه على تمنياته، فينال الجميع تلك المساواة التي طالما سمعوا باسمها ويكون من اشهى تمنياتهم ان يروها محققة بالواقع. ج. ل.

H. St. J. B. Philby, The Empty Quarter. Vol. in-8° de 458 pp. Prix, net: 21 shillings. Constable, Londres, 1933.

الربع الخالي

يعلم قرَّاؤنا الكرام ان مؤلف الكتاب، وهو من قدماء موظفي الهند، قام، تحت رعاية ابن سعود برحلة في بلاد العرب على مسافة ثلاثة آلاف كيلومتر. فكانت، على ما نعتقد، اول رحلة علمية تنظمها حكومة الوهابيين. اما غايتها فارتياد مجاهل تلك الصحراء المنبسطة في جنوبي جزيرة العرب، والمعروفة باسم لا يخلو من اثر في نفس المسافر، وهو «الربع الخالي». سارت قافلة المؤلف الصغيرة اوّلًا من الغرب الى الشرق فوصلت الى خليج العجم قرب سلوى. ثم اتجهت نحو الجنوب حتى حدود حضرموت. ومن هناك اندفع المؤلف ورفاقه، بجرأة فائقة، في الصحراء الحقيقية، في تلك المنطقة المقفرة التي يجهلها البدو وتهجرها الغربان نفسها. وقد قضوا في تلك المجاهل تسعة ايام كاملة. فنال المستر فلبي غايةً كان يرمي اليها منذ سنوات، وقام باعجب مغامرة معروفة في تاريخ ارتياد جزيرة العرب.

وقد دوّن الرحالة حوادث مغامرته بلغة لطيفة لذيذة. فتوفق بان جمع بين وضوح تقرير ضابط الاستخبارات، ولذة المحدّث المعجب، ذاك الذي يشاهد

ويراقب كل ما يراه من بشر وحيوان وجماد فيميل اليه ويجتهد في فهمه .
فكان لكتابه فوائد جمة . يتناوله العالم النفسي الذي يدرس اخلاق البدو
فيجد فيه ملاحظات واحكاماً جديرة بلفت نظره ؛ ويرجع اليه الجيولوجي
فيستفيد اكتشافات جديدة متعلقة بالرجوم والنيازك . على ان فائدة الكتاب
العظمى انما هي في محيط الجغرافية ، لما جمع في ذلك من معلومات نفيسة
تكملها خارطتان قيّمتان . ويزيّن النصّ عدد من الصور المتقنة يبلغ الخمسين .
وهناك آثار متفرقة من جماد ونبات جمعها الرحّالة فحللها اختصاصيّو الطبيعيات
والجيولوجية وفروع التاريخ الطبيعي ، ودرسوها ودونوا نتيجة دروسهم في
سلسلة من الابحاث أُلحقت بالكتاب . ك . ب . هيوز

JOSEPH SCHACHT, Zu meinem Islam-Lesebuch. [*Religionsgeschichtliches Lesebuch*, Heft 16]. In-8°, 27 pp. Tübingen, J. C. B. Mohr (Paul Siebeck). Prix : 1 M.

حول كتابي في « القراءة الاسلامية »

كان مؤلف هذه الرسالة قد نشر مجموعة المانية انتخب نصوصها من
المصادر الاسلامية المهمة وهي الحديث والفقه والصوفية ، وغايته العمل على
بسط المعلومات عن الديانة الاسلامية . فحمل على هذه المجموعة النقّاد المتشدّد
الاستاذ اوغست فيشر حملة شعواء مبيّناً ان فيها كثيراً من سوء الفهم
والاغلاط . فرأى المؤلف ان يردّ عليه بهذه الرسالة حيث يُقرّ بثلاثة او اربعة
اخطاء بدرت منه سهواً . اما ما تبقّى من الشروح والترجمات فيتثبّت بها مبيّناً
ان اصلاحات الناقد المزعومة ان هي الا ترجمات مقابلة او مرادفة لترجماته هو .
هـ . ل .

L. MASSIGNON, Salmân Pâk et les prémices spirituelles de l'Islam iranien. [*Publication de la Société des études iraniennes et de l'art persan*, n° 7]. In-8° de 52 pp. Tours, Imprimerie Arrault et Cie, 1934.

سلمان الفارسي واوائل الروحانية في الاسلام الايراني

طالما شكّ كثير من المستشرقين في حقيقة ما يُنسب الى الصحابي سلمان
الفارسي ، بل في وجوده نفسه . وقد اتانا الاستاذ ماسينيون بمحاضرة مشحونة

بالملومات المتراكمة المزدحمة حتى الغموض ، على انها تعيد النظر في تلك المشكلة وتبرهن على ان سلمان المذكور قد وُجد حقيقة . وان من يطّلع على ما تنسب الفرق الشيعيَّة الى سلمان من دور عظيم لا يعجب اذ يرى هذا الدور يرتقي في نظام النصيرية الديني حتى يكاد يبلغ درجة الالوهية . هـ. ل.

Edouard Montet. **Choix de proverbes, dictons, maximes et pensées de l'Islam.** In-12, 205 pp. Paris, Librairie orientale et américaine G. P. Maisonneuve. Prix : 20 fr.

منتخبات من الامثال والاقوال والحكم والاراء الاسلامية

ان نسبة هذه الامثال والحكم ... العربية اللغة الى الاسلام تكفي وحدها للدلالة على ضعف النقد . بيد ان تحقق هذه النسبة صعب شاقّ يتطلّب جهودًا طويلة . ولقد كان بمقدور المؤلف ، ولم تحقَّق هذه الجهود بعد ، ان يسير على اثر من استقى منهم من المؤلفين الاقدمين كاصحاب « المجموعة العربية » و« المنتخبات العربية » و«الامثال العربية » . اما المنتخبات في الكتاب الحاضر فمقسومة الى اربعة اقسام : الحياة ، والاخلاق ، والدين ، وانواع شتى . وفي كل منها بعدد الامثال والحكم والآراء . على طريقة تظهر كذلك ضعف النقد الذي اشرنا اليه . واي فائدة مثلًا في ذكر فكرة شاملة للانسانية جمعاء ، يوردها المؤلف دون اسناد كما في القول : « العمل يزيد البحبوحة » او « اغتنم الفرص » . وهو يورد الحكمة التالية : « الخمر مفتاح الشرور جميعها » ويشرحها بقوله : « ان الخمرة تنسي شاربها الشرور جميعها . » وهي كما لا يخفى تحتمل شروحاً عديدة . ولا يمكن الرجوع الى النص الاصلي لفهم المقصود ، لان المؤلف لم يشر الى الاسانيد . ج. ل.

W. H. Ingrams, **Abu Nuwas in life and in legend.** In-8°, VIII + 96 pp. Privately printed, Port Louis, Mauritius, 1933. [Chez Luzac, à Londres, 3 s. 6 d].

ابو نواس : في التاريخ وفي الاسطورة

يختص القسم الاول من هذا الكتاب بدرس ابي نواس : الرجل التاريخي والشاعر العباسي . يلي ذلك محاولة في ترجمة شعره الى الانكليزية شعرًا ،

وسرد لبعض الحكايات التي شوهت تاريخية الشاعر منذ القديم فولدت ابا نواس مزيفاً . وكان من نصيب المؤلف انه اقام مدة طويلة في جزيرة زنجبار فسمع فيها كثيرًا من الاساطير الدائرة حول شخصية ابي نواس المجونيـة على طول الشاطئ الافريقي الشرقي ، فحفظها ونقلها الى الانكليزية واودعها القسم الاخير من كتابـه . ولا شك في ان هـذا القسم اوفر اقسام الكتاب قيمة وطرافة اذ يظهر كيف عملت تلك الحكايات على التـأثير في عقليـة الجمهور فحوّلت في نظرهم ذاك الشاعر التاريخي المعروف الى شخصيّة زائفة من شخصيات « الف ليلة وليلة » ، فالى شخصيّة اسطورية محضة في شرقي افريقية.

ويذكر المؤلف بكل بساطة ان درسه لابي نواس ابعد من ان يكون كامـلًا . وهذا النقص كان من الاسباب التي منعته من وضع الكتاب في التجارة . على ان هناك سبباً آخر يذكره المؤلف ولعله اهم من السبب المتقدم. وهو ما في حكايات القسم الثاني من تطرف في المجون يمنعه من طرحه بين جميع الايدي.

ك. ه. هيوز

Pierre Montet, Les nouvelles fouilles de Tanis 1929-1932. [*Publication de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, Deuxième série, vol. 10] Paris, Belles-Lettres, 1933. Prix : 50 f^{s}.

حفريات تنيس الجديدة

على مستوى القنطرة تقريباً ، وعلى ٤٢ كيلومترًا غربي قناة السويس ، تقع خرائب تنيس متسعة على نحو من اربعمائة هكتار ، ظاهرة عن بعد، لافتةً انظار العلماء من زمن بعيد حتى ان الحملة الفرنسوية على مصر باشرت الحفريات فيها. لكنها تركتها بعيد ذلك، وظلّت مهملة الى ان اعـاد العمل الاستاذ مونتـه فاستفاد مكتشفات وملاحظات جمة عرضها في المجلد الحاضر . منها قِدَم تنيس، وكونها مدينة اثاريس نفسها ثم مدينة پيك رعمسيس نفسها ايضاً . ومنهـا ما يفيد تاريخ خروج الاسرائيليين من مصر. ومنها ما يظهر اهمية النفوذ الاسيوي في تلك الناحية حتى ان الاله سيت الاسيوي كان الاله الاهم ، على عهد الرعاة «الهكسوس» ، وحتى عهد رعمسيس الثاني . وكذلك الالاهة الاسيوية أنتا التي

اظهرت الحفريات تماثيل من تماثيلها هما كل ما ظهر من ذاك النوع. هذا ويزدان الكتاب بـ ٩٠ لوحة تصويرية. ج. ل.

SBATH (PAUL), Le livre des temps d'Ibn Massawaih, médecin chrétien célèbre décédé en 857, annoté et publié pour la première fois. [Extrait du *Bulletin de l'Institut d'Egypte*, t.XV, session de 1932-1933].

كتاب الازمنة لابن ماسويه

هو نوع من الوزنامة الطبية يذكر فيه المؤلف باي يوم من الشهر وتحت اي تأثير من النجوم يجب ان يتناول الدواء الفلاني وما اشبه ... مما لا يقدم الطب في شيء، انما يفيد المعلومات الكثيرة عن الخرافات والمعتقدات الشعبية العامة. ولقد كان على الناشر ان يبرهن على صحة نسبة هذا الاثر لابن ماسويه بتدقيق اوفر مما قام به. هـ. ل.

J. L. MYRES, The Cretan Labyrinth, A Retrospect of Aegean Research. [*The Huxley Memorial Lecture for* 1933], *Journal of the Roy. Anthropolog. Instit.*, *LXIII*, 1933.

المتاهة الاقريطشية

ليس المقصود بهذا العنوان درساً للمتاهة الاقريطشية الشهيرة في آثار الاقدمين. انما هو لمحة تاريخية شاملة لما قام به الاثريون من الحفريات والتنقيبات، وما وصلوا اليه من نتائج مكنتهم من وصف ماضي العالم الايجي، ذاك العالم الذي مثل في محيط البحر المتوسط الشرقي دورًا في السياسة والفن لم يكن العلماء ليتصوروه قبل الحفريات العصرية. قام المؤلف، وهو من انشط العلماء، في الموضوع بعرض تلك المكتشفات عرضاً واضحاً، متتبعاً تغير الاحكام والاراء بتجدد نتائج الحفريات، معددًا الملاحظات الثمينة المفيدة لكل من له المام بالموضوع. على ان الكتاب مفيد كذلك، فائدة التمهيد، لكل من يرغب في الاخذ بهذه الدروس الجديدة، وهي ضرورية لا يمكن ان يستغني عنها اليوم احد من مريدي الابحاث التاريخية والاثرية في ماضي بلاد اليونان، بل في ماضي الشرق نفسه. س. ر.

حاضر العالم الاسلامي

نظر انتقادي بقلم الاب توتل اليسوعي

لوثروب ستودارد الاميركي نشر سنة ١٩٢١ كتاباً عنوانه The New World of Islam اي «العالم الاسلامي الجديد» نقله الى الافرنسية ابيل دوزيه سنة ١٩٢٣، ووصفه في المشرق حضرة الاب لامنس (٢١ [١٩٢٣] ١٥١) فقال في المؤلف انه، مع كونه ليس من المستشرقين، «لم تفته المعرفة الصادقة لاحوال الشرق».

ولفت الكتاب نظر ادباء الشرق، فنقله الى العربية الاستاذ عجاج نويهض وطبعه سنة ١٩٢٥ بعنوان «حاضر العالم الاسلامي». وكان الاقبال على اقتنائه مدعاةً لتجديد طبعه، فتمّت في السنة ١٩٣٣ وظهرت بمجلدين جميلين كل مجلد يحوي زهاء ٨٠٠ صفحة من القطع ٨ الكبير، والطبعة الثانية تمتاز عن الاولى بما فيها من فصول وتعليقات وحواشٍ عن احوال الامم الاسلامية وتطوّرها الحديث وهي بقلم من سمّوه «امير البيان والمجاهد الكبير»، الامير الدرزي شكيب ارسلان.

لنهنئ حالًا السادة عيسى البابي الحلبي وشركاءه، اصحاب مكتبة ومطبعة دار احياء الكتب العربية بمصر، على عناية بذلوها في تنسيق الطبع والباس المجلدين حلتها الارجوانية الملوكية مما يزيد في رونق الكتاب ويرغب في مطالعته، لولا الاغلاط المطبعية التي شوهت عدداً غير قليل من وجوهه لاسيما في الالفاظ الاعجمية اذا ما كتبت بابجديتها الاوروبية.

واننا لنسرّ ان يستحق اديب من ادبائنا اللبنانيين، وتلميذ مدرسة الحكمة المارونية البيروتية سابقاً (راجع ٢٤٢:٢) لقب امير البيان، لكننا لا نجرأ على مسابقة الايام واستعجالها في مبايعة الملوك والامراء، لان عالم الادب والبيان والشعر والنثر اوسع افقاً في الزمان والمكان من ان نحتكر ناحية من نواحيه لابن من ابناء زماننا. فحسبنا ان نترك لمن يأتي بعدنا القول الحكم في تقدير القيم الادبية على الاطلاق.

مواد الكتاب

قسم منها يُعزى الى ستودارد وقسم الى الامير شكيب ارسلان . فالاول يتناول الكلام على اليقظة الاسلامية وتأثرها بعوامل المدنية الحديثة ، وعلى الجامعة الاسلامية المحاولة ضمّ شمل المسلمين من جميع الاقطار تحت لواء الدين في وحدة الخلافة ووحدة القبلة ؛ وعلى النفوذ الغربي في العالم الشرقي ؛ وعلى العصبية الجنسية في الشرق ، وخاصةً في الهند ؛ وعلى التطوّر الاقتصادي والاجتماعي المتغلغل دبيبه في حياة الاسلام الحاضر ، مع انتشار المبادي الشيوعية في الاصقاع الواقعة تحت حكم الاوروبيين واستثارتها في النفوس روح القلق والثورة .

وان المؤلف الاميركي لا يواري ما في تصرف الغربيين وسياستهم من نقائص تحول دونهم ودون التآلف مع اهل الشرق ، ويأخذ من المؤلفات العصرية شواهد جمة مصداقاً لاقواله ، ويتكلم عن الاسلام بلهجة وداد اخذت من قلوب المسلمين مأخذها فذهبوا يطرئون كتاب ستودارد اطراء بلغ المبالغة . وجاوزها المعرّب اذ ادّى معاني الكتاب وافكاره بقالب خطابي مسهب ضافي الذيول ، حتى اخرج اللفظة الافرنجية باللفظتين العربيتين من غير ان يزيد بالمعنى . وهذا ما يعاتب عليه المترجم . فضلاً عن ان هناك مقاطع بكمالها لا يجدها القارئ في الاصل الافرنجي ، وعبارات عربية لا تفي بالمعنى المطلوب او تشوّهه تشويهاً ينمّ عن انحياز في نفس المعرّب ، وعواطف شخصية يكون منها المؤلف براء . فكلما سنحت فرصة في تسويد صفحة فرنسة او انكلترة ترى غلائظ الاوصاف تصطك صكاً فهو « الجشع والاستكلاب والسلاح والسيف والنار » للتعبير عن الالفاظ الافرنسية (٤ : ص ١٤٣-١٤٦) La manière forte. la cupidité. لكنها في عين القارئ العربي هنات لا تذهب برونق لغة فصحى نالت من الفكر الاميركي قوةً فظهر فيها كما يظهر العربي المشوق القامة المفتول الاعضاء زاهياً مهيباً اذا ما ارتدى لباس الشرق وجرّ ذيل الافتخار .

اما قسم الكتاب الثاني فهو بقلم الامير شكيب ارسلان ، وهو الزعيم

المعروف في تطورات حياتنا السياسية الشرقية ، منذ اوائل هذا القرن الى يومنا. وله من ذكرى الحوادث التي قلبت البلاد السورية ظهرًا لبطن منذ ظهور فتيان الترك على مسرح السياسة الى دخول تركية في الحرب العظمى وتقرير نظام الانتدابات ، ما يُفيد كثيرًا ويصبغ الكتاب بصبغة الابتكار . فقد اتصل الامير شكيب مباشرة او بالواسطة ، برجالات الاسلام العظام كجمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده ، والامام السنوسي ، وعبد الكريم الريفي ، وكبار قواد الترك وله مع بعض المتطرفين الغربيين ودعاة الانقلاب العام علاقات وصداقات شخصية ادّت له تعليمات قيمات على عناصر المشكل الكبير المطروح في زماننا امام المفكرين ممن يهمهم مصير الشرق.

ونحن[1] ، اذا ما تناولنا الكلام في المواد المجموعة في كتاب حاضر العالم الاسلامي ، فسوف نبدي فيها حكمنا كما ظهرت بقالبها العربي سوا. أتعزى الى ستودارد او الى الاستاذ عجاج نويهض او الى الامير شكيب ارسلان ؛ والنقد ليس على الاشخاص ولكن على المبادئ والافكار والاقوال الموضوعة تغذيةً لنفوس القراء ،فلا بد من اعمال الروية فيها تمييزًا بين السم والدسم والغثّ والسمين.

ونحن ايضاً شعارنا الوطنية

ولنسرّ ايضاً ونطرب في مطالعة كل مؤلف موضوعه شرقنا العزيز وتاريخه ومعرفة احواله . ونحن رجال الدين المسيحي ، على معرفتنا تام المعرفة البون الشاسع الواقع بين تعليم الانجيل وتعليم القرآن في مسائل جوهرية دينية ، لا ننفك نحنُ الى اخواننا المسلمين ، لان واجب الدين والوطنية يأمرنا بمصافاتهم وتحاشي مسّ ما تهتمّ له جوانحهم وجوانحنا نحن بكل عاطفة طيبة شريفة ورثناها واياهم ، ونحن كلّنا اهل بلاد واحدة تشرق علينا شمس سما. واحدة ، وتغذينا تربة ارض واحدة.

١) ولا نتكلم عن الفصول التي لا تدخل في موضوعنا كحياة محمد لدرمنغم وسائر ما جاء على الفتوح العربية وعلى احوال العالم الاسلامي مما يطول الكلام في تحجيمه . بل اقتصرنا على معالجة مشكل الوطنية السورية تجاه الجامعة الاسلامية.

فان يكن بين المسلمين مواطنينا دعاة للوطنية صادقون فنحن في مقدمتهم، واننا بواجب الوطنية لصادقون، على ان يسودنا مبدأ الوطنية الصادقة واسها العدالة والنظام والامن والسلام . ولكن اذا التبس الامر ودخلت البلاد في حكم سلطان غريب عنها، وكان ولا بد من الطاعة دفعاً لشر الفتن واتقاء الفوضى تحتم على من بيدهم مقاليد الشعب ان يختاروا بين الهولين الاصغر . حتى اذا استتب الامر تضافروا مع صاحب الحكم فاحسنوا التفاهم وفكوا المعضلات الناشئة طبعاً من احتكاك شعب بشعب ومصلحة بمصلحة .

فاذا ما حلَّ بين ظهرانينا اجنبي، معلماً او ضيفاً او سيداً، علينا الاتفاق معه طبقاً للظروف الامّارة، ودفعاً للشرّ الاعظم . وليس في ذلك خيانة نحو الوطن بل واجب يوحيه العقل والدين، وقد قال الرب يسوع : « اعطوا ما لقيصر لقيصر ! » مع ان قيصر كان وثنياً ايام كانت اليهودية في حماية الرومان . تلك المهمة الصعبة لم يعارض بالقيام بها سفرونيوس، بطريرك اورشليم لما عاهد عمر ابن الخطاب على صيانة حقوق البلاد الدينية، ومثله جناديوس، بطريرك القسطنطينية، عندما فتحها محمد الثاني سلطان الترك ؛ والبطريرك اللبناني الحويك لما تدخل في شؤون مصير البلاد في رعاية الانتداب .

ولعلَّ معارضاً يقابل بين هؤلاء الاحبار وبين غيرهم من بلاد الافرنجة ممن قاوموا بسلطتهم الادبية ونفوذهم سلطان الاجنبي . ولكن المقابلة لا تصحّ لما يوجد من فروقات بين حالتنا الجغرافية والاتنولوجية واحوال غيرنا من الشعوب . ما اشدّ ما يظلم الجو في اعين الناس اذا ما تبدلت دولة بدولة وحكم بحكم ! وان تكن تلك الانقلابات بعيدة مرامي التأثير خصيبة المشاكل في بلاد الله طرّاً فهي في بلادنا بحر من المعضلات، لا يسبر غوره، في مساحة من الارض كانت على مدى التاريخ وما زالت الى يومنا معبرًا لكل رائح وغادٍ من المشارق الى المغارب . فتعددت الروحات والجيئات، وكثر عدد المارّين حتى طغوا وذهبوا بوحدة البلاد الاهلية، فانقسم الملايين الثلاثة او الاربعة المكوّن منهم قطين سورية ولبنان وفلسطين الى امم صغار ومذاهب وطوائف ينيف عددها على الاثنتي عشرة طائفة . هذه حالتنا، شئنا ام ابينا، وتلك كانت على ايام ابدل

الحكم البيزنطي بالحكم العربي ، والحكم العربي بالحكم التركي ، والتركي بالافرنجي.

وبطبيعة الحال سواء اكان اتى من الشرق او من الغرب او من الشمال او من الجنوب ؛ فالفاتح فاتح ومهما يكن من امره فالنظام خير من الفوضى ، والوحدة افضل من التقسيم ، وان تلك الوحدة وحدتنا انما قوامها صاحب الامر عربياً كان او تركياً او افرنجياً.

وطنية الامير شكيب : الجامعة الاسلامية

بلاد الشرق هي وطن الامير شكيب الدرزي اللبناني. وافهم بلاد الشرق لا ما اعتدنا حصره بين القسطنطينية ومصر وخليج فارس من اصقاع يسمونها الشرق الادنى ، وهي موطن الشعوب السامية ومنبت عناصرها وبلادنا ووطننا حقيقة ، ولكن كل بلد تمثل فيها الدين الاسلامي بفئة مهمة من تباعه كالصين وجاوى والهند وفارس وبلاد افريقية الشمالية والوسطى وغيرها . وبهذا المعنى يرى الامير شكيب الدرزي ان الصيني او الزنجي المسلم هو اقرب اليه وطنية منا نحن المسيحيين جيرانه في بلاد لبنان وسورية.

تلك النظرية لم تكن مجهولة في الغرب على ايام الجامعة المسيحية السياسية ، اذ كان الحبر الروماني يقلد ملوك الفرنجة حقوق الملك ويربط الرعايا بطاعتهم . وازدهرت تلك الجامعة المسيحية السياسية خاصة في القرون الوسطى ، ثم تلاشت ولم تترك بعدها الا الجامعة المسيحية الروحية . وفيها حقيقة الكثلكة . بموجب مبدئها يشترك الكاثوليك بوحدة الايمان والطاعة لرئيس واحد ، لكنهم مع ذلك ينقسمون سياسياً الى امم وشعوب مستقلة مختلفة المصالح بعضها عن بعض.

اما الامير شكيب ، وهو من القائلين بالجامعة الاسلامية السياسية والدينية معاً ، حتى في القرن العشرين ، فيعتقد الآمال على ان يراها حية ظافرة ويحدّ حدودها بلاد الغرب او بالاحرى بلاد المسيحيين . وهو يرى في السياسة الاوروبية الحالية اعظم والدّ عدوّ لها فيسميها سياسة الاستعمار او الغرب ويدعو امم الشرق الى مناوأتها وكسر شوكتها.

وللجامعة الاسلامية انصار يتفاوتون غلواً في عرض مبادئها والدفاع عنها ؛ جاء في الكتاب الحاضر ذكر اسمهم وصدى اقوالهم ولا بد من الاشارة اليها لنكون على بيّنة من غرض الكتاب الاساسي قبل ان نرى رأينا فيه.

قال الامير شكيب في مقدمته (ص: ي):

« ان الشرق اجمع سينتبه من رقدته وانهُ كما شهد القرن العشرين استقلال اميركة باسرها فسوف تشهد بقية القرن العشرين استقلال آسية بعروقها وزرها وانه لا تمضي الثانون سنة الباقية لتام هذا القرن حتى يلي الاسلام بلاده ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده ... فلا مندوحة للامم الشرقية عن الاقتداء باليابان في التماس المنعة ومضارعة الدول الغربية في ارتياد العلم واقتباس الصنعة حتى اذا وقع النعل على النعل اقتنع كلٌّ بدياره وامسك الجار عن هضم جاره ...

فليحرص الشرقيون من كل فريق ان يكونوا اولى قوة مانعة وان يوحدوا كلمتهم فيجعلوها كلمة جامعة فان بفوتهم خلاص الغرب والشرق .»

ومن تضاعيف الكتاب نفهم معنى « خلاص الغرب بالشرق » اي ان آمال الامير معقودة على اصلاح العالم بنشر الدين الاسلامي حتى اذا عمَّ الخافقين عاشت البشرية عمرها الذهبي.

تلك القضية لا يوضحها بعبارات جلية ، لكنها مفهومة من النصوص الكثيرة التي رواها عن ستودارد وعن زعماء الحركة الاسلامية الجامعة ، ولم يفندها بل مال اليها وكل ما كتبه في مؤلفه مثبت لها.

اليك ما جاء في كتاب « الحاضر » عن الشيخ عبد الحق (١: ٢٧٥) في مخاطبته المسيحيين :

« اجل الدين الاسلامي لم يبرح ولن يبرح على عداء حضارتكم وتمدنكم فاعلموا يا جهابذة الغرب ان النصراني ، أرفيعاً كان ام وضيعاً دنيئاً ، فانه بمجرد كونه نصرانياً ، ليس له عندنا منزلة ولو حفرت ، مهما حفرت من منازل الانسانية. وهذه مقالتنا لكم سهلة واضحة ان من ضل سبيله فانكر وحدانية الله الواحد الاحد ، واتخذ له من دون الله ارباباً ، فقد ضرب بالبله والخبال ، فان رمنا صلته كان ذلك منا احتقاراً لديننا وانكاراً لباري الكائنات : وعلى ذلك فالمتخذ الهاً غير الله والجاحد الوحدانية لمستحق للنقمة الابدية وليس ذلك جميع الامر بل ان اقدس عمل يقوم به المؤمن هو قتاله لهذا المنكر الجاحد حتى يحمله على دخول الاسلام او يستأصل شأفته من على وجه الارض . نحن لانعرف في هذا العالم سوى المؤمنين او الكفار اما نحن المؤمنين فتصل صلات المحبة والاحسان والاخوة بعضنا ببعض ، واما انتم الكفار فانا لكم ماقتون ومبغضون ومقاتلون . »

فينعت الامير شكيب ذلك الكلام بالغلو العظيم ، لكنه لم يكذبه بل عذره لكونه موجوداً في « اتباع كل امة » على زعمه.

ولكن تعليق المؤلف سترداد عليه لا يزال صحيحاً وهو ان هذا الكلام يلاقي في جمهور المسلمين وسوادهم اذاناً صاغية (في جريدة شريف باشا مشروطية آب ١٩٢١) فتأثيره باقٍ ودويّه يترامى من افق الى افق من الشرق الى الغرب!

ومن تعاليم جمال الدين الافغاني الداعي العظيم الى الجامعة الاسلامية اقوال تضطرم لظًى ونيراناً . وما كان احرانا باهمالها لولا وجوب التيقظ لها وارشاد الرأي العام الى ما فيه الرشاد فلا ننقاد الى كل رائح وغاد ، قال :

« العالم النصراني ، على اختلاف اممه وشعوبه عرقاً وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللاسلام على الخصوص . فجميع الدول النصرانية متحدة معاً على دك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا.

جميع الشعوب النصرانية مجسمة متفقة على عداء الاسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسحق الاسلام سحقاً.

جميع هذا يوضح ان العالم الاسلامي يجب عليه ان يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً مستمسك الاطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك الذياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول الى هذه الغاية الكبرى انما عليه اكتناه اسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته . »
(١ : ٣٠٨)

وان من يتقصى اسباب الاضطرابات والفتن التي حدثت في سورية ايام حوادث سنة ١٩١٩ و١٩٢٥ ، وفي المغرب وطرابلس الغرب يرى ان روح تلك الحركات انما هي المبادئ التي ذكرناها وعليها يبني دعاة الجامعة العربية او بالاحرى الاسلامية آمال مستقبلهم .

وكل يعرف ان للبلشفية يداً تحرك الثورة ، لا غيرةً على العقيدة الاسلامية ، ولكن استخداماً لها في معاداة دول اوروبة وترويجاً للشيوعية ، فصار المشكل القائم بين الشرق والغرب خطراً على السلام العالمي ، وصار بعض كتبة الغرب ينبهون اوروبة الى ما يحدق بها من الويلات اذا ما ابادت شعوبها بالحروب الدولية الاوروبية وانهكت قواها واتى يوم لا يبقى لها ما يكفيها مؤونة الدفاع عن كيانها وعمرانها ومدنيتها دون تيار مهاجمة الشعوب الشرقية .

فترى الحالة العصبية التي اوصلنا اليها كتاب « الحاضر » باحتكاك متناقض

الآراء عن غير روية وتدارك مغبة . فهل هذا ما نرغبه لمجموعة اراد صاحبها ان تكون موسوعة علوم ومرشدة الى الهدى.

تحفز الغرب لمصادرة الحركة القومية الشرقية ونظر علماء الكثلكة فيه

ان دعاة الجامعة الاسلامية يريدون تجنيد الشرق على الغرب . ولكن هل دروا ان في الغرب من يتحفز لملاقاتهم . ان من هؤلاء المتحفزين من ليس له سلاح سوى قلمه شأن الامير . لنسمعهم لان في اقوالهم عبرًا مفيدة سوف تساعدنا على ختام المقال بالمحبة والوداد ان شاء الله.

سنة ١٩٢٧ ظهر كتاب بقلم هنري ماسي وعنوانه « الدفاع عن الغرب » وصفه الاب لوثنك في المشرق (٢٥ [١٩٢٧] ٦٣٠) وفكرته الجوهرية ان بلاد الغرب اعني اوروبة ، وكل من يمتّ اليها تمدينًا واخلاقًا ، امست في خطر يحدق بها ، وهو مهاجمة الامم الشرقية . وقال ما خلاصته ان المسيحية والتمدن الاوروبي او الغربي هما رضيعا لبان او يكادان ان يكونا كذلك وان كل خراب يحل في العالم الغربي يعود بالويل على المسيحية . فنظريته في نوعها تشبه نظرية الامير شكيب كانه يدعو الى الدفاع عن كيان الغرب والمسيحية معًا كما يدعو الامير ومن حذا حذوه الى الدفاع عن الشرق والاسلام معًا زعمًا منهما ان الغرب محتكر المسيحية ، والشرق الاسلام.

على ان ذلك لمخالف للحقيقة . وهذا ما بيَّنه حضرة الاب لوبروتون في نقده كتاب هنري ماسي في مجلة الابحاث الافرنسية (*Etudes*, 192-129) وقوله صوابي وسنروي القضية على علاتها بالاخذ عنه ، وهي ، مع معالجة المشكل من الجانب المسيحي لا تنفكّ تؤدي لنا الجواب النهائي على دعاة الجامعة الاسلامية.

عرض الاب لوبروتون اراء ماسي في ارتباط الغرب بالمسيحية الشديد العرى ثم قال : « ولكن ابانا ان ننظر الى الكنيسة كما لو كانت قوة غربية فحسب . لا شك ان كل ما للغرب من ايمان وحياة لقد اتاه من المسيحية ، ولكن تلك الكنوز ليست خاصة اللاتين وحدهم ولا خاصة الغربيين وحدهم وهي عطية الله للبشر اجمعين لكي تجدد حياة الشعوب.» ثم عرض نظرية من قالوا بارتباط

الغرب بالمسيحية بحيث لا تنتشر المسيحية الا غربية.

وروى الاب لوبرتون نظرية السيد دوشان احد اعلام التاريخ المسيحي، فيما يخص اتصال المسيحية بالغرب فقال:

«من نظر الى المسيحية نظرة مجردة عن روح الدين رأى انها دين اوروبية وان عناصر تمدينها كالتشريع والفن والادب والفلسفة الطبيعية هو اوروبي، اي انها في نموها اتخذت لها مادة ساغتها طبقاً لطبيعتها، لكنها مدينة بها الى عناصر خارجية سبقت وجودها. فان صيغة تعاليمها الدينية واصطلاحاتها اللاهوتية مستندة الى الفلسفة اليونانية، وطقوسها تحوي عدداً غير قليل من خطط الطقوس التي كانت قبلها وتشريعها مطبوع بطابع الحق الروماني فهي سامية الاصل رومانية يونانية النمو. تلك الحالة تساعد ردّاً على سؤال من سأل: ما بال المسيحية لم تمد ظلها الظليل ابعد من البلاد الاوروبية والاميركية؟ فالجواب ان الدين المسيحي كونه الدين الحق لا بد ان يكون يوماً الدين العالمي الوحيد. ولكن لما كانت العلاقات بينه وبين التمدين الاوروبي مشدودة العرى صار من المعقول ان يمتد ويسير مع امتداد وسير تلك المدنية ذاتها. وليس من يشك في فوز المسيحية النهائي مع انتشار التمدين الغربي.

وسوف يأتي يوم تخلف فيه العوائد والتقاليد والمؤسسات السياسية والاوروبية وانظمتها ما هو معهود مثلها في داخلية افريقية والهند والصين. حينئذٍ تأذن ساعة النصر المسيحي العظيم. نعم ان ذلك النصر سوف يكون في اوله مزيجاً مشوّهاً مما تأتي به العناصر الاوروبية من افكار لادينية ومن مساع ومهمات مادية ومن جشع في ارتشاف اللذات. ولكن سوف يأتي يوم يتحد فيه بالرب يسوع كل من كان من البشرية تواقاً الى الله والى الحق والجمال والصلاح حينئذٍ سوف تبلغ الكنيسة ابعد ما يمكنها بلوغه في الكثلكة. وكما ان تمدين اثينة ورومة فتح العالم في اقصى ما كان عليه، هكذا سوف تفتح المسيحية العالم على قدر ما في العالم قابلية لينفتح للحقيقة والفضيلة بواسطة التمدين الغربي الصالح.»

الدين الحقيقي لا شرقي هو ولا غربي

وردّ الاب لوبروتون على دوشان وقال في ذلك :

تلك كانت نظرية دوشان منذ زهاء نصف القرن ولكن صارت الافكار تتغير في حقيقة ضرورة التمدين الاوروبي لانتشار الدين المسيحي ، وليس من الراهن ان انظمة اوروبة السياسية سوف تجتاح الانظمة السائدة في الصين لتُدخل الصين في الدين المسيحي . وللكنيسة امل وطيد انها تستطيع فتح ممالك العالم بقوة الصليب لا بقوة غيرها .

فان كان الدين المسيحي يطمح باكتساب الشعوب الى الانجيل بسلاح غير سلاح الصليب فلا ينال منهم الا جفاء . لانه اذا طلب تمدينهم بمدنية الغرب اجاب بعضهم انهم اعرق قدماً بالمدنية من الغرب . واذا اخذنا لنا مثالاً من اهل الصين رأيناهم متحضرين بحضارة خاصة بهم قبل شروق شمس الحضارة على اوروبة او اميركة بقرون . فمن اشترط عليهم باعتناق المدنية الاوروبية ليقبلهم في الدين المسيحي لم يجد فيهم الا اباء واحتقاراً .

وليس من كرامة الكنيسة ان تطمح الى استعمال وسائل المدنية ، ولوكانت راقية كالمدنية الغربية ، لفتح العالم للمسيح ، وقد قال له المجد : « مملكتي ليست من العالم» وقال الرسول : « ان في الدين المسيحي ، لا يوناني ، ولا يهودي ولا ختان ولا قلف ولا اعجمي ولا اسكوتي ولا عبد ولا حر بل المسيح هو كل شيء وفي الجميع .» (كول ٣ : ٩-١١) فما ابعد عن روح الانجيل والتبشير المسيحي فكر القائلين ان ملكوت الله لا ينتشر الا تحت لواء المدنية الاوروبية وانه يعجز عن هداية الشعوب التي لم تستعد له باقتبال المدنية الاوروبية .

ان السيد له المجد مثّل لنا الملكوت بالخميرة التي تخمر عجين البشرية كلها ، واوحى لنا القديس بولس حكمة الله وقوته بالمسيح ، فبها يبسط سلطانه على كل حكمة وقوة في العالم وشدّ ما قد يكون دهشه لو سمع الناس يشترطون عليه بنشر المدنية اليونانية او بسط السلطة الرومانية في البلاد المدعوة الى المسيحية قبل تبشيرها .

وبالامر الواقع قد فتحت الكنيسة المسيحية شعوباً لم تكن قد نالتهم من صبغة المدنية اليونانية الا قشرة رقيقة سطحية. فنصر الدين المسيحي امم الجرمان والقلت ومصر وليبية ولم ينصرها الا بقوة الصليب.

ودخل بلاد الشرق بسرعة مدهشة . فارمينية اضحت مملكة مسيحية منذ اوائل القرن الرابع . وكذلك بلاد سورية وآسية منذ فجر التاريخ المسيحي.

وكما كان انتشار الدين المسيحي مستقلًا عن التمدن اليوناني الروماني في نشأته كذلك ظلّ في امتداده ونموّه على مدى التاريخ الى يومنا. ذلك ما تشهد له اعمال الرسالات الكاثوليكية في العالم. واعلم ان المسيحية لا تصطبغ بالصبغة الغربية المحضة الا وتكذب اصلها . فالمسيح ذاته قال ان الخلاص لا يأتي الا باليهود . فالعهد القديم وكتب الاباء والانبياء اسّ للعهد الجديد ولم يمسخ عهد ما اتى به عهد. والكنيسة تقرّ باصلها اليهودي السامي اذ تقول مع ترتليانوس: « لسنا من اثينة ولكن من اورشليم ، وتعليمنا صادر من رواق سليمان.»

ذلك النور العظيم الذي اضاء علينا من المشرق كشف لنا على آفاق لم يحلم بها يوناني ولا روماني . فاستبانت اسرار الدين العظام في تعاليم الانبياء والمزامير وموضوعها عظمة الله ولطفه وقداسة الناموس وبغض الخطية. ثم اوضحها الوحي المسيحي وعلى تعليمها نشأنا وبها صرنا ابناء ابراهيم وبني اسرائيل بالحقيقة.

نعم ان الفتح الاسلامي افقد المسيحية في الشرق عدداً غير قليل من ابنائها، ومن ثم فقد ظهرت في ايامنا سحنة المسيحية غربيةً اكثر منها شرقية ، لكن المسيحية بجوهرها ليست شرقية ولا غربية . وها ان مسيحيي الشرق ظلوا شرقيين ولم يفقدوا شخصيتهم . فالمسيحية تحب تقاليد الشرق وتراعي اميال الشرقيين فيما هو فيها من خير . وهي تعتبر الشرق مهدها وقد خرج منه الرجال العظام من حملوا اليها نور الايمان الى الغرب ؛ وفي الشرق اي في مصر وسورية وكبادوكية تعلم كبار معلمي الغربيين في القرن الرابع وفي الشرق تدرب النساك الاوربيون على ممارسة الحياة النسكية.

وخلاصة الكلام ان الدين المسيحي لا يحتاج الى الوسائل البشريه من تمدن او سلاح لينشأ وينتشر . ومن ثم نستنتج ونقول ان هذه النظرية لحقيقة

بان تلفت انظار الدعاة الى الجامعة الاسلامية.

يرغبون ان يتذرعوا لها بالعنف او بالوسائط البشرية ، وهذه الوسائط لها قيمتها وهي مساعدة على نشر الدعوة . لكنها ليست ضرورية لنشر دين الحق ومناصرته . فالحق يعلو بذاته على القوة وله في العناية الالهية نصير . والا فاي فضل لديانة قوامها السيف!

وهناك نظرية تهمنا نحن ابناء هذه البلاد اللبنانيــة السورية المسيحيين والمسلمين معاً وهي اننا نخسر شيئاً من جنسيتنا بمعاداتنــا العنصر الغربي . ان التعويل على الجامعة العربية العامة لخبط في عالم الخيال ، وهضم لحقوق البلاد ، ومس بواجب الوطنية الصادقة . اي صلة بيننا وبين الصيني او الهندي او الزنجي من اقاصي آسية او من مجاهل افريقية . ولِمَ نغفل عن كنوز بلادنا الادبيــة التي وضعت اس التمدن الاوروبي وهي تجعلنا اقرب صلة الى شعوب الغرب منا الى الشعوب الاسيوية ؟ فلنجمعن شملنا ، ونضم كلمتنا ، ونسعى على اختلاف المذاهب في احيا. تقاليدنا وآثارنا وحياتنا القومية ، ولنا حياة قومية حقيقية ، لا حاجة الى ارتباطها بمشارق الارض ومغاربها. وكل من يغار على مصالح هذه البلاد العزيزة وعلى حفظ كرامتها واعلاء شأنها عليه ان يصل بين حاضرها وماضيها ويذكر انها بلاد الوحي ومنهــا صدر النور الى اقاصي العالم ، ومنها تقتبس ملايين الناس شعلة الهداية في حياتهم الادبية والاجتماعية ؛ فحسبنا بذلك فخراً.

وهذه البلاد بلادنا مهد التاريخ والمدنيات القديمة ايام لم تدرج اليونان من مهد حضارتهــا . تعالوا ننعش فيها ذكر تلك الامجاد ، فنجعلها اراضي يزورها الناس ويتعلمون فيها تاريخ اجيالهم واسلافهم من طيات تاريخنا . تعالوا نعزز الامن والسلام والوئام ، فنعيش متفقين وننبذ كل عارض يحول دوننا ودون السير الى الامام ، فيكون مقامنا في مصاف شعوب العالم المتمدن وهذه تحوم حول البحر المتوسط وهو شرقي غربي وفي ذكره رمز حياتنا وعنوان مستقبلنا.

في شمالي اوروبــة بين تطاحن الــدول العظام وتصادم فرنسة والمانية وانكلترة تحيا امة صغيرة بحدودها وعدد شعبها ، وقد تألبت على مدى التاريخ لتحافظ على كيانها لكنها ، كبيرة بنفسها ، هي الامــة البلجكية . لعلها لو

انضمت الى جارتها الشرقية او الغربية لنالت من رحمة جيرانها اسماً يدوي في ارجاء العالم، ولكنها تنقد وجدانها. اما وقد رضيت بما قسمه لها الله فعاشت في العمل والجد والصدق والكرامة وبرهنت في ساعات التاريخ العصيبة على ان العظمة انما هي عظمة النفوس لا عظمة العدد والعُدد! فما احرانا بتقفي آثارها.

قانون الموجبات والعقود: المبادئ العامة

تأليف بشارة خليل الخوري

٣٢٤ ص. كبيرة، مطبعة المعرض، بيروت، ١٩٣٣

انه من اهم الاصلاحات التي اتت بها السلطة في لبنان وانفعها للبلاد هي ولا شك الاصلاحات القانونية. ان المجلة كانت لم تزل مجموعة الاحكام الوحيدة للمعاملات المدنية. ولا يخفى على احد ان المجلة لم تعد تفي بالاحتياجات العصرية الحاضرة، ولو انه كان لها اعتبارها بزمن مضى.

لذلك قد نشرت الحكومة اللبنانية من مدة قانوناً جديداً سمي بقانون الموجبات والعقود وضعه القانوني الكبير الاستاذ جوسران، عميد معهد الحقوق في مدينة ليون ومحصته اللجنة التشريعية في لبنان.

لكننا وضع القوانين بنصوصها لا يكفي للامكان من تطبيقها، بل يلزم شرح واف مفصّل خصوصاً ان كانت هذه القوانين جديدة في البلاد، تختلف نظرياتها عن نظريات القوانين المعمول بها سابقاً كما هي حالة قانون الموجبات الجديد في لبنان. لذلك كان المؤلف التي اتحفنا به حضرة الشيخ بشارة الخوري، رئيس مجلس الوزراء سابقاً، واقعاً بمحله ومسدداً لحاجة ماسة. فمن قريب تبتدئ المحاكم بتطبيق القانون الجديد والمحامون واصحاب المصالح يتصفحون هذا القانون لدرس كل مادة من مواده والاجتهاد في استنباط معانيها. فيكون شرح قانون الموجبات دليلاً نيّراً كاملاً للقضاة والمحامين واصحاب المصالح جميعاً في عملهم. ومن فوائد هذا الكتاب المحرر باللغة العربية انه بفضل الصفات التي يمتاز بها من وضوح وعلم وافر سيساعد مساعدة كبرى لنشر وفهم النظريات الحقوقية الحديثة في جميع طبقات الاشخاص الذين يشتغلون بالمسائل

الحقوقية ، اذ انه لتاريخ اليوم كان يصعب للمتفقهين الجاهلين اللغة الافرنسية ام غيرها من اللغات الاجنبية ان يطلعوا على النظريات المذكورة وكيفية تطبيقها وتطوّرها وتفرعاتها. فالآن هؤلاء المتفقهون يجدون زبدة ما يلزمهم من المعلومات في المؤلف الجديد الذي نتمنى له ، نفعاً لعموم اهل بلادنا ، رواجاً كبيراً .

اميل تيان

شهداء حلب

وثائق تاريخية جمعها الاكسرخوس اكاكيوس كوسا قب ، من مصادرها الرسمية ؛ وعربها الارشمندريت داميانوس شبارخ قب

مطبعة القديس بولس ، حريصا ، ق ٨ ، ص ٢٢٠ ، ١٩٣٣

هذا الكتاب هو الحلقة الخامسة من سلسلة «الوثائق» . عني به الجامع والمعرب ، بناء على رغبة السيد مكاريوس سابا ، متروبوليت حلب وتوابعها . وفيه اخبار داود الرومي المقتول سنة ١٦٦٠ ، وابراهيم الدلال سنة ١٧٤٢ ، والحلبيين الاحد عشر الذين قتلوا سنة ١٨١٨ . قلنا هي اخبار بل قل هي اعمال تذكرنا «باعمال الشهداء.» وقد تشفعها شهادات عديدة تؤكد صحتها. ومن ثم لنا الامل انها ستنال اهتمام السلطة الكنائسية ، وتؤدي ، ان شاء الله ، الى تطويب مَن اهرقوا دماءهم في سبيل الايمان الكاثوليكي . ولا يخفى علينا ما لتلك المذكرات من صدى الم نود ، واخواننا المنفصلين ، ان يتضاءل مع مرور الايام فيضيع ويُنسى. على اننا لا نردده في قلوبنا الا عن غاية صالحة وهي التي من اجلها تعظم الكنيسة ذكر شهدائها ، اي ليكونوا قدوة لسائر ابنائها ببسالتهم في المحافظة على ايمانهم . ومن ثم ننتهز فرصةً لنصلي من اجل من تمجد الله على يدهم بشهادة اصفيائه ولا سبيل بيننا الى حزازات ولا الى مباغض. ونسأل الله ان يُتمّ ما قد ابتدأه منذ ذلك العهد باحياء روح الانضمام الى الكثلكة في حلب وفي سائر البلاد فلا يكون الا راع واحد ورعية واحدة.

كل يعرف ما لوثائق رباط اليسوعي من القيمة في نظر المؤرخين ، وان وثائق حريصا لتنال قيمة تستحق لها في المكاتب مقاماً مجاوراً لوثائق رباط على ان توضع لها الفهارس الابجدية فتسهّل استنباط موادها. ف. ت.

دائرة المعارف الاسلامية

نقلها الى العربية

محمد ثابت الفندي ، احمد الشنتناوي ، ابراهيم زكي خورشيد ، عبد الحميد يونس

تصدر كل شهرين عدداً – العدد الاول والثاني .

لجنة الترجمة – شارع قصر النيل رقم ٣٣ ، مصر

سنة ١٩١٣ ظهرت الدائرة المعارف الاسلامية الافرنجية باللغات الاوروبية الثلاث : الفرنسوية والانكليزية والالمانية في نشراتها الاولى . وتتابعت تلك النشرات قبل الحرب ثم تباطأ ظهورها من جراء انشغال الناس عن الدروس والمطالعات والطبع بالكارثة العالمية الكبرى . وانتهت الحرب واذا بالمواد المعهود بامرها الى بعض المستشرقين لم يتيسر امرها للناشر ، فصار يطبع الكراريس بحسب اسبقيتها بالوصول الى المطبعة لا بحسب ترتيبها الابجدي .

ومن اجل ذلك سبقت بعض المواد غيرها في السلسلة . والآن بين يدينا من الموسوعة ، عدا المجلدين الاولين ، حلقات متقطعة من المجلدين الاخيرين . وهناك حلقات لم تصل الينا بعد .

وكنا نتوقع نقل هذا المؤلف الكبير الى اللغة العربية لما فيه من الاهمية ولما لقراء العربية من حاجة اليه . لكننا لم نكن لنعلل النفس ان نرى تحقيق الشروع بالعربية قبل نهايته باللغات الاوروبية . وهناك احرف كالتاء مثلاً فانها لم تأت بعد بالكتاب الافرنجي . اما النسخة العربية فسوف تضطر الى نشرها في مجلدها الاول . ولنا الامل ان يكون المعربون قد اتفقوا مع الادارة ولم يباشروا العمل الا بعد ان رتبوا المواد بتمامها وهم غير غافلين عما يتور المسلك من العقبات ، مصممون النية على تذليلها . وهل توفقوا الى ذلك في الكراسين الاولين وقد ظهر احدهما في تشرين الاول والثاني في كانون الاول من العام ١٩٣٣ ؟

لا يسعنا الا ان نحيي فيهم النشاط والغيرة وفضائل الشباب . وان ما نراه من عنايتهم بنقل من غير زيادة ولا نقصان يذكر لهم فيشكر . وان يكن هناك شيء من سوء الفهم والخطأ في التعريب والخلط في بعض الاسماء ، فانما

يعزى الى التسرّع وعدم التدقيق، ولنا الأمل بتجنب ذلك في الاجزاء المقبلة.

انما لنا ملاحظة نستميح عذرًا بابدائها في سبيل ما نراه خير المصلحة:

جاء في المقدمة ص ٦: «ان اعلام مصر من الازهر او من الجامعة ساهموا بنصيب وافر في مراجعة الترجمة وفي التعليق على بعض الفقرات وفي ابداء الملاحظات عليها.»

وفي الامر الواقع لقد تذيلت صفحات الكتاب بغير ما هو في الاصل الافرنجي. واحب ان احسن الظن واعتقد ان المعربين اتفقوا مع اولياء الامر الافرنج في التصرّف بالمواد كما تصرفوا بها، لان غرضهم انما هو قراء العربية ورأوا ان لا بد من تعليق بعض الحواشي.

وهذه نظرية قيمة على ان يجرى بموجبها في الكتاب كله. ومن ثم لا نرى افادة في نقل المصادر العديدة المذيّل فيها كلّ مقال من الموسوعة الافرنجية، لان تلك المصادر انما هي آلة عمل للمتوسعين الذين يريدون درس المواد بحذافيرها. وهؤلاء اما ان يحسنوا قراءة اللغات الافرنجية فلا يعولون على الدائرة المعربة في بحوثهم، واما انهم يجهلونها فاي فائدة لهم من الاسطر العديدة المتطفلة على الصفحات العربية وقد ضاقت رحباً بموادها المطبوعة بالحرف الكبير. فيتضخم الكتاب ويوازي حجمه ضعف ما هو عليه بالافرنجية. ان مادة ابراهيم بالمتن الافرنسي مثلاً محصورة باقل من عمودين ونصف العمود، اما في المتن العربي فتستغرق ثمانية عواميد. على ان المشروع لخطير وجدير بان يشجع لان فيه نوال الدائرة الكبرى ضالتنا المنشودة. وللعربية في حماية الملك فؤاد وروح النهضة الادبية المصرية خير كفيل لتحقيق الامال ان شاء الله. ف. ت.